طِبُّ القُلوب

عند الإمامين الجليلين

ابن تيمية الحرّاني

و

ابن قيّم الجوزيّة

إعداد

عمر أحمد الراوي



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

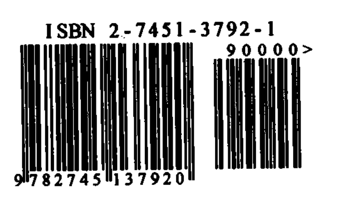
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3792-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقـديم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمد بن عبد الله، النبيّ العربي الأُمّيّ الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المُنتَجَبين.

وبعـد، . . .

فإن القلب في أصل الوضع سليم من كل آفة، والحواسّ الخمس توصل إليه الأخبار فترقم في صفحته، فينبغي أن يستوثق المرء من سدّ الطرق التي يُخشى عليه منها الفتن، فإن القلب إذا اشتغل بشيء منها أعرَض عمّا خلق له من التعظيم للخالق والفكر في المصالح. ورُبَّ فتنة علق بها، فكانت سببًا في هلاكه.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنَب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفِين: الآية ١٤].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟: قال: «تلاوة القرآن».

وطبيب القلب عند الصوفية هو الشخص الذي يكون عارفًا بعلم التوحيد وقادرًا على إرشاد وتكميل المريدين، وفي لطائف اللغات: في اصطلاح الصوفية: الطب الروحاني هو علم بكمالات القلوب وأمراضها ومُداواتها وكيفية حفظ الصحة والاعتدال الجسماني والروحي للقلب وردّ الأمراض التي يمكن أن تصيب القلب، والطبيب عبارة عن الشيخ العارف بالطب الروحاني والقادر على إرشاد وتكميل الناس.

هذا كتاب «طبّ القلوب عند الإمامين: شيخ الإسلام ابن تيمية الحرّاني، وابن قيِّم الجوزية» وقد جمعنا، من مجموع مؤلفاتهما، حيث نجد هذا الموضوع موزعًا في أكثر من كتاب، مثل: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، وكتب الإمام ابن قيِّم الجوزية، «روضة المُحِبِّين ونزهة المشتاقين»، و«طريق الهجرتين» و«الجواب الكافي لمَن

سأل عن الدواء الشافي»، و«مدارج السالكين في شرح منازل السائرين»، و«إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان»، وكتب أخرى للإمامين أشرنا إليها في موضعها.

ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

ترجمة شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية

(٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ)

نسبه وولادته:

هو شيخ الإمام الربّاني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وقريع الدهر، شيخ الإسلام، وبحر العلوم، سيّد الحفّاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، وبركة الأنام، وعلّامة الزمان، وترجمان القرآن، عَلَم الزهّاد وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين تقيّ الدين أبو العباس: أحمد ابن الشيخ الإمام العلّامة شهاب الدين، أبي المحاسن عبد الحليم، ابن الشيخ الإمام العلّامة، شيخ الإسلام، مجد الدين، أبي البركات: عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر، بن محمد بن الخضر، بن علي، بن عبد الله ابن تيمية الحرّاني نزيل دمشق، وصاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها[1].

قيل: إن جدّه محمد بن الخضر حجّ على درب تيماء، فرأى هناك طفلة فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتًا فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلقّب بذلك[2].

قال ابن النجّار: ذكر لنا أن جدّه محمدًا كانت أُمه تيمية، وكانت واعظة، فنُسِب إليها وعُرِف بها[3].

ولد شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية بحرّان، يوم الاثنين عاشر ـ وقيل ثاني عشر ـ من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ من هجرة المصطفى ﷺ وسافر والده بالأُسرة إلى الشام إلى جانب التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة، لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا. وقَدِمت الأُسرة إلى دمشق في عام سبع وستّين وستمائة[4].

---

(١) العقود الدريّة في مناقب ابن تيمية لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ص ٤.

(٢) العقود الدريّة، ص ٤.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ـ بتصرّف.

طلبه للعلم:

لقد نشأ ابن تيمية في حجور العلماء، راشفًا كؤوس الفهم راتعًا في رياض التفقّه ودوحات الكتب الجامعة لكل فنٍّ من الفنون، لا يلوي على غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصًا علم الكتاب العزيز والسنّة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلقًا صالحًا سلفيًا متألّهًا عن الدنيا تقيًا، برًا بأُمه، ورِعًا عفيفًا، زاهدًا تقيًا، عابدًا ناسكًا، صوّامًا قوّامًا، ذاكرًا الله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، راجعًا إلى كتاب الله، وسُنّة رسول الله ﷺ في سائر الأحوال والإفتاء، ملتزمًا متمسّكًا بالكتاب والسُنّة، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ولا تملّ، ولا يدخلُ في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حُذّاق أهله. مقصوده الكتاب والسُنّة. ولقد قال ابن تيمية في بادىء أمره: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكِّل عليَّ فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر وينحلّ إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك، في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي[١].

وكان شيخ الإسلام رحمه الله في تلك المدة وأول النشأة إذا اجتمع به أحد في خَتْم أو مجلس ذكر خاص مع أحد المشايخ مع حداثة سنّه يتحدث فتجد لكلامه صولة على القلوب، وتأثيرًا في النفوس، وهيبة مقبولة، ونفعًا يظهر أثره وتنفعل له النفوس التي سمعته أيامًا كثيرة بعقبه، حتى كان مقاله بلسان حاله، وحاله ظاهر في مقامه[٢].

قال الشيخ محمد بن أحمد الحنبلي: لم يبرح شيخنا رحمه الله في ازدياد من العلوم وملازمة الاشتغال وبثّ العلم ونشره، والاجتهاد في سبيل الخير، حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والإنابة والجلالة والمَهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفّة والصيانة، وحُسْن القصد والإخلاص، والابتهال إلى الله وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة له، وشدّة التمسّك بالأثر، والدعاء إلى الله وحُسْن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم والصبر على مَن آذاه، والصَفْح عنه والدعاء له، وسائر أنواع الخير[٣].

---

(١) العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) العقود الدريّة، ص ٧.

اكتشاف جديد في شخصية ابن تيمية:

عُرِفَ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بوجه عام ـ كعالِم متكلّم وفقيه جدلي، ومحدّث كبير، ولا يتخيله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية، أكثر من أنه كان عالمًا ذكيًا، واسع العلم، قوي الحجّة، غزير المادة. والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامّة المؤرّخين، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه[1] لا يرون فيه شيئًا أكثر من محدّث جافّ، وعالِم متبحّر في العلوم الظاهرة، أما ما ذكره الحافظ ابن قيّم الجوزية في مدارج السالكين من أحواله وأقواله بمناسبات شتّى، وكذلك ما ذكره العلّامة الذهبي وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه، وعاداته وشمائله، وأشغاله وأعماله، فيدلّ دلالة واضحة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق بكل جدارة أن يعدّ من العارفين ورجال الله في هذه الأمة، وهناك ينشرح كل صدر للاعتراف بأنه كان يتبوّأ تلك المكانة، ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لا تتيسّر ـ بوجه عام ـ إلّا برياضات شاقّة، ومجاهدات طويلة، وتربية أئمة الفن، ودوام الذِكْر والمراقبة، وذلك ما يعبّر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله[2].

شيوخه:

سمع شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية من الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي جزء ابن عرفة كله، ثم سمع من ابن أبي اليُسْر، والكمال بن عبد، والمجد ابن عساكر، وأصحاب الخشوعي. ومن الجمال يحيىٰ بن الصيرفي، وأحمد بن أبي الخير، والقاسم الأربُلّي. والشيخ فخر الدين بن البخاري، والكمال عبد الرحيم وأبي القاسم بن عيلان، وأحمد بن شيبان، وخلق كثير. وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ. وسمع الكتب السنّة الكبار والأجزاء. ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات[3].

وعُنِي بالحديث وقرأ ونسخ، وتعلّم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم فهمهما وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم النحو، وأقبل على التفسير إقبالًا كليًا. حتى حاز فيه قصب السَبْق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك[4].

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيّم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنة، في كتابه «مدارج السالكين» شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهروي. وأثبت فيه، أن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيّم كانا يحتلّان مكانًا عاليًا في المعرفة والروحانية، والذوق الباطني.

(٢) ربانيّة لا رهبانيّة للشيخ أبو الحسن الندوي، ص ٧١، ٧٢.

(٣) العقود الدريّة، من ص ٩ ـ ١١ باختصار.

(٤) المصدر السابق.

هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة. فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه، وقوّة حفظه، وسرعة إدراكه.

مصنّفات شيخ الإسلام رحمه الله:

من هذه المصنّفات: ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسّري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم. وذلك في أكثر من ثلاثين مجلدًا. وقد بيّض أصحابه بعد ذلك. وكثيرًا منه لم يكتبوه، وكان رحمه الله يقول: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم. وأقول: يا معلّم آدم وإبراهيم علّمني. وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلّم إبراهيم فهّمني، ويذكر قصة معاذ بن جبل وقوله لمالك بن يُخامِر لمّا بكى عند موته وقال: «إني لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان مكانهما، مَن ابتغاهما وجدهما فاطلب العلم عند أربعة، فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلّم إبراهيم»[١].

قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق ـ وكان من أخصّ أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابة لكلامه وحرصًا على جمعه ـ: كتب الشيخ رحمه الله نقول السلف مجرّدة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورًا وآيات يفسّرها، ويقول في بعضها: كتبته للتذكّر! ونحو ذلك! ثم لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن [تفسيرًا مرتّبًا] على السور، فكتب يقول: إن القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه وفيه ما قد بيّنه المفسّرون في غير كتاب، ولكن في بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنّف الكبير في آية واحدة تفسيرًا، ويفسّر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهمّ من غيره. وإذا تبيّن معنى آية تبيّن معاني نظائرها[٢].

وقال: قد فتح الله عليّ في هذه المرة من معاني القرآن ومن أُصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا. وأرسل إلينا شيئًا يسيرًا مما كتبه في هذا الحبس، وبقي شيء كثير من مسألة الحكم عند الحكّام مما أخرجوا كتبه من عنده، وتوفي وهو عندهم إلى هذا الوقت نحو أربع عشرة رزمة. ثم ذكر الشيخ أبو عبد الله ما رآه ووقف عليه من تفسير الشيخ[٢].

---

(١) العقود الدريّة، ص ٢١، ٢٢.
(٢) المصدر السابق.

ومن مصنّفاته: «تفسير سورة الصمد، وجواب سؤال عن كلام الله تعالى هل يتفاضل؟» وكتاب «بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بِدَعهم الكلامية» في ست مجلدات، وبعض النسخ منه في أكثر من ذلك، وهو كتاب جليل المقدار معدوم النظير كشف الشيخ فيه أسرار الجهمية وهتك أستارهم. ولو رحل طالب العلم لأجل تحصيله إلى الصين ما ضاعت رحلته. ومنها كتاب «منهاج السُنّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» في ثلاث مجلدات، وبعض النسخ في أربع مجلدات، ردّ فيها على ابن المطهر الرافض، وبين جهل الرافضة وضلالتهم، وكذبهم وافتراءهم. ومنها كتاب «جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية» في أربع مجلدات وبعض النسخ منه في أقل. وهو كتاب عزيز الفوائد سهل التناول. ومنها كتاب الردّ على النصارى سمّاه «الجواب الصحيح لمَن بدّل دين المسيح» في مجلدين، وبعض النسخ منه في ثلاث مجلدات وبعضها في أكثر ـ وكذلك كثير من كتبه الكبار تختلف النسخ بها[1].

وهذا الكتاب من أجلّ الكتب وأكثرها فوائد فهو يشتمل على تفسير أيٍ كثير من القرآن، وعلى غير ذلك من المهمات. ومنها كتاب «الإيمان» في مجلد، وهو كتاب عظيم لم يسبق إلى مثله. ومنها كتاب «الاستقامة» في مجلدين، وهو من أجلّ الكتب وأكثرها نفعًا، ومنها كتاب تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل في مجلد، وهو من أحسن الكتب وأكثرها فوائد.

ومن مصنفاته أيضًا: كتاب «بيان الدليل على بطلان التحريم».

وكتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

وكتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم».

وكتاب «تحرير الكلام في حادثة الأقسام»، وسمّاه بعضهم «كتاب التحرير في مسألة حقير».

وكتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

وكتاب «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية».

وكتاب «تفضيل صالح الناس على سائر الأجناس».

وكتاب «التحفة العراقية في الأعمال القلبية».

وكتاب «مسائل الإسكندرية في الردّ على الملاحدة والاتّحادية»، وتعرف «بالسبعينية» لاشتمالها على الرد على ابن سبعين وأضرابه.

---

(١) العقود الدريّة، ص ٢٢، ٢٣.

وكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وكتاب «فضائل القرآن».

وكتاب «أقسام القرآن».

وكتاب «أمثال القرآن».

وهذه المصنّفات بعضها مجلد كبير وبعضها مجلد صغير.

وله كتاب في الردّ على المنطق «مجلد كبير».

وله مصنّفان آخران في الردّ على المنطق نحو مجلد.

وله كتاب في محنته بمصر، مجلّدان، ردّ فيه على القائلين بالكلام النفسي من نحو ثمانين وجهًا.

وله في مسألة القرآن مؤلفات كثيرة وقواعد وأجوبة وغير ذلك، وإذا اجتمعت بلغت مجلدات كثيرة منها ما بُيّض ومنها ما لم يُبيّض، فمن مؤلفاته في ذلك:

الكيلانية، والبغدادية، والقادرية، والأزهرية، والبعلبكية، والمصرية.

وله في الردّ على الفلاسفة مجلدات وقواعد أملاها مفردة غير ما تضمنته كتبه منها: «إبطال قولهم بإثبات الجواهر العقلية».

ومنها: «إبطال قولهم بقِدَم العالم وإبطال ما احتجّوا به». ومنها «إبطال قولهم في أن الواحد لا يصدر عنه إلّا واحد».

وله كتاب في الوسيلة، مجلّد.

وكتاب «الردّ على البكري في الاستغاثة» مجلّد.

وكتاب «شرح أول كتاب الغزنوي في أصول الدين»، مجلّد لطيف.

وكتاب «شرح عقيدة الأصبهاني»، يسمّى الأصبهانية.

وكتاب شرح فيه بضع عشرة مسألة من كتاب الأربعين للفخر الرازي أكثر من مجلدين.

وكتاب يُعرَف بالصفدية في الردّ على الفلاسفة في قولهم إن معجزات الأنبياء عليهم السلام قوى نفسانية وفي إبطال قولهم بقِدَم العالم.

وله كتاب «شرح أول المحصل»، مجلّد.

وكتاب «الردّ على أهل كسروان الرافضة». مجلّدان.

يسمّى «الهلاونية». وهو جواب سؤال ورد على لسان هولاكو، ملك التتار. مجلد.

وله في الردّ على مَن قال: إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، عدّة مصنفات. وله في الردّ على مُنكِري المعاد قواعد كثيرة.

وله تعليقة على كتاب «المحرّر في الفقه»، لجدّه الشيخ مجد الدين في عدّة مجلدات، وله كتاب شرح فيه قطعة من كتاب «العمدة في الفقه»، للشيخ موفّق الدين، في مجلدات.

وله قواعد كثيرة في فروع الفقه لم تبيّض بعد، ولو بُيِّضت كانت مجلدات عدّة، وقد جمع بعض أصحابه قطعة كبيرة من فتاويه الفروعية وبوّبها على أبواب الفقه في مجلدات كثيرة تُعرَف بالفتاوى المصرية سمّاها بعضهم «الدّرر المضيئة من فتاوى ابن تيمية». وله مؤلفات في صفة حج النبيّ ﷺ والجمع بين النصوص في ذلك والكلام في متعة الحج والعمرة المكيّة وما يتعلق بذلك وطواف الحائض أكثر من مجلدين.

وله مصنفات في زيارة القبور، وهل تُباح للنساء؟ والفرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية، وفي المشاهد: متى حدثت؟ وفي النذر لها، وفي المشهد المنسوب للحسين رضي الله عنه. وفي قبر عليّ رضي الله عنه وغير ذلك عدّة مجلدات.

وله في مسألة شدّ الرِّحال ولوازمها ـ التي حُبِسَ ومات في السجن بسببها ـ شيء كثير، بيّض منه مجلدات كثيرة.

وله في الطلاق ومسائل الخلع وما يتعلق بذلك من الأحكام شيء كثير ومصنّفات عديدة. بيّض الأصحاب من ذلك كثيرًا وكثير منه لم يبيّض ومجموع ذلك نحو العشرين مجلدًا.

وله قواعد كثيرة في سائر أنواع العلوم، منها: قاعدة في الصفات والقدر تسمّى «تحقيق الأثبات للأسماء والصفات».

وحقيقة القدر بين الجمع والشرع. وهي المعروفة بالتدمرية.

وقاعدة في أن مخالفة الرسول ﷺ لا تكون إلا عن ظنٍّ واتّباع هوى.

وقاعدة في أن التوحيد والإيمان يشتمل على مصالح الدنيا والآخرة.

وقاعدة في إثبات كرامات الأولياء.

وقاعدة في أن خوارق العادات لا تدلّ على الولاية.

وقاعدة في الصبر والشكر.

وقاعدة كبيرة في الرضا.

وقاعدة في الشكر والرضا.

وقاعدة في أن كل آية يحتجّ بها مبتدع فيها دليل على فساد قوله.

وقاعدة في أن كل دليل عقلي يحتجّ به مبتدع فيه دليل على بطلان قوله.

وقاعدة في الخلوات، وما يلقيه الشيطان لأهلها من الشبه. والفرق بين الخلوة الشرعية والبِدعية.

وقاعدة في الفقراء والصوفية، أيّهم أفضل؟

وقاعدة في الفقير الصابر والغني الشاكر، أيّهما أفضل؟

وقاعدة في أهل الصُفَّة ومراتبهم وأحوالهم.

وقاعدة كبيرة في محبة الله للعبد ومحبّة العبد لله.

وقاعدة في الإخلاص والتوكّل.

وقاعدة في الإخلاص وتقديره بالعقل.

وقاعدة في الشيوخ الأحمدية وما يُظهرونه من الإشارات.

وله قواعد وأجوبة في تحريم السماع أكثر من مجلدين.

وقاعدة في شرح أسماء الله الحسنى.

وقاعدة في الاستغفار وشرحه وأسراره.

وقاعدة في أن الشريعة والحقيقة متلازمان.

وقاعدة في الخُلَّة والمحبّة، أيّهما أفضل؟

وقاعدة في العلم المحكم.

وقواعد وأجوبة في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

وقاعدة في وجوب نصيحة أُولي الأمر والدعاء لهم.

وقاعدة في أحوال الشيخ يونس الغيبي والشيخ أحمد بن الرفاعي.

وقواعد وأجوبة في عصمة الأنبياء عليهم السلام.

وقاعدة في الاستطاعة، هل هي مع الفعل أو قبله؟

وقاعدة في العدم واستطاعته.

وقاعدة في وجوب العدل على كل أحد، لكل أحد، في كل حال.

وقاعدة في فضل السلف على الخلف في العلم.

وقاعدة في حق الله وحق رسوله وحقوق عباده، وما وقع في ذلك من التفريط.

وقاعدة في أن مبدأ العلم الإلـٰهي عند النبي ﷺ هو الوحي، وعند أتباعه هو الإيمان.

وقاعدة في أن الحمد والذمّ والثواب والعقاب بالجهاد والجدّ، وأنها إنما تتعلق بأفعال العباد لا بأنسابهم.

وقاعدة في أن لكل حمد وذم للمقالات والأفعال لا بدّ أن يكون بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ.

وقاعدة فيما لكل أمة من الخصائص، وخصائص هذه الأمة.

وقاعدة في الكليّات.

وقاعدة في الفناء والاصطلام.

وقاعدة في العلم والحلم.

وقاعدة في الاقتصاص من الظالم بالدعاء وغيره، وهل هو أفضل أم العفو؟

وله قاعدتان في قرب الربّ من عابِديه وداعِيه.

وقاعدة في تزكية النفس.

وقاعدة على كلام ابن العريف في التصوّف.

وقاعدة في الصراط المستقيم في الزهد والورع.

وقاعدة في الإيمان والتوحيد، وبيان ضلال من ضلّ في هذا الأصل.

وقاعدة في أمراض القلوب وشفائها.

وقاعدة في السياحة ومعناها في هذه الأمة.

وقاعدة في خلّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه الإمام المطلق.

وقواعد عدّة في الشهادتين.

وقواعد كثيرة فيمن امتحن في الله وصبر.

وقاعدة في الصبر والصفح الجميل والهجر الجميل.

وقاعدة فيما يتعلق بالوسيلة بالنبيّ ﷺ والقيام بحقوقه الواحية على أمته في كل زمان ومكان. وبيان خصائصها التي امتاز بها على جميع العالمين. وبيان فضل أمته على جميع الأمم.

وقاعدة تتعلق بالصبر المحمود والمذموم.

وقاعدة تتعلق برحمة الله تعالى في إرسال محمد ﷺ وأن إرساله أجلّ النِعَم.

وقاعدة في الشكر لله وأنه يتعلق بالأفعال الاختيارية.

وقاعدة في المقرّبين هل يسألهم منكر ونكير؟

وقاعدة في الفتوّة الاصطلاحية وأنه ليس لها أصل في الأحكام الشرعية.

وقاعدة في الكلام على «المرشدة» التي ألّفها ابن تومرت. وله أجوبة تتعلق بها أيضًا.

وقاعدة في كلام الجنيد لمّا سُئِلَ عن التوحيد فقال: «هو إفراد الحدوث عن القِدَم».

وقاعدة في التسبيح والتحميد والتهليل.

وقاعدة في أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته.

وقاعدة في الكلام.

وقاعدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١] الآية تسمّى العبودية وهي جليلة القدر.

وقاعدة فيما أحدثه الفقراء المجرّدون.

وقاعدة في القدرية وأنهم ثلاثة أقسام: مجوسية ومشركية وإبليسية.

وقاعدة في بيان طريقة القرآن في الدعوة والهداية النبوية وما بينهما وبين الطريقة الكلامية والطريقة الصوفية.

وقاعدة في وصية لقمان لابنه.

وقاعدة في تسبيح المخلوقات من الجمادات وغيرها: هل هو بلسان الحال، أم لا؟

وقاعدة تُعرَف بالصعيدية تتعلق بالثنوية.

وقاعدة في لباس الخرقة: هل له أصل شرعي؟ وفي الأقطاب ونحوهم.

وقاعدة في القضايا الوهمية.

وقاعدة فيما يتناهى وما لا يتناهى.

وقاعدة في الخلطة والعزلة.

وقاعدة في مشايخ العلم، ومشايخ الفقراء: أيّهم أفضل؟

وقاعدة في تعذيب المُريد بذنب غيره.

وقاعدة في قوله ﷺ: «ستفترق أُمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

وقاعدة في أن جماع الحسنات: العدل، وجماع السيئات: الظلم، ومراتب الذنوب في الدنيا.

وقاعدة في أن الحسنات تعلّل بعلّتين: جلب المنفعة ودفع المضرّة والسيئات بالعكس.

وقاعدة في فضائل عشر ذي الحجة.

وقاعدة في رسالة النبي ﷺ إلى الجنّ والإنس.

وقاعدة في أن جميع البِدَع ترجع إلى شعبة من شعَب الكفر.

وقواعد في الكلام على السُنَّة والبِدعة وأن كل بِدعة ضلالة.

وقاعدة في الإجماع وأنه ثلاثة أقسام.

وقاعدة كبيرة في أصول الفقه، غالبها نقل أقوال الفقهاء.

وقاعدة فيما يظن من تعارض النص والإجماع.

وقواعد فقهية في مسائل من النذور، والإيمان، ونكاح الشغار وما يستقر به المهر ونحو ذلك، مجلد.

وقواعد في المغالبات وما يحلّ من الرهن وهل يفتقر إلى محلّل؟ مجلد.

وقواعد في المائعات والمياه وأحكامها وفي الميتة إذا وقعت في المائعات والكلام على حديث القلّتين وما يتعلق بذلك شيءٌ كثير.

وقواعد في الوقف وشروط الواقفين، وما يعتبر منها وفي إبداله بأجود منه وفي بيعه عند تعذّر الانتفاع ونحو ذلك أكثر من مجلد.

وقاعدة كبيرة في تفضيل مذهب الإمام أحمد وذِكْر محاسنه نحو مجلد.

وقاعدة في تفضيل مذهب أهل المدينة تسمّى «المالكية».

وقواعد في الاجتهاد والتقليد، وفي الأسماء التي علّق الشّارع بها الأحكام. مجلد.

وقواعد في المجتهد في الشريعة: هل يأثم إذا أخطأ الحق؟ وهل المصيب واحد؟ ونحو ذلك أكثر من مجلد.

وقاعدة في الإحسان.

وقاعدة في شمول النصوص للأحكام.

وقاعدة في تقرير القياس في مسائل عدّة، والردّ على مَن يقول: هي على خلاف القياس.

وقاعدة في شرح رسالة ابن عبدوس، وهي متضمنة لكلام الإمام أحمد في أصول الدين.

وقاعدة في لعب الشطرنج وأنه حرام.

وقواعد كثيرة في السفر الذي يجوز فيه القصر والفطر، هل هل حدّ؟ وفي الجمع بين الصلاتين، وفي ذوات الأسباب هل تصلّى في وقت النهي. وفي مواقيت الصلاة؟ وفي أن أول ما يحاسب به العبد الصلاة. وفي تارك الصلاة، وتفصيل القول فيه. وفي أن الصلاة أول الأعمال. وفي تارك الطمأنينة، وذلك شيء كثير جدًا.

وقواعد في الكنائس وأحكامها، وما يجوز هدمه منها وإبقاؤه، وما يجب هدمه. وأجوبة تتعلق بذلك نحو مجلدين.

وقواعد في رجوع المغرور على مَن غرّه. وفي استقرار الضمان. وفي بيع الغرور والشرط في البيع والنكاح وغير ذلك نحو مجلد.

وقاعدة في فضائل الأئمة الأربعة وما امتاز به كل إمام من الفضيلة.

وقاعدة في مقدار الكفّارة في اليمين.

وقاعدة في لفظ الحقيقة والمجاز. وفي العام إذا خصّ هل يكون حقيقة أو مجازًا؟ والبحث مع السيف الآمدي في ذلك.

وقاعدة كبيرة في أن جنس فعل المأمور به أفضل من جنس ترك المنهي عنه.

وقاعدة في طهارة بول ما يؤكل لحمه ذكر فيها نحو ثلاثين حجّة على ذلك.

وقاعدة في تطهير العبادات النفس من الفواحش والمنكرات.

وقواعد وأجوبة في تحريم نكاح الزانية.

وقاعدة في معاهدة الكفّار المطلقة والمقيدة.

وقاعدة في مُفطِرات الصائم.

وقاعدة فيما شرعه الله تعالى بوصف العموم والإطلاق هل يكون مشروعًا بوصف الخصوص والتقييد؟

وقاعدة في أن العامّي هل يجب عليه تقليد مذهب معين أم لا؟

وقاعدة في تعليق العقود والفسوخ بالشرط.

وقاعدة في الجهاد والترغيب فيه.

وقاعدة في ذمّ الوسواس.

وقاعدة في الأنبذة والمُسكِرات.

وقاعدة في الحسبة.

وقاعدة في المسألة السريجية.

وقاعدة في حلّ الدور ومسائل الجبر والمقابلة.

وقاعدة في أن كل صالح أصله اتّباع النبيّ ﷺ.

وقاعدة في الأطعمة وما يحلّ منها، وما يحرّم، وتحرير الكلام على الطيّبات والخبائث.

وقاعدة في اشتراط التسمية على الذبائح والصيد.

وقاعدة في دم الشهداء ومداد العلماء تتضمن أيّ الطائفتين أفضل.

وقاعدة في الانغماس في العدو، وهل يُباح؟

وقاعدة في ضمان البساتين، هل يجوز أم لا؟

وله قواعد في النهي، هل يقتضي فساد المنهي عنه؟

وقاعدة في زكاة مال الصبي.

وقاعدة في الإيمان المقرون بالإحسان وفي الإحسان المقرون بالإسلام.

وقاعدة في اقتران الإيمان بالاحتساب.

وقاعدة وأجوبة في النجوم هل لها تأثير عند الاقتران والمقابلة. وفي الكسوف، هل يقبل قول النجمين فيه؟ وفي رؤية الهلال ونحو ذلك نحو مجلد.

وقاعدة في الأقراء، هل هي الحيض، أو الأطهار؟ واختار أنها الحيض.

وقاعدة في الشُّكر وأسبابه وأحكامه.

وقاعدة في الاستفتاحات في الصلاة.

وقاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي ﷺ وسلاحه ودوابّه. وهي القرمانية.

وقاعدة تتعلق بمسائل من التيمّم والجمع بين الصلاتين تسمّى «تيسير العبادات لأرباب الضرورات».

وقاعدة في النصيرية وحكمهم.

وقاعدة في تحريم الشبابة.

وقاعدة في العقود اللازمة والجائزة.

وله قاعدة جليلة في وجوب الاعتصام بالرسالة وأن كل خير في العالم فأصله متابعة الرُّسل وكل شرّ فمن مخالفتهم: إما جهلًا أو عمدًا.

وقاعدة في تخريب القرآن وما يتعلق بذلك وما ورد فيه من الآثار.

وقاعدة في الكلام على الممكن.

وقاعدة في ذبائح أهل الكتاب.

وقاعدة في تعليل الأفعال.

وقاعدة في الكلام على العدد.

وله رسائل تشتمل على علوم كثيرة منها:

رسالة كتبها إلى الشيخ نصر المنبجي، تسمّى المصرية.

ورسالة كتبها إلى الشيخ شمس الدين الدباهي، تسمّى المدنية.

ورسالة كتبها إلى أهل بغداد.

ورسالة كتبها إلى أهل البصرة.

ورسالة كتبها إلى القاضي شمس الدين السروجي قاضي الحنفية بمصر.

ورسالة إلى غيره من القضاء والعلماء.

ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ عديّ بن مسافر، تسمّى العدوية.

ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ جاكير، وأرسل إليهم أجوبة في مجلد غير الرسالة.

ورسالة كتبها إلى بيت ملك قبرص في مصالح المسلمين تتضمن علومًا نافعة.

وله رسائل إلى البحرين وإلى ملوك العرب وإلى ثغور الشام: إلى طرابلس وغيرها بمصالح تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ورسالة لأهل تدمر.

ورسالة إلى طبرستان وجيلان.

ورسائل للملوك! ملك مصر وملك حماة وغيرهما.

ورسائل إلى الأمراء الكبار.

ورسائل كثيرة كتبها إلى الصلحاء من إخوانه: من مصر إلى دمشق، ومن دمشق إلى غيرها.

ومن السجن شيء كثير يحتوي على مجلدات عدّة.

وله من الكلام على مسائل العلو والاستواء والصفات الخبرية وما يتعلق بذلك من الردّ على الجهمية والقدرية والجبرية وغيرهم من أهل الأهواء والبِدَع ما يشتمل على مجلدات كثيرة.

وله من الكلام على فروع الفقه والأجوبة المتعلقة بذلك شيء كثير، يشقّ إحصائه ويعسر ضبطه.

ومن مؤلفاته: الكلام على دعوة ذي النون في مجلد لطيف. وكتاب فيه الكلام على إرادة الرب تعالى وقدرته وتحرير القول في ذلك على كلام الرازي في المطالب العالية.

ومسألة في العلوّ أجاب فيها عن شبه المخالفين وهي مفيدة، وأخرى في الصفات تسمّى المراكشية وتشتمل على نقول كثيرة.

وقاعدة تتضمن صفات الكمال وما الضابط فيها وما يستحقّه الرب تعالى تسمّى الأكملية، والإحاطة الكبرى، والإحاطة الصغرى، وعقيدة الفرقة الناجية وتُعرَف بالواسطية.

والجواب عمّا أورد عليها عند المناظرة بقصر الإمارة بدمشق.

والكلام على حديث عمران بن حُصين الذي فيه «جئنا نسألك عن أول هذا الأمر» وهو مؤلّف مفيد.

والكلام على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر، وهل هو ثابت أم لا؟ وأيّ ألفاظه هو المحفوظ؟

وكتاب في نزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا.

والجواب على اختلاف وقته باختلاف البلدان والمطالع.

وجواب في اللقاء وما ورد في القرآن وغيره.

وجواب في الاستواء والنزول هل هو حقيقة أم لا؟ تسمى الأربلية.

وجواب في الاستواء وإبطال قول مَن تأوّله بالاستيلاء من نحو عشرين وجهًا ومسألة في المباينة بين الله وبين خلقه.

وله أجوبة أُخَر في مباينة الله لخلقه وفيمن يقول: إنه سبحانه على عرشه بذاته، وأقوال السلف في ذلك.

وله مسائل كثيرة في الأفعال الاختيارية المسمّاة عند بعض المتكلمين: بحلول الحوادث.

منها كلام مفرد على كلام الرازي في الأربعين.

وله مسائل وأجوبة في مسألة القدر والردّ على القدرية وعلى الجبرية أكثر من مجلد.

وله مسألة في محل الشعر والعلوم وغيرها، هل هو واحد أو متعدّد؟

وله درس السكّرية بالبسملة، جزء.

ودرس الحنبلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: الآية ١٢٢] جزء حسن.

ومسألة فيمن يدّعي أن القرآن باطنٌ إلى سبعة أبطن.

ومسألة في عقل الإنسان وروحه.

والحلبية في الصفات، وهل هي زائدة على الذات أم لا؟

والردّ على ابن سينا في رسالته الأصحوية، نحو مجلد.

وجواب في العزم على المعصية، هل يعاقب عليه العبد؟

وجواب على حزب الشاذلي وما يشبهه، مجلد لطيف.

وجواب في الكفّار من التتر وغيرهم، وهل لهم خفراء بقلوبهم لهم تأثير؟

وله شرح على كلام الشيخ عبد القادر في غير واحد نحو مجلد.

وقاعدة في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٢]، وقول النبيّ ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنّة بعمله».

وله جواب في يزيد بن معاوية، وهل يجوز سبّه أم لا؟

وله قاعدة في فضل معاوية.

وجواب في الخضر هل مات أو هو حيّ؟ واختار أنه مات.

وله جواب في أن الذبيح من ولد إبراهيم عليه السلام هو إسماعيل. واحتجّ لذلك بأدلّة كثيرة.

وجواب في زيارة القدس يوم عرفة للتعرّف به.

وله أجوبة كثيرة في هذا المعنى.

وجواب في احتجاج الجهمية والنصارى بالكلمة.

وجواب فيمن عزم على فعل محرّم ثم تاب.

وجواب في الذوق والوجد الذي يذكره الصوفية.

وجواب في قوله ﷺ: «مَن قال أنا خير من يونس بن متّى فقد كذب».

وجواب في التشاغل بكلام الله وأسمائه وذكره، أيّ ذلك أفضل؟

وجواب في غضّ البصر وحفظ الفرج.

وجواب في المعيّة وأحكامها.

وله في مسائل الروح، وهل تعذّب في القبر مع الجسد؟ وهل تفارق البدن بالموت؟ وهل تتصور بصورة وتعقل بعد الموت؟ ونحو ذلك مجلد.

وله جواب: هل كان النبيّ ﷺ قبل الرسالة نبيًّا؟ وهل يسمّى مَن صحبه إذ ذاك صحابيًّا؟

وجواب: هل كان النبيّ ﷺ قبل الوحي متعبّدًا بشرع مَن قبله من الأنبياء؟

وله جواب في كفر فرعون، والردّ على مَن لم يكفّره.

وجواب في ذي الفقار هل كان سيفًا لعليّ رضي الله عنه؟

وله قواعد وأجوبة في الإيمان، هل يزيد وينقص؟ وما يتبع ذلك. نحو مجلد.

وله جواب في عقيدة الأشعرية، وعقيدة الماتُريدي وغيره من الحنفية، تسمّى الماتريدية.

وله عقيدة تسمّى الحوفية.

وله أجوبة في العرش والعالم، هل هو كرويُّ الشكل أم لا؟

وفي قصد القلوب العلوّ، ما سببه.

وله في الكلام على توحيد الفلاسفة على نظم ابن سينا مجلد لطيف.

وله جواب محيي الدين الأصبهاني في عدّة كراريس.

وله جواب في الفرق بين ما يتأوّل من النصوص وما لا يتأوّل.

ومسألة في قوله: «أُمرت أن أُخاطب الناس على قدر عقولهم» هل هو كلامه ﷺ.

وقاعدة في الردّ على أهل الاتحاد.

وله مؤلّف في الردّ على ابن عربي.

وجواب على حال الحلاج ورفع ما وقع فيه من اللجاج.

وله مسائل وقواعد في الاستغاثة، غير ما تقدّم ذكره.

وجواب في الرضا على كلام أبي سليمان الدّاراني.

وجواب في رؤية النساء ربّهم في الجنة، سأله عنه الشيخ إبراهيم الرقّي رحمه الله.

وجواب في العبّاس وبلال رضي الله عنهما: أيّهما أفضل؟

وجواب في الكتاب الذي همّ به النبيّ ﷺ في مرضه.

وجواب فيمن يقول: إن بعض المشايخ أحيا ميتًا.

وله أجوبة في مسألة وردت من أصبهان.

وجواب عن مسائل وردت من الأندلس.

وجواب عن سؤال ورد من الرحبة.

وجواب عن سؤال ورد من ماردين.

وجواب عن سؤال ورد من أَزْرَع.

وأجوبة كثيرة عن مسائل وردت من الصَّلت.

وجواب في أرض الموات إذا أحياها الرجل، ثم عادت مواتًا: هل تملك بالإحياء مرة أخرى؟

وله وصايا عدة يسأل عنها؟

وكتبٌ منها: وصيّة لابن المهاجري في كراريس.

ووصية كتبها للتَّجيبي.

وله إجازاتٌ، منها:

إجازة لأهل سِبتة ذكر فيها مسموعاته.

وإجازة كتبها لبعض أهل توريز.

وإجازة لأهل غرناطة.

وإجازة لأهل أصبهان.

وله قواعد وأجوبة في الفقه كثيرة جدًّا. منها:

قاعدة في الجمعة؛ هل يشترط لها الاستيطان؟

وقاعدة في المسح على الخفّين، وهل يجوز على المقطوع؟

وقاعدة في حلق الرأس، هل يجوز في غير النسك لغير عذر؟

وقواعد في الاستجمار، وفي الأرض، هل تطهر بالشمس والريح؟

وقواعد في نواقض الوضوء، وفي المحرّمات في النكاح.

وقاعدة في الجَدِّ، هل يُجبر البكر على النكاح، وفي الاستئذان من الأب، هل يجب؟

وجواب في المظالم المشتركة وأحكامها.

وجواب عن أهل البِدَع، هل يصلّى خلفهم؟

ومسائل وأجوبتها في قتال التتار الذين قَدِموا مع قازان وغيره وفي قتال أهل البيعات من النصارى، ونصارى ملطية، وقتال الأحلاف والمحاربين نحو مجلد.

وقاعدة في قوله ﷺ: «استحللتم فروجهنّ بكلمة الله».

وقاعدة في العِيْنَةَ والتورُّق، ونحوهما من المبيعات.

وقاعدة في القراءة خلف الإمام.

وقاعدتان في قوله ﷺ: «مَن بَكّر وابتكر، وغسّل واغتسل».

وأجوبة في الصلوات المبتدعة، كصلاة الرغائب، ونصف شعبان ونحو ذلك.

وأجوبة في النهي عن أعياد النصارى، وعمّا يفعل من البِدَع يوم عاشوراء نحو مجلد.

وله مسألة في أن الجدّ يُسقط الأخوة؟

وقاعدة في توريث ذوي الأرحام.

ومسألة في بيع المسلم فيه قبل قبضه، هل يجوز؟

وله أجوبة في رؤية هلال ذي الحجّة إذا رآه بعض الناس، ما حكمهم في الأضحية؟

وفي قوله: «صومكم يوم تصومون» وفيما إذا غُمَّ هلال رمضان ليلة الثلاثين، هل يجب الصوم أم لا؟

وجواب في الإجارة، هل المعقود عليه تهيؤ العين وصلاحيتها لنفع المستأجر؟ وهل ما يحدث في العين على ملكه؟ وهل هي على وفق القياس؟

وله قاعدة في أن ما كان داعيًا إلى الفرقة والاختلاف يجب النهي عنه.

وجواب في التسمية على الوضوء.

وقواعد في سباق الخيل ورمي النشّاب.

وقواعد وأجوبة في النيّة في الصلاة، وغير ذلك من العبادات.

وأجوبة في صلاة بعض أصحاب المذاهب خلف بعض، وأنه جائز.

وجواب فيمن تَفَقَّه على مذهب ثم يجد حديثًا صحيحًا بخلاف مذهبه.

وجواب فيمن يقول: أنا مذهبي غير موافق للأربعة.

وجواب فيمن يقول: مَن لا شيخ له فشيخه الشيطان.

وجواب في المخلوقة من ماء الزاني، هل له أن يتزوج بها؟

وجواب في صلاة الركعتين جالسًا بعد الوتر.

وجواب عن المرازنة وما يفعلونه من أعمال؛ والردّ عليهم فيما أخطأوا فيه.

وقاعدة في الحمّام والاغتسال.

وقاعدة في الصلاة بين الأذانين يوم الجمعة.

وجواب في قوله: «خير القرون الدوارس».

وجواب في نصرانية ماتت وفي بطنها ولد من مسلم.

وجواب في امرأة مسلمة ماتت، وفي بطنها إذ ذاك ولد حيٌّ متحرّك.

وجواب مبسوط في السّجّادة التي تفرش في المسجد، قبل الجمعة، قبل مجيء المصلّي.

وجواب في ساعة الجمعة هل هي مقدرة بالدَّرجَ؟

وله أجوبة في الوقف في منقطع الوسط وغيره.

وله مسألة تسمّى الواسطة.

وله إبطال الكيمياء.

ومسألة الشفاعة، ومسألة الشهادة بالاستفاضة.

ومسألة في الإجازة على كتاب «المصابيح» للبغوي.

وأخرى على كتاب «المصابيح» أيضًا.

وله في الأحاديث وشرحها شيء كثير جدًا. منها ما بُيِّض، ومنها ما لم يُبيّض، ولو بُيِّض لبلغ عدّة مجلدات.

وكتب كثيرًا من مسند الإمام أحمد وغيره على أبواب الفقه.

وله مختصر في الكَلِم الطَّيِّب. جمع فيه الأذكار المستعملة طرفي النهار، وغير ذلك.

وشرح حديث أبي ذَرٍّ الذي أوله «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي».

وحديث «الأعمال بالنيّات».

وحديث «بدأ الإسلام غريبًا».

وحديث «لا يَرِثُ المسلم الكافر».

وحديث الدعاء الذي علّمه النبيّ ﷺ لأبي بكر الصدّيق «اللّهمّ إنّي ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا».

وحديث جبريل في الإيمان والإسلام غير كتاب الإيمان المتقدّم في مجلد لطيف.

وحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» شرحه مرّات عديدة.

وحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» شرحه غير مرة.

وحديث النزول شرحه مرّات.

وحديث الأولياء الذي رواه البخاري منفردًا به «مَن عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة» شرحه مرّات، تارة يسأل عن مجموعه، وتارة يسأل عن التردّد المذكور فيه.

وحديث حكيم بن حزام «أسلمت على ما أسلفت من خير».

وحديث ابن مسعود في درء الهم.

وحديث معاذ وقول النبيّ ﷺ: «لا تدعنَّ دُبُر كل صلاة».

وحديث بريدة وقول النبيّ ﷺ لعائشة: «اشترطي لهم الولاء».

وحديث «فحج آدم موسى» شرحه مرّات.

وحديث «لا يُضرَب فوق عشرة أسواط إلّا في حدٍّ من حدود الله».

وحديث «اللّهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد: كما صلّيت على إبراهيم».

وشرح أحاديث كثيرة غير ما ذكر.

وشرح ما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «نِعمَ العبد صُهيب لو لم يخف الله لم يعصه» وتكلم عن «لو».

وشرح قول علي رضي الله عنه: «لا يرجونَّ عبد إلّا ربّه ولا يخافنّ إلا ذنبه».

وله أجوبة كثيرة في أحاديث يسأل عنها من صحيح يشرحه وضعيف يبيّن ضعفه وباطل ينبّه على بطلانه.

وله من الأجوبة والقواعد شيء كثير غير ما تقدّم ذكره يشقّ ضبطه وإحصاؤه ويعسر حصره واستقصاؤه.

ومن مؤلفاته أيضًا:

قاعدة في تقرير النبوّات بالعقل والنقل.

وقاعدة في تبديل السيئات حسنات.

وقاعدة في إبطال المجرّدات.

وقاعدة في المتشابهات.

وقاعدة في إثبات الرؤية، والردّ على نفقاتها.

وقاعدة في وجوب تقديم محبة الله تعالى ورسوله على النفس والمال والأهل.

وقاعدة في لفظ «الجسم» واختلاف الناس واصطلاحاتهم في هذا الاسم.

وقاعدة في تحريم الحشيشة، وبيان حكم آكلها، وماذا يجب عليه؟

وقاعدة في الردّ على مَن قال بفناء الجنّة والنار.

وله «الحموية الكبرى» ـ و«الحموية الصغرى» ـ.

فأما «الحموية الكبرى» فأملاها بين الظهر والعصر وهي جواب عن سؤال ورد من حماة سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة، وجرى بسبب تأليفها أمور ومِحَن، وتكلّم الشيخ فيها

على آيات الصفات والأحاديث الواردة في ذلك وقال في مقدمتها وهي عظيمة جدًا: «قولنا فيها ما قاله الله ورسوله والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان وما قاله أئمة الهدى من بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره. فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليُخرِج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا وأمره أن يقول: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨]».

فمن المُحال في العقل والدين: أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس أن يردّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به: من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة وقد أخبر الله أنه أكمل له ولأمته دينهم وأتمّ عليهم نعمته مُحال ـ مع هذا أو غيره ـ أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا ولم يميّز ما يجب لله من الأسماء الحُسنى والصفات العُلى وما يجوز عليه وما يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصلُ الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصّلته النفوس وأدركته العقول.

فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيّين لم يحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا؟!!.

ومن المُحال أيضًا أن يكون النبيّ ﷺ قد أعلم أمته كل شيء، وقال: «تركتم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك».

وقال فيما صحّ عنه أيضًا: «ما بعث الله من نبي إلّا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلّمه لهم وينهاهم عن شرّ ما يعلّمه لهم».

وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلّا ذكر لنا منه علمًا». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك مَن حفظه ونسيه مَن نسيه» رواه البخاري مُحال مع هذا ومع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقّ: أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم، ربّ العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزُبدة الرسالة الإلٰهية فكيف يتوهّم مَن في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ».

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ٥/ ١٠٥ ـ ١٠٧، مؤلفات شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني، وهي:

١ ـ إثبات الصفات والعلو والاستواء.

٢ ـ إثبات المعاد والرد على ابن سينا.

٣ ـ الاجتماع والافتراق في مسائل الإيمان والطلاق.

٤ ـ الاعتراضات المصرية على الفتاوى الحموية.

٥ ـ اقتضاء الصراط المستقيم في الرد على أهل الجحيم.

٦ ـ بيان تلبيس الحميمية في تأسيس بدعهم الكلامية.

٧ ـ بيان الدليل على بطلان التحليل.

٨ ـ بيان الفرقان بين أولياء الرحمٰن وحزب الشيطان.

٩ ـ التحرير في مسألة جفير.

١٠ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

١١ ـ التحقيق في الفرق بين أهل الإيمان والتطليق.

١٢ ـ التخجيل لمن بدل التوراة والإنجيل.

١٣ ـ تعارض العقل والنقل.

١٤ ـ تفسير الاستعاذة والبسملة.

١٥ ـ تفسير آية الكرسي.

١٦ ـ تفسير سورة الإخلاص.

١٧ ـ تفسير سورة الكافرون.

١٨ ـ تفسير سورة لم يكن.

١٩ ـ تفسير سورة المائدة.

٢٠ ـ تفسير سورة نٓ والقلم.

٢١ ـ تفسير سورة تبّت والمعوذتين.

٢٢ ـ تناسي الشدائد في اختلاف العقائد.

٢٣ ـ تفضل صالحي الناس على سائر الأجناس.

٢٤ ـ تنبيه الرجل الغافل على تمويه الجدل الباطل.

٢٥ ـ تيسير العبادات لأرباب الضرورات.

٢٦ ـ ثبوت النبوّات عقلًا ونقلًا والمعجزات والكرامات.

٢٧ ـ جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية.

٢٨ ـ جواب أهل العلم والإيمان في تفسير القرآن.

٢٩ ـ الجواب الباهر في زوار المقابر.

٣٠ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

٣١ ـ جوامع الكلم. في الحديث.

٣٢ ـ الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية.

٣٣ ـ بيان فضل خيار الناس والكشف عن منكر الوسواس.

٣٤ ـ الرّدّ على الفلاسفة.

٣٥ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

٣٦ ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

٣٧ ـ شرح أول كتاب الغزنوي في الفقه.

٣٨ ـ شرح أول المحصل.

٣٩ ـ شرح بضعة عشر مسألة من الأربعين لفخر الدين.

٤٠ ـ شرح حديث جبريل في حديث الإيمان والإسلام.

٤١ ـ شرح حديث «فحج آدم موسى».

٤٢ ـ شرح رسالة ابن عبدوس في الأصول.

٤٣ ـ شرح عقيدة الأصبهاني.

٤٤ ـ شرح العمدة لموفق الدين. في الفقه.

٤٥ ـ شرح المحرر للإمام أحمد بن حنبل.

٤٦ ـ شمول النصوص للأحكام في الفقه.

٤٧ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول.

٤٨ ـ عصمة الأنبياء.

٤٩ ـ الفرقان بين الحق والبطلان.

٥٠ ـ فضائل أبي بكر وعمر.

٥١ ـ كتاب الاستعانة.

٥٢ ـ كتاب الاستقامة.

٥٣ ـ كتاب الإيمان.

٥٤ ـ كتاب الرد على تأسيس التقديس للرازي.

٥٥ ـ كتاب العرش.

٥٦ ـ كتاب المحنة المصرية.

٥٧ ـ كشف حال المشايخ الأحمدية وأحوالهم الشيطانية.

٥٨ ـ الكلم الطيب في الركعتين اللتين تصنع يوم الجمعة.

٥٩ ـ لمحة المختلف في الفرق بين اليمين والحلف.

٦٠ ـ المسائل الإسكندرية على الحلولية والاتحادية بالسبعينية.

٦١ ـ المسألة الخلافية في الصلاة خلف المالكية.

٦٢ ـ معارج الوصول إلى أن أحكام الإجماع بينها الرسول.

٦٣ ـ مناسك الحج.

٦٤ ـ منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.

٦٥ ـ نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان.

ثناء الشيوخ العلماء عليه:

كان رحمه الله تعالى سيفًا مسلولًا على المخالفين، والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، وكان بحرًا لا تكدّره الدلاء وحبرًا يقتدي به الأخيار الألبّاء، طنّت[١] بذكره الأمصار، وضنّت[٢] بمثله الأعصار.

قال العلّامة كمال الدين بن الزملكاني: كان إذا سُئِلَ عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف كيف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ولا يُعرَف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه ـ ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلّا فاقَ فيه أهله والمنسوبين إليه.

قال الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح ابن سيّد الناس الْيَعْمُري المصري، بعد أن ذكر ترجمة الشيخ الحافظ جمال الدين أبي الحجّاج المزّي: وهو الذي حدّاني على رؤية

(١) طنّت: أي اشتهر. (٢) ضنّت: أي لم تنجب الأعصار مثله.

الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد السلام ابن تيمية، فألفيته ممّن أدرك من العلوم حظًا، وكاد يستوعب السُنن والآثار حفظًا. إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مُدرك غايته، أو ذكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنِّحَل والمِلَل لم يُرَ أوسعَ من نِحلته في ذلك ولا أرفع من درايته. برز في كل فن على أبناء جنسه. ولم ترَ عين مَن رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير فيحضر في مجلسه الجمّ النفير، ويرِدون من بحر بحر علمه العذب النمير ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير، إلى أن دبَّ إليه من أهل بلده داء الحسد، وألّب أهل النظر منهم على ما يفتقد عليه في حنبليته من أمور المعتقد فحفظوا عنه في ذلك كلامًا، أوسعوه بسببه ملامًا، وفوقوا لتبديعه سهامًا، وزعموا أنه خالف طريقتهم، وفرّق فريقهم، فنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثم نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقه.

قال الشيخ علم الدين البرزالي في معجم شيوخه: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، يجمع على فضله ونبله ودينه. وقرأ الفقه وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهر في علميّ التفسير والحَديث.

وكان إمامًا لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بُهِت الناس من كثرة محفوظه، وحُسْن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم. كان الحاضرون يقضون منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرّد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى.

وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يفسّر القرآن العظيم فانتفع بمجلسه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيّته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير. وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلّل من الدنيا رحمه الله تعالى، وردّ ما يُفتح به عليه.

قال الشيخ أبو الحسن الندوي: مَن انصبغ بهذه الصبغة، ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة. تلاشت في عينه مملكة كسرى وقيصر. ورأى النظر إليها كفرانًا بنعمة الله تعالى. وجحودًا لمنّته. وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه: «إنني لا أرضى بإعطاء مُسوحي عوضًا عن حلّة الملوك. ولا أرضى ببيع فقري بمُلْك سليمان. إن الثروة التي نلتها في آلام الفقر لن أرضى باستبدالها بتنعّم الملوك»[1].

---

(١) ربانية لا رهبانية، ص ٧٧، ٧٨.

ومَن جهل حاله يسيء به الظن، ويتّهمه بالطمع في المُلْك والحُكْم. ولكنه يتأسف على جهله وفساد ذوقه، ويقول: كيف يمكن النظر إلى هذا الملك الفاني بعد هذه الثروة الغالية، والنعمة الخالدة؟ وقد كانت هذه قصة الشيخ ابن تيمية، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة: سمعت بأن الناس أطاعوك وأنت تفكّر في الحصول على المُلْك؛ فردّ عليه الشيخ قائلًا بصوت عالٍ سمعه الناس الحاضرون كلهم: «أنا أفعل ذلك؟ والله إن مُلكك، ومُلك المغل لا يساوي عندي فلسًا»[١].

قال الشيخ علم الدين: رأيت في إجازة لابن الشهرزوري الموصلي خطّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقد كتب تحته الشيخ شمس الدين الذهبي: هذا خطّ شيخنا الإمام، شيخ الإسلام، فرد الزمان، بحر العلوم، تقي الدين، قرأ القرآن والفقه وناظر واستدلّ، وهو دون العشرين سنة. وصنّف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعلّ تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كرّاس وأكثر. وفسّر كتاب الله تعالى مدة سنتين من صدره أيام الجمع وكان يتوقد ذكاء. وسماعاته من الحديث كثيرة. وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليه المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته، وسقمه، فما يلحق فيه. وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ـ فضلًا عن المذاهب الأربعة ـ فليس له فيه نظير. وأما معرفته بالمِلَل والنِحَل والكلام فلا أعلم فيه نظيرًا. ويدري جملة صالحة من اللغة. وعربيته قوية جدًّا، ومعرفته بالتاريخ والسِيَر فعجب عجيب. وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يُضرب بهم المثل. وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس.

وقال الشيخ محمد بن أحمد الحنبلي: له خبرة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به. فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه. وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه. وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستّة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي. وأما التفسير فمسلّم إليه. وله في استحضار الآيات من القرآن ـ وقت إقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة.

---

(١) الكواكب الدريّة، ص ١٦٦.

وقال الذهبي، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ـ كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأسًا في معرفة الكتاب والسُنّة والاختلاف. بحرًا في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علمًا وزهدًا وشجاعةً وسخاءً، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وكثرة تصانيف. وقرأ وحصل، وبرع في الحديث والفقه، وتأهّل للتدريس والفتوى، وهو ابن سبع عشرة سنة. وتقدّم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام، أصولها وفروعها، ودقّها وجلّها، سوى علم القراءات. فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه وإن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق. وإن حضر الحفّاظ نطق وخرسوا. وسرد وأُبلسوا، واستغنى وأفلسوا. وإن سُمّي المتكلمون فهو مردهم، وإليه مرجعهم. وإن لاحَ ابن سينا يقدّم الفلاسفة فلّهم وتيّسهم، وهتك أستارهم وكشف عوارهم. وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة.

غفر الله له ورحمه وأسكنه فسيح جنّاته.

سجن الشيخ بسبب فتياه في الطلاق:

في يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب من سنة عشرين وسبعمائة، عقد مجلس بدار السعادة حضره النائب والقضاة، وجماعة من المفتين، وحضر الشيخ، وعاودوه في الإفتاء بمسألة الطلاق، وعاتبوه على ذلك، وحبسوه بالقلعة، فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا.

ثم ورد مرسوم السلطان بإخراجه، فأخرج منها يوم الاثنين يوم عاشوراء، من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وتوجه إلى داره.

ثم لم يزل بعد ذلك يعلّم الناس ويلقي الدرس بالحنبلية أحيانًا، ويقرأ عليه في مدرسته بالقصّاصين، في أنواع من العلم.

قال الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي: كنت أتردد إليه في هذه المدة أحيانًا، وقرأت عليه قطعة من الأربعين للرازي. وشرَحَها لي، وكتب لي على بعضها شيئًا، وكان يُقرأ عليه في تلك المدة من كتبه، وهو يصلح فيها، ويزيد وينقص.

ولقد حضرت «أي الشيخ محمد المذكور» معه يومًا بستان الأمير فخر الدين بن الشمس لؤلؤ. وكان قد عمل وليمة، وقرأت على الشيخ في ذلك اليوم أربعين حديثًا، وكتب بعض الجماعة أسماء الحاضرين، وأخذ الشيخ بعد ذلك في الكلام في أنواع العلوم، فبُهِتَ الحاضرون لكلامه. واشتغلوا بذلك عن الأكل.

ومما حفظت من كلامه في المجلس قوله:

«يقول الله تعالى في بعض الكتب: أهلُ ذكري أهلُ مشاهدتي، وأهل شكري أهلُ زيارتي، وأهلُ طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهِّرَهم من المعايب».

وحصل في ذلك المجلس خير كثير، وكان فيه غير واحد من المشايخ، واستمر الشيخ بعد ذلك على عادته.

الكلام على شدّ الرِّحال إلى القبور:

فلما كان في سنة ستٍّ وعشرين وسبعمائة وقع الكلام في مسألة شدِّ الرِّحال وإعمال المطيِّ إلى قبور الأنبياء والصالحين، وظفروا للشيخ بجواب سؤال في ذلك، كان قد كتبه من سنين كثيرة، يتضمن حكاية قولين في المسألة، وحجّة كل قول منهما.

وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدّم أقدم من الجواب المذكور بكثير. ذكره في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره، وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به.

وكثر الكلام، والقيل والقال، بسبب العثور على الجواب المذكور وعظم التشنيع على الشيخ، وحُرِّف عليه، ونُقِلَ عنه ما لم يَقُلْه، وحصل فتنة طال شررها في الآفاق، واشتد الأمر، وخيفَ على الشيخ من كيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية وكثر الدعاء والتضرّع والابتهال إلى الله، وضعف من أصحاب الشيخ مَن كان عنده قوة، وجَبُنَ مَن كانت له همّة. وأما الشيخ ـ رحمه الله ـ فكان ثابت الجأش، قوي القلب، وظهر صدق توكله واعتماده على ربه.

ولقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق وضربوا مشورة في حق الشيخ فقال أحدهم:

ينفى، فنفي القائل.

وقال آخر: يُقطع لسانه، فقطع لسان القائل.

وقال آخر: يعزّر، فعزر القائل.

وقال آخر: يُحْبَس، فحُبِس القائل.

قال الشيخ صاحب العقود الدريّة من مناقب ابن تيمية: أخبرني بذلك مَن حضر هذه المشورة وهو كاره لها.

واجتمع جماعة آخرون بمصر، وقاموا في هذه القضية قيامًا عظيمًا، واجتمعوا بالسلطان، وأجمعوا على قتل الشيخ. فلم يوافقهم السلطان على ذلك.

أمر السلطان بحبس الشيخ بقلعة دمشق:

ولما كان يوم الاثنين بعد العصر السادس من شعبان من سنة ست وعشرين وسبعمائة، حضر إلى الشيخ من جانب نائب السلطنة بدمشق مِشَدُّ الأوقاف، وابن خطير، أحد الحجّاب وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بأن يكون في القلعة، وأحضرا معهما مركوبًا.

فأظهر الشيخ السرور بذلك، وقال: أنا كنت منتظرًا ذلك، وهذا فيه خير عظيم. وركبوا جميعًا من داره إلى باب القلعة، وأخليت له قاعة حسنة، وأُجرِيَ إليها الماء، ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورُسِمَ له بما يقوم بكفايته.

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد بذلك، وبمنعه من الفُتيا.

وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم، وذلك بمرسوم النائب وإذنه له في فِعْل ما يقتضيه في أمرهم.

وأُوذي جماعة من أصحابه، واختفى آخرون، وعُزِّز جماعة، ونودِي عليهم، ثم أطلقوا، سوى الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر إمام الجوزية، فإنه حبس بالقلعة، وسكنت القضية.

اعتقال شيخ الإسلام ابن تيمية بقلعة دمشق:

قال البرزالي: وفي يوم الاثنين عند العصر سادس عشر شعبان من سنة ست وعشرين وسبعمائة اعتقل شيخ الإسلام الإمام العالِم تقيّ الدين ابن تيمية بقلعة دمشق، وأخبراه أن مرسوم السلطان ورد بذلك، وأحضرا معهما مركوبًا ليركبه، وأظهر السرور والفرح بذلك، وقال أنا كنت منتظرًا لذلك، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة، وركبوا جميعًا من داره إلى باب القلعة، وأُخليت له قاعة وأجري إليها الماء ورسم له بالإقامة فيها، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان، ورسم له ما يقوم بكفايته.

قال البرزالي: وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرىء بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا، وهذه الواقعة سببها فتيا وُجدت بخطه في السفر وإعمال المطيّ إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين. قال: وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذن له فيه، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزز جماعة منهم على دواب ونودي عليهم ثم أطلقوا،

سوى شمس الدين محمد بن الجوزية فإنه حبس بالقلعة، وسكتت القضية. قال: وفي أول رمضان وصلت الأخبار إلى دمشق أنه أُجريت عين ماء إلى مكّة شرّفها الله وانتفع الناس بها انتفاعًا عظيمًا، وهذه العين تُعرَف قديمًا بعين باذان، أجراها جوبان من بلاد بعيدة حتى دخلت إلى نفس مكة، ووصلت إلى عند الصفا وباب إبراهيم، واستقى الناس منها فقيرهم وغنيّهم وضعيفهم وشريفهم، كلهم فيها سواء، وارتفق أهل مكة بذلك رفقًا كثيرًا ولله الحمد والمِنّة، وكانوا قد شرعوا في حفرها وتجديدها في أوائل هذه السنة إلى العشر الأخير من جمادى الأولى. وفي يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين بن جملة وناصر الدين مشدّ الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المحزّ جعله زيارة قبر النبيّ ﷺ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعًا بها، فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيها منع زيارة قبور الأنبياء الصالحين، وإنما ذكر فيه قولين في شدّ الرِحال لمجرّد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شدّ الرِحال، بل يستحبّها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرّض إلى هذه الزيارة من هذه الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة»، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

إرسال الشيخ كتابًا من سجنه إلى دمشق: وفي اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجّة من سنة ست وسبعمائة، أخبر نائب السلطنة بدمشق، بوصول كتاب إليه من الشيخ تقي الدين من الجبّ، وأعلم بذلك جماعة ممّن حضر مجلسه. وأثنى عليه، وقال: ما رأيت مثله، ولا أشجع منه.

وذكر ما هو عليه في السجن: من التوجّه إلى الله تعالى، وأنه لم يقبل شيئًا من الكسوة السلطانية، ولا من الإدرار السلطاني، ولا تدنّس بشيء من ذلك.

وفي هذا الشهر أيضًا ـ شهر ذي الحجّة ـ من يوم الخميس اليوم السابع والعشرين منه طُلب أخَوا الشيخ تقي الدين: شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمٰن ـ إلى مجلس نائب سلار، وحضر القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي، وجرى بينهم كلام كثير، وأُعيدا إلى موضعهما، بعد أن بحث الشيخ شرف الدين مع القاضي المالكي، وظهر عليه من النقل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادّعى فيها الإجماع. وكان الكلام في مسألة العرش، وفي مسألة الكلام. وفي مسألة النزول.

وفي يوم الجمعة ثاني اليوم المذكور أحضر الشيخ شرف الدين وحده إلى مجلس نائب السلطنة وحضر ابن عدلان، وتكلم معه الشيخ شرف الدين وناظره، وبحث معه، وظهر عليه.

وفي اليوم الرابع والعشرين من صفر من سنة سبع وسبعمائة اجتمع القاضي بدر الدين بن جماعة بالشيخ تقي الدين في دار الأوحدي بالقلعة، بكرّة الجمعة، وتفرقا قبل الصلاة. وطال بينهما الكلام.

إخراج ابن مهنّا الشيخ من الجبّ:

وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة دخل الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى ملك العرب إلى مصر، وحضر بنفسه إلى الجبّ. فأخرج الشيخ تقي الدين بعد أن استأذن في ذلك. فخرج يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر إلى دار نائب السلطنة بالقلعة. وحضر بعض الفقهاء ـ وحصل بينهم بحث كثير، وفرّقت صلاة الجمعة بينهم.

ثم اجتمعوا إلى المغرب ـ ولم ينفصل الأمر ـ.

ثم اجتمعوا يوم الأحد بعد يومين بمرسوم السلطان مجموع النهار. وحضر جماعة أكثر من الأولين: حضر نجم الدين بن الرفعة، وعلاء الدين الباجي، وفخر الدين ابن بنت أبي سعد، وعزّ الدين النمراوي، وشمس الدين بن عدلان، وجماعة من الفقهاء. ولم يحضر القضاة. وطلبوا. فاعتذر بعضهم بالمرض، وبعضهم بغيره، وقبل عذرهم نائب السلطنة، ولم يكلّفهم الحضور، بعد أن رسم السلطان بحضورهم، وانفصل المجلس على خير، وبات الشيخ عند نائب السلطنة.

وكتب كتابًا إلى دمشق بكرة الاثنين السادس والعشرين من الشهر يتضمن خروجه، وأنه أقام بدار ابن شقير بالقاهرة، وأن الأمير سيف الدين سلار رسم بتأخيره عن مدة مَقام الشيخ في الجبّ ثمانية عشر شهرًا.

ذكر وفاة شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية:

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالِم العلم العلّامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن شيخنا الإمام العلّامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحرّاني ثم

الدمشقي، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسًا فيها[١]. وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذِنَ لهم في الدخول عليه وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤوا القرآن وتبرّكوا برؤيته وتقبيله ثم انصرفوا ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على مَن يغسله فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع أيضًا وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدّة الزحام، وصُلّيَ عليه أولًا بالقلعة. فقدمَ في الصلاة عليه أولًا الشيخ محمد بن تمام، ثم صُلّيَ عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدّم ذكره[٢].

ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقّة والأسواق بأهلها ومَن فيها. ثم حمل بعد أن صُلّي عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعَلَت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحّم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم وذهبت النِعال من أرجل الناس وقباقيبهم وصناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة. وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدّم وتارة يتأخر وتارة يقف حتى تمرّ الناس وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام كل باب أشد زحمة من الآخر ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدّة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أُخرجت منه الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية. وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس ووضعت الجنازة هناك وتقدّم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمٰن فلما قضيت الصلاة حُمِلَ إلى مقبرة الصوفية فدُفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله، وكان دفنه قبل العصر بيسير وذلك من كثرة مَن يأتي ويصلّي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم. وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلّف عن الحضور إلّا مَن هو عاجز عن الحضور مع الترحّم والدعاء له وأنه لو قَدِرَ ما تخلّف. وحضر نساء كثيرات بحيث حُزرن بخمسة عشر ألف امرأة غير اللائي كنّ على الأسطحة وغيرهنّ، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل[٣].

وأما الرجال فحزروا بستّين ألفًا إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله واقتسم جماعة بقية السدر الذي غُسِلَ به،

---

(١) انظر البداية والنهاية، ١٣٠/١٤. (٢) المصدر السابق.

(٣) انظر البداية والنهاية.

ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهمًا، وقبل إن الطاقية التي كانت على رأسه دُفِعَ فيها خمسمائة درهم وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير وتضرّع. وخُتِمَت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد وتردّد الناس إلى قبره أيامًا كثيرة ليلًا ونهارًا يبيتون عنده ويصبحون. ورُؤيت له منامات صالحة كثيرة ورثاه جماعة بقصائد جمّة[١]. وهذه كانت جنازته. وقد اتفق على موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذّن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحرّاس على الأبرجة فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان حتى من الغوطة والمرج ولم يطبخ أهل الأسواق شيئًا ولا فتحوا كثيرًا من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السلطنة تنكر قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة فحارت الدولة ماذا يصنعون وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزّاه فيه وجلس عنده وفتح باب القلعة لمَن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلف من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية فجلسوا عنده يبكون ويثنون على مثل ليلى يقتل المرء نفسه، وكان فيمن حضر هناك الشيخ الحافظ أبو الحجّاج المزّي رحمه الله.

وكشف الشيخ أبو عبد الرحمٰن السيوفي عن وجه شيخ الإسلام ونظر إليه وقبّله على رأسه وعليها عمامة بعزب مغرورة وقد علاه الشيب، ثم دخل أخوه زين الدين عبد الرحمٰن وأخبر الحاضرين أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر: الآيتان ٥٤، ٥٥]. فقال الشيخ أبو عبد الرحمٰن السيوفي: فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيّران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي الضرير. وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما ـ فابتدأ من أول سورة الرحمٰن حتى ختموا القرآن وأنا حاضر أسمع وأرى.

ثم شرعوا في غسل الشيخ، وخرجت إلى مسجد هناك ولم يدعوا عنده إلا مَن ساعد في غسله منهم: الشيخ الحافظ المزّي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار أهل العلم والإيمان، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضجّ الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحّم، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادلية الكبيرة ثم عطفوا على ثلاث الناطفانيين وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح ودخلوا

---

(١) انظر الدّرر البهيّة في مناقب شيخ الإسلام، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

بالجنازة إلى الجامع الأموي والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصي عُدّتهم إلا الله تعالى فصرخ صارخ وصاح صائح: هكذا تكون جنائز أئمة السُنّة فتباكى الناس وضجّوا عند سماع هذا الصارخ ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصًا لا يتمكن أحد من السجود إلّا بكلفة جو الجامع، ويرى الأزقّة والأسواق، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، ونوى خلق الصيام في هذا اليوم لأنهم لا يستطيعون الأكل والشرب في هذا اليوم، وكثر الناس كثرة لا تُحمَد ولا تُوصَف، فلما فرغ من أذان الظهر أُقيمت الصلاة عقبة على السُدّة خلاف العادة، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلّى عليه إمامًا، وهو الشيخ علاء الدين الخرّاط. ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس مَن تعجل بعد أن صلّى في الجامع إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل في مخافتة كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسّف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن هذا العالم[١].

وبالجملة كان يومًا مشهودًا، لم يعهد مثله بدمشق إلا أن يكون في زمن بني أميّة حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة، ثم دفن عند أخيه قريبًا من أذان العصر على التحديد، ولا يمكن أحد حصر مَن حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عمّن أمكنه الحضور من أهل الصغار والخدرات، وما علمت أحدًا من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلّف عن الحضور في جنازته وهم ثلاثة أنفس:

وهم ابن جملة، والصدر، والقفجاري، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوفًا على أنفسهم، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس، وتردّد الشيخ الإمام العلّامة برهان الدين الفزاري يأتي راكبًا على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله[٢].

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء وممّن يخطىء ويصيب ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجيّ، وخطؤه أيضًا مغفور له كما في صحيح البخاري: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر..

---

(١) انظر حياة أحمد بن حنبل للشيخ محمد أبو زهرة.
(٢) المصدر السابق.

رثاء الشيوخ العلماء أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى.

مرثاة للشيخ قاسم بن عبد الرحمٰن المقري، في الشيخ تقي الدين رضي الله عنه:

عزّ التبصّر والزمان رماني ... بسهامه، وترادفت أحزاني
أصبحت مكتئبًا لفقد أحبّة ... جُبِلت جبلتهم على الإحسان
لا صبر لي عنهم، وكيف تصبّري ... عن سادة رحلوا عن الأوطان؟
إن أوحشوا نظري، فقلبي موطن ... وعمارة الأوطان بالسكّان
خلت الديار، فأصبحوا في بلقع ... يا وحشتاه لفرقة الإخوان
لما سمعت بأن أحمد قد قضى ... نحبًا على التوحيد والإيمان
ولقاء ربّ، لا مردّ لحكمه ... سبحانه من قادر منّان
عظمت مصيبتنا لسيد عصرنا ... في شرح سيد أحمد ببيان
والعلم حاز أصوله وفروعه ... وغرائب التفسير للقرآن
ويناظر الفقهاء في أقوالهم ... ويجيبهم بالثبت والتبيان
غلب الملوك بثبته وجنانه ... وشجاعة بلغت إلى غازان
أفديه من بطل يلاقي عصبة ... منهم، بلا عون، ولا أعوان
مَن ذا يقوم مقامه في عصرنا ... إذ ما مضى في سالف الأزمان
وله الزهادة والعبادة منهج ... وكذا يكون العالم الربّاني
سارت ركائبه إلى دار الجزا ... متمسكًا بمواعد الرحمٰن
أوَ ما نظرت إليه فوق سريره ... حفّت به الأنوار بالإمكان؟
والناس من حول الجنازة أحدقوا ... كلٌّ يجود بعَبرَة الثكلان
وهُمُوا أُلوف ليس يُحصي جمعهم ... إلّا إلٰه عمّ بالغفران
نزلوا به كالبدر في إشراقه ... فتباشرت بقدومه القمران
عبد الحليم أبوه سيّد عصره ... وأخوه عبد الله حَبْرٌ ثان
المجد حاز المجد في عصر مضى ... في الجرح والتعديل والبرهان
ولمثل هذا سارعوا، أهل التُّقى ... فازوا بأرفع رتبة وأمان
في جنّة أنوارها قد أشرقت ... وقطوفها للطائفين دوان
أكوابها موضوعة وقبابها ... من لؤلؤ مرفوعة البنيان
والنور يغشي أهلها وهم على ... تلك الأسِرّة في رضًى وأمان
ولباسهم من سندس وخيامهم ... قد أُلبسوا من أحسن التيجان

ولأهلها ما يشتهون وشغلهم ... بالله لا بالجور والغلمان
منهم تقي الدين فاز بزهده ... وبصبره في طاعة الرحمٰن
ثم الصلاة على النبي محمد ... خير الأنام، ومعدن الإحسان
هادٍ وأول شافع، ومشفّع ... وله الوسيلة مظهر الإيمان
ما حنّ مشتاق إلى وادي مِنًى ... وتطوفوا بالبيت والأركان

مرثاة للشيخ برهان الدين إبراهيم ابن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم العجمي، يرثي الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية في جمادى الآخرة سنة خمسٍ وثلاثين وسبعمائة.

جدي بانسجام الدمع يا مقلة العاني ... إلى أن تروِّي الأرض من فيض أجفاني
وذق يا فؤادي كل يوم وليلة ... مرارة أشواق ولوعة أشجان
إلى أن أرى وجه ابن تيمية الذي ... به الله من أهل الضلالة نجّاني
ومَن لي بأن ألقاه والموت قد أتى ... فغيّبه في الترب عن كل إنسان
فيا وحشة الدنيا لأنوار وجهه ... ويا لهف إخواني عليه وجيراني
لقد عمّ أهل الأرض رزء مصابه ... ولم ينجُ فيهم منه قاصٍ ولا داني
لقد كانت الدنيا به ذات بهجةً ... ونور، وإشراق، وروح وريحان
ما كان إلا آية في زمانه ... وفي كل علم حاز ليس له ثان
إمام هدى، يدعو إلى دين ربه ... دعاء نصوح مشفق غير خوان
فمذهبه: ما جاء عن خير مرسل ... وأصحابه، والتابعين بإحسان
أتى بعلوم حَيّرتْ كل واصف ... على أنه يهدي بها كل حيران
فكم مبطل وافاه يبغي جداله ... فأنصفه في البحث من غير عدوان
ويكشف عنه شبهة بعد شبهة ... إلى أن يبيّن الحق أحسن تبيان
فيصبح عن تلك المقالة معرِضًا ... ولو كان من أحبار سوء ورهبان
يغار على الإسلام من كل بدعة ... وما زال منها هادمًا كل بنيان
وفي الله لم تأخذه لومة لائم ... ولم يخشَ مخلوقًا من الإنس والجانِ
ولم ينتقم في الدهر يومًا لنفسه ... ولكنه يُؤذَى فيعفو عن الجاني
وأما سخاء الكفّ فالبحر دونه ... ولم يكُ في بذل العطايا بمنّان
ولو وزنوا أهل الشجاعة كلهم ... به رجح الشجعان في كل ميزان
فمَن جاهد الأعداء في الدين ليلة؟ ... ومَن سلّ سيف العزم في وجه غازان؟

ومَن قال للناس: اثبتوا يوم شقْحبٍ فإن الأعادي في انهزام وخذلان
فمَن خشي الرحمٰن بالغيب واتّقى إلٰه البرايا، خافه كل سلطان
وما ضرّه إن طال في السجن مكثه إذا كان في نسك وطاعة رحمان
منيبًا إلى مولاه، يقطع وقته بنقل أحاديث، وتفسير قرآن
ولم يكُ مشغوفًا بحب رياسة ولا شدّ بغلات، ولا حُسْن غلمان
وما كان مشغولًا بجاه ومنصب ولا رفع بنيان ولا غرس بستان
ولكن بعلم نافع وعبادة وزهد، وإخلاص، وصبر وإيمان
وفي موته قد كان للناس عبرة لما شاهدوا من غير زور وبهتان
إذ انتشروا مثل الجراد، وكاد أن تزيغ عقولٌ من رجال ونسوان
وسار على أعناقهم نحو قبره يجاور مولى، ذا امتنان وغفران
إلى الذهب الباقي دعاه إلٰهه فذاك خير من الخزف الفاني
دعاه إلى جنّات عدن وطيبها ومتّعه فيه بحُور وولدان
فنسأل رب العرش ـ يجمع شملنا به في جنّات الخلد من بعد حرمان
ويجبرنا بعد انكسار قلوبنا ويروي برؤيا وجهه كل ظمآن

ولقد رُثِيَ بقصائد أخرى طويلة جدًّا. وقد أُفردت له تراجم كثيرة وصنّف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم. ومن هذه المصنفات أيضًا التي قيلت في رثاء شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: قصيدة الشيخ الصالح العابد محمد أبو طاهر البعلي الحنبلي:

يا ابن تيمية، يا أنصح العلما يا مَن لأسرار دين الله قد فَهِما
يا آية ظهرت في الكون باهرة لا زلت في سلك دين الله منتظِما
وكنت واسطة في عقده أبدًا تُزيل منه الأذى والفحش والسقما
جمعت منه الذي قد كان فرقه قوم رأوه هدى منه، وكان عَمَى
وكنت أحرص خلق الله كلهم على التآلف، تعطي الفضل والنِعَما
ولست خَبيًّا لئيمًا باخلًا شرهًا لكن تقيًّا، نقيًّا، سيّد الكُرَما
تعفو عن الجاهل الجاني وترحمه وتكثر العدل والإنصاف للخصما
ما زلت تغضب في ذات الإلٰه ولم تكن لنفسك يا ذا الحلم منتقما
فأنت حَبْر هدى أحيا الإلٰه به من دينه سننًا أماته النشما
في رأس سبع مئين كنت قد وجبت لك الإمامة يا خلاصة العلما
وكل شيء به جُلّ الورى هلكوا فشيخنا ذو التّقى من شرّه سلما

وكل وصف كمال في نظائره ... له خصائصه لا تقتضي العدما
كان المبرز في كل العلوم، وقد ... أضحت له في ذرى أسنانها علما
وكان حاوي صفات الخير أجمعها ... قد جلّ في كل حالات التّقى قدما
لما أراد عِداه دحضه دُحضوا ... وزاده الله عزًّا دائمًا، وسما
أضحت عوائده تبدي فوائده ... على موائده في حضرة الحكما
فهو التقوى به أهل التقى ألفوا ... وأبعد الله عنه المجرم الزنما
وهو المحك الذي بان العباد به ... عرض بذكراه مدحًا وانظر السيما
ترى العفويَّ حزينًا ثم، منقبضًا ... وتنظر المتّقي قد سرّ مبتسما
فحبه نعمة فاز السعيد بها ... وبغضه نقمة بها الشقي وُسِما
فالحمد لله، أهل الحمد، خالقنا ... كم قد أفاض علينا في الورى نِعَما
عافى القلوب من الأسقام أجمعها ... وعمّ بالجود مَن وفى ومَن ظلما
كم أفرجت كربة عنّا بمنّته ... وكم أعان وكم عفى وكم رحما
لا يُرتجى غيره في رفع نازلة ... يبقى الهدى عنك والإحسان منصرما
ولا تكن بسواه عنه مشتغلًا ... لكي تنال التقى والفوز والكرما
وكن محبًّا له ساعٍ بطاعته ... فالسعي في غير هذا يورث الندما

رحم الله ابن تيمية شيخ الإسلام ورضي عنه وأسكنه فسيح جنّاته.

ترجمة ابن قيِّم الجوزية

(٦٩١ ـ ٧٥١ هـ)

هو الإمام السلفي الكبير محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين. وقد عرف بابن قيم الجوزية لأن أباه كان قيمًا على المدرسة الجوزية التي بناها محيي الدين ابن الحافظ ابن الجوزي في مدينة دمشق. وقد يطلق لقبه من غير إضافة فيسمى بابن القيم.

كان ابن القيم فقيهًا حنبليًا متكلمًا، وكانت له آراء في التصوف على الطريقة السلفية التي تقر فكرة التصوف في اعتدال، دون مغالاة أو ابتداع.

حياته:

وقد ولد ابن القيم سنة ٦٩١ هـ، وتوفي سنة ٧٥١ هـ (١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م)، وبذلك عاش ما يقرب من ستين عامًا في أعقاب المد الحربي الذي تهدد العالم الإسلامي قبيل مولده على جبهتين: الهجوم التتاري على الشرق الإسلامي الذي امتد خطره حتى عام ٦٥٨ هـ من جهة، والهجوم الصليبي الذي استمر حتى عام ٦٩٠ هـ من جهة أخرى، وكان لهذا أو ذاك آثار في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية لعصره.

وقد أتيح لابن القيم أن يتلقى العلوم الإسلامية على كثير من كبار العلماء والحفاظ المعروفين بالعلم والتقوى من أمثال عيسى المطعم، وإسماعيل بن مكتوم، والشهاب النابلسي، والمجد الحراني وغيرهم: وكان ابن تيمية المتوفّى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) شيخه الأكبر الذي ترك فيه أبلغ الأثر والذي ظل ابن القيم تلميذًا أمينًا له، فقد أخذ عنه جميع ما قاله. وإن خالفه أحيانًا ـ كما خالف غيره كثيرًا ـ حين كان يستبين له الدليل. من أجل ذلك قرن اسم ابن القيم باسم شيخه الذي عني به عناية خاصة، فنشأ مثله سلفيًا مجتهدًا، مقاومًا للبدع. كذلك لقي من الاضطهاد والاعتقال ما لاقاه شيخه. فقد ألقي به في السجن، بعد أن أهين، وطيف به على جمل، وهو يضرب بالدرة، لأنه أنكر شد الرحيل لزيارة قبر الخليل. وقد وصفت مدرستهما بالاجتهاد في البحث، وعدم التقيد المطلق بآراء السابقين، ومحاربة المنحرفين عن عقيدة السلف ومدعي التصوف والفلسفة، سعيًا لجمع العالم الإسلامي تحت راية واحدة، تنقذه من التعصب المذهبي، وتضمن له الأمن والاستقرار.

وقد تلقى العلوم عن ابن القيم ـ حتى في حياة شيخه ـ تلاميذ كثيرون، يعرفون فضله وعلمه، ويقصدونه للافتاء. وكان منهم ابنه عبد الله الذي تولى منصب التدريس بمدرسة الصدرية بعد وفاة والده، وكذلك ابن رجب، وابن كثير، وشمس الدين النابلسي وغيرهم من أعلام الحنابلة.

فقهــه:

وجهود ابن القيم في الفقه وعلم الكلام والتصوف ـ مثلها في ذلك مثل جهود شيخه ابن تيمية ـ ينبغي أن تفهم في إطار الملابسات السياسية والثقافية التي غلبت على عصره. فهو من جهة يمثل استمرارًا للتراث الحنبلي في الثقافة الإسلامية وما جد على هذا التراث من تطور، بتغير الظروف الحضارية للمجتمع الإسلامي. وهو من جهة أخرى يتفرد بين كثير من علماء عصره بالاستجابة الواعية لملابسات البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية، بعد أن كادت تتهدد الأمة الإسلامية بالفناء وويلات الغزو المزدوج من الشرق التتاري والغرب الصليبي. لقد تولد في ضمير هذا المفكر الديني السؤال عن السبيل إلى الخلاص. فنشأت في أعماقه رغبة شديدة في توحيد كلمة المسلمين المتفرقة، وميل إلى تحديد التفكير الديني بالرجوع إلى مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة، ونبذ التقليد تلمسًا لتصحيح المسار التاريخي للأمة الإسلامية. وباختصار، فإنه يمكن القول بأن ملابسات الصراع الحربي الذي عانت منه الأمة الإسلامية كثيرًا، وما خلف من آثار مدمرة ـ لم يكن سقوط بغداد آخرها ـ قد نزع بابن القيم كما نزع بابن تيمية من قبل إلى ممارسة نوع من النقد الذاتي للثقافة الإسلامية. وقد اقتضى هذا ـ فيما اقتضى ـ معاودة الرجوع إلى مصدريها الأساسيين في التشريع. وتلك وسيلة إسلامية يعرفها تاريخ الإسلام الثقافي في مواقف الخطر التي تدعوه إلى مراجعة ذاته الحضارية بين حين وآخر، ليتخلص من زيف فرصته عليه ظروف التخلف الاجتماعي والتفكك السياسي على مر الزمن ليعود جديدًا أصيلًا.

في ضوء هذه النزعة إلى تجديد التفكير الديني في الإسلام والرجوع إلى مصادره الأولى. يمكن أن نفسر اجتهاد ابن القيم في الفقه وعلم الكلام والتصوف.

فأما في الفقه، فإننا نجد ابن القيم من المجتهدين المصلحين الذين لا يترددون في نقد كثير من آراء أهل العصر بنظر العقل الذي لا يخالف الشرع. وهو يفعل ذلك في هدوء وأناة، وترتيب منظم لما يعرض من أفكار، مع ميل إلى المقارنة والموازنة.

دعوته الإصلاحية:

يرى ابن القيم أن الإصلاح الحقيقي للمسلمين إنما يتم بتوحيد آرائهم في الشرع، ونبذ الخلافات المذهبية، ومحاربة التلاعب بأحكام الدين، والعودة إلى مذهب السلف في العقائد، والدعوة إلى تحرر فكري يتفهم روح الدين حق الفهم.

وقد نتج عن ميله الإصلاحي في الفقه إصراره على محاربة التقليد فيه، ومهاجمة المقلدين «فلو كان التقليد من الدين، لم يجز العدول عنه إلى الاجتهاد والاستدلال» ولقد كان للشيخ اجتهاداته في كثير من المسائل. من ذلك مثلًا أخذه بشهادة الواحد، إذا علم صدقه، مستدلاً على ذلك ببعض النصوص التي تجيز ذلك عنده. وفي رأيه أن المطلوب هو البينة الكافية «والبينة هي كل ما يبين الحق ويظهره» ومن خصها بالشاهدين، أو الأربعة، أو لشاهد، لم يوف مسماها حقه. ولم تأت البينة قط في القرآن مرادًا بها الشاهدان، وإنما أتت مرادًا بها الحجة والدليل والبرهان، مفردة ومجموعة، وكذلك قول النبي ﷺ: «البينة على المدعي» المراد به: أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له، والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرها من أنواع البينة قد يكون أقوى منها، كدلالة الحال على صدق المدعي، فإنها أقوى من دلالة الشاهد. والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والإمارة: متقاربة في المعنى. هذا مثل من اجتهاد ابن القيم في تعريف البينة، وهناك أمثلة أخرى كاعتباره القصد في العقود، آخذًا بمبدأ النية في العمل، وما يترتب عليها من التحليل والتحريم، فالنية عنده روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها. وابن القيم يخالف في هذا كثيرًا من فقهاء المسلمين الذين لا يعتبرون المقاصد أخذًا بالظاهر من العمل. واعتبار المقاصد من سد الذرائع التي هي وسائل الشيء والطرق إليه. وكان ابن القيم ممن يأخذون بمبدأ سد الذرائع التي تؤدي إلى المحارم، وهو أصل حنبلي معروف، قال به ابن حنبل: كما قال به ابن تيمية من قبل.

كذلك نتج عن حملته الإصلاحية في الفقه حربه لما يسمى عند الفقهاء بالحيل الشرعية، والتي كان يلجأ إليها بعضهم في عصر ابن القيم، تحيلًا إلى التوصل إلى الغرض الممنوع منه شرعًا، وقلبًا لطريقة مشروعة وضعت لأمر معين، واستعمالًا لها في حالة أخرى.

وفي الجملة فإن فقه ابن القيم يميل إلى متابعة الفقه الحنبلي، ولكن في غير تعصب، مع ميل شديد إلى التجديد بالرجوع إلى النصوص القرآنية والنبوية، ومحاربة البدع، والوقوف ضد الحيل الشرعية، ونبذ الخلافات المذهبية من أجل وحدة الأمة

الإسلامية. وهو في سبيل ذلك يبدأ بالنصوص فيكثر من إيرادها، ويعتمد عليها في استنتاج الأدلة العقلية، دون الاهتمام بالتفريعات الجدلية التي كانت تسود الحركة الفقهية آنذاك، والتي كان يلجأ أصحابها إلى فرض الفروض العقلية، ومتابعة ما ينشأ عن ذلك من مناقشات جدلية فرعية.

ويمثل اتجاه ابن القيم بهذا نزعة واقعية في الفقه تعالج المشكلات، كما تتمثل في حياة المسلم العملية، وتستلهم روح الدين في اعتبار معنى النية والقصد والذريعة في كل عمل، وتلجأ في كل ذلك إلى النص الديني أساسًا للسياسة الشرعية.

آراؤه الكلامية:

هذا ما كان من أمر نزعته الإصلاحية في الفقه، فأما في علم الكلام فإننا نجد ميلًا مشابهًا إلى الاعتماد على النصوص الدينية. فهو يحاول أن يتمثل المنهج القرآني في إثبات وجود الخالق، ويتنبه إلى ما يسمى في الفلسفة بدليل العناية والغاية، عن طريق تدبر آيات الخلق والقدرة كذلك يلجأ ابن القيم إلى النصوص القرآنية ليحل مشكلة الصفات التي شغلت الفرق الإسلامية، فيثبت الصفات، كما أثبتتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما يثبت التنزيه، ولكن دون تأويل، لأنه يعتقد أن المتأولين قد قالوا برأيهم على الله، وقدموا آراءهم على نصوص الوحي، وجعلوها عيارًا على كلام الله ورسوله. وهكذا يأخذ ابن القيم آيات الصفات، كما وردت، لأن تأويلها في رأيه، هو الذي أوقع المسلمين في الفتنة وأشعل نار الخلاف بينهم فهو أصل فساد الدنيا والدين، وزوال الملك، وتسليط أعداء الإسلام عليه. ويكتفي ابن القيم في هذا الصدد بوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به الرسول من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، مثبتًا له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، نافيًا عنه النقائص والعيوب، ومشابهة المخلوقات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

ومذهب ابن القيم في مسألة الصفات وفي غيرها من المسائل الكلامية، يساير المذهب الحنبلي في جملته الذي يعتمد على قبول النصوص كما وردت دون تأويل، غير أن إلحاحه على أثر النزاع الجدلي الكلامي، الذي نشأ بسبب التأويل، في بث الفرقة بين صفوف المسلمين، ودعوته إلى تجنب التأويل حفاظًا على وحدة الأمة الإسلامية في وجه أعدائها، لا يمكن تفسيره تمامًا إلا في ضوء الظروف السياسية والثقافية التي أشرنا إليها.

تصوّفه:

وأما آراء ابن القيم في التصوف فلا تخلو أيضًا من دعوة إلى الرجوع للنصوص الدينية، ورغبة في جمع كلمة المسلمين. ومن هنا نجد أشواقه ومواجيده الروحية تستلهم

معاني القرآن والسنة، وتسير على طريقة الزهاد السلفيين، لا على طريقة من هاجمهم من غلاة المتصوفين. وقد ألح الشيخ على معنى تحقق الزاهد بالمسكنة والفاقة والذل لله. ونقل عن كبار الصوفية أقوالًا في هذا المعنى وفي غيره من الأفكار. وكانت تأملاته في التصوف تستهدف الجمع بين الحقيقة والشريعة، وتخليص التصوف من نظريات بدت متطرفة دخيلة على الفكر الإسلامي، مثل قول بعضهم بوحدة الوجود ووحدة الأديان وكلامهم في الحلول والاتحاد. وهو اتجاه يمثل في جملته استمرارًا لجهد الغزالي الذي حاول التقريب بين الفقهاء والصوفية، بعد أن اشتد الخلاف بينهما، والذي كان من ثمرته إقبال أهل السنة على التصوف وتعميق معنى الشريعة في قلوب المتصوفة. ومع ذلك فإن ابن القيم يبدو أكثر إلحاحًا من الغزالي ـ وذلك بسبب ميله الإصلاحي العام على تخليص التصوف من جوانبه السلبية التي تتعارض وأصول الشريعة. ولذلك نراه مثلًا يشترط في العلم اللدني ـ وهو العلم الذي تشرق به بصيرة العابد بالإلهام كما يقول الصوفية ـ ألا يخالف الكتاب والسنة، فهو في رأيه ثمرة التحقق بالعبودية والرياضة الروحية وفق أصول الشريعة، فأما من أعرض عن أصولها، ولم يتقيد بها، فإن علمه لدني، ولكن من لدن النفس والشيطان، فالمحك الوحيد هو الوحي، ولا وحي بعد رسول الله. وبمثل هذا التفسير لنظرية العلم اللدني حاول ابن القيم أن يجرد غلاة الصوفية من أكثر أسلحتهم خطورة في الانحراف عن أصول الشريعة.

وهكذا نجد ابن القيم ينكر من التصوف ما كان متطرفًا، أو مخالفًا للشرع، ويقارب بين مفهومي الشريعة والحقيقة في ضمير المسلم، ويحتكم في كل ذلك إلى النصوص الدينية، إلتماسًا لوحدة إسلامية كاملة في وجه الظروف السياسية والاجتماعية المناوئة.

آثـــاره:

والحديث عن آثاره متصل الأسباب بالحديث عن ثقافته، إذًا يمكن عن طريق ما خلف منها أن نتعرف على عقليته ومنهجه الفكري، فالآثار مرآة صاحبها تحفظ صورته رغم تعاقب السنين وتبين اتجاهاته وميادين فكره.

ويعد ابن القيم من المكثرين في التأليف، فكتبه كثيرة، وجانب غير قليل منها مبسوط ضخم الحجم، ولكن ابن القيم لا يبلغ شيخه ابن تيمية في كثرة التأليف، فقد بلغ ابن تيمية في ذلك مبلغًا كبيرًا لا يكاد يصل إلى طبقته في المؤلفين الإسلاميين جميعًا إلا عددًا قليلًا لا يجاوز أصابع اليد الواحدة.

صنّف ابن القيم في الميادين التي بيّنا دراسته لها، وكانت عنايته منصرفة إلى الفقه وأصوله والتصوف وما يتصل بالتوحيد وعلم الكلام كما ألف في السير مصنفًا

ممتازًا[1] غلب عليه الطابع الفقهي وسلك فيه منهجًا لم يُسبق إليه ومعظم كتابه «بدائع الفوائد» متصل بالدرس اللغوي. وقد أورد له ابن حجر على سبيل التمثيل لا الحصر ثلاثة عشر مصنفًا، وذكر الشوكاني أسماء ستة عشر، أما ابن العماد فقد أحصى ثلاثة وأربعين مصنفًا له وصرح بأن له غيرها، فكأنه ـ برغم ذلك ـ لم يحصرها حصرًا شاملًا وقد اقتصرت دائرة المعارف الإسلامية على ذكر ستة عشر مصنفًا مما طبع من كتبه.

والنظرة العابرة في أسماء مصنفاته تدل على الميادين الكثيرة المتنوعة التي استطاع أن يخوضها ومقدار الجهود التي بذلها.

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١٥٨/٦ ـ ١٥٩، مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية، وهي:

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية.

٢ ـ أحكام المولود.

٣ ـ أسماء القرآن الكريم.

٤ ـ أعلام الموفقين عند رب العالمين.

٥ ـ إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان.

٦ ـ أمثال القرآن.

٧ ـ الإيجاز.

٨ ـ إيمان القرآن.

٩ ـ بدائع الفرائد.

١٠ ـ بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا.

١١ ـ بيان الاستدلال على بطلان محتلي السباق والنضال.

١٢ ـ بيان الدليل على استغناء المسابقة عند التحليل.

١٣ ـ التبيان في أقسام القرآن.

١٤ ـ التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير.

١٥ ـ التحفة المكية.

---

(١) هو كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد» لم يقتصر فيه على تناول أحداث السيرة وإنما عنى بها باعتبارها الجانب العملي من السنة واستنبط من أحداثها كثير من الأحكام الفقهية، فضلًا عن الدراسة التاريخية الممتازة.

١٦ ـ تحفة النازلين نحو رب العالمين.

١٧ ـ تحفة الودود في أحكام المولود.

١٨ ـ تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالزكاء والقريحة.

١٩ ـ تفسير الفاتحة.

٢٠ ـ تفضيل مكة على المدينة.

٢١ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام.

٢٢ ـ جوابات عابدة الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان.

٢٣ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

٢٤ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. في الأخرويات.

٢٥ ـ حرمة السّماع.

٢٦ ـ الداء والدواء.

٢٧ ـ رفع التنزيل.

٢٨ ـ رفع اليدين في الصلاة.

٢٩ ـ ربيع الأبرار في الصلاة على النبي المختار.

٣٠ ـ روضة المحبين ونزهة البساتين.

٣١ ـ زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء.

٣٢ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد.

٣٣ ـ سفر الهجرتين وباب السعادتين.

٣٤ ـ شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعديل.

٣٥ ـ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم.

٣٦ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة.

٣٧ ـ الطرق الحكمية في سياسة الشرعية.

٣٨ ـ طرق السعادتين.

٣٩ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٤٠ ـ عقد محكم الأحقابيين.

٤١ ـ الفتح القدسي.

٤٢ ـ الفروسية المحمدية.

٤٣ ـ الفرق بين الخلة والمحبة.

٤٤ ـ الكافية في الانتصار للفرقة الناجية. منظومة.

٤٥ ـ كتاب الروح.

٤٦ ـ كتاب الصبر والسكن.

٤٧ ـ كتاب الطاعون.

٤٨ ـ كتاب القضاء والقدر.

٤٩ ـ كتاب الكبائر.

٥٠ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح.

٥١ ـ مدارج السالكين في شرح منازل السائرين.

٥٢ ـ مراحل السائرين.

٥٣ ـ المسائل الطرابلسية.

٥٤ ـ معاني الأدوات والحروف.

٥٥ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.

٥٦ ـ مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة.

٥٧ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٥٨ ـ المورد الصافي والظل الوافي.

٥٩ ـ المهذب.

٦٠ ـ نزهة المشتاقين.

٦١ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمظنون.

٦٢ ـ نور المؤمن وحياته.

٦٣ ـ الوابل الصيب والكلم الطيب.

٦٤ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

شيوخه:

نشأ ابن القيِّم بدمشق، وهي على النحو الحضاري والثقافي المتميز، وبها العديد من المدارس من بينها الصدرية والجوزية اللتان كان له صلة بهما. ولما كان أبوه فقيهًا

حنبليًا بارعًا في الفرائض، أخذ عنه هذا الفرع من الفروع الفقهية، وذلك ـ بطبيعة الحال وكما هي العادة ـ بعد حفظ القرآن ومعرفة القراءة والكتابة، وطرف من العلوم الأولية.

وقد درس أيضًا على أيدي (التقي سليمان، وأبي بكر بن عبد الدائم، والمطعم، وابن الشيرازي، وإسماعيل بن مكتوم، والطبقة، وقرأ العربية على ابن أبي الفتح والمجد التونسي، وقرأ الفقه على المجد الحراني وابن تيمية)[١].

كما سمع من الشهاب النابلسي[٢]، وقرأ الأصول على الصفي الهندي وابن تيمية[٣]؛ ومن شيوخه أبو محمد ابن تيمية شقيق أبي العباس، وقد أشار إليه في كتبه ونعته بقوله (شيخنا)[٤]. بيد أن أكثر شيوخ ابن القيم أثرًا فيه هو تقي الدين أو العباس ابن تيمية، وقد لازمه تلميذه أطول مدة ممكنة، وتعلق به حتى وصف بأنه قد (غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه). واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة (بدمشق) بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبًا بالدرة فلما مات أفرج عنه، وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكانت مدة ملازمته لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة ٧١٢ هـ إلى أن مات[٥]. (أي أن هذه الملازمة استمرت إلى عام ٧٢٨ هـ أي نحو ستة عشر عامًا).

خصومه وأنصاره:

من كان في منزلة ابن القيم فلا بد أن تختلف فيه أقوال معاصريه وَخَالِفه بحسب الاتجاهات العقدية والفكرية لهم، بيد أن اختلاف المترجمين له في شأنه أقل وأيسر من اختلافهم في شأن أستاذه ابن تيمية، فقد كان أستاذه أكثر ثورة وعنفًا منه وكان هو أميل إلى الهدوء، كما أن سلوك ابن القيم في حياته مسلكًا صوفيًا خاصًا جعله أقل عنفًا في مهاجمته المتصوفة، وقد كان شيخه مغاليًا في الهجوم عليهم. ومهما يكن من شيء فإن أكثر المترجمين لابن القيم تحدثوا عنه بإعجاب وامتدحوا علمه وخلقه، منهم تلميذه ابن رجب ومعاصره القاضي برهان الدين الزرعي الذي قال عنه «ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه»[٦] كما امتدحه ابن كثير، أما الذهبي ـ وهو معاصر له ـ فقد أخذ عليه أنه «معجب».

---

(١) انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر: ٤/ ٢١، وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٦٨، والبدر الطالع للشوكاني: ٢/ ١٤٣، ودائرة المعارف الإسلامية (ابن قيم الجوزية).

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة: ٤/ ٢١.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب: ٦/ ١٦٨.

(٤) إعلام الموقعين: لابن القيم: ٤/ ٢١.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٦٩.

«برأيه جرى على الأمور»[1]، وقد انتصر له الشوكاني بعد حين ورد على الذهبي قائلًا: «بل كان متقيدًا بالأدلة الصحيحة معجبًا بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعًا بالحق، لا يحابي فيه أحدًا، ونعمت الجرأة»[2].

تلاميذه:

أخذ عن ابن القيم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات وأشهر من تتلمذ عليه الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن رجب صاحب طبقات الحنابلة، فقد ذكر أنه لازم مجالسه قبل موته أكثر من سنة كما سمع عليه قصيدته النونية في السنة، وأشياء من تصانيفه[3] كما تتلمذ عليه شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي صاحب مختصر طبقات الحنابلة، وابن كثير صاحب «البداية والنهاية» وقد أثنى ابن كثير على شيخه ونقل ذلك عنه أصحاب التراجم، ومن تلاميذه ابن عبد الهادي الذي وصفه ابن رجب بأنه أحد الفضلاء العلماء الذين كانوا يسلمون له ويأخذون عنه[4]، كما تتلمذ عليه ابنه عبد الله الذي تولى منصب التدريس بالصدرية بعد موت أبيه.

خلقه وشخصيته:

في حياة ابن القيم مواقف عظيمة جديرة بالتأمل لما تحمله من دلالات على صفات خاصة لرجل من نوعية خاصة، هذه المواقف شبيهة بما تعرض له شيخه ابن تيمية، وبعضها كان مشتركًا بينهما، والأعجب من ذلك أن هذه وتلك شبيهة من بعض الوجوه بما تعرض له أحمد بن حنبل إمام المذهب في محنته المشهورة إذ تعرض للأذى والتعذيب من قبل السلطة الحاكمة وهو يدافع عن عقيدة أهل السنة وأظهر من الثبات والشجاعة والصراحة ما سجله له المترجمون مما هو مشهور، وقد تعرض هذان الفقيهان الحنبليان لمحن شبيهة جرت عليهما أذى أرباب السلطة، وإن كان تيمية أكثر تعرضًا للبطش والتنكيل من تلميذه لأنه كان حاد الطبع عنيفًا في ثورته على البدع لا يميل إلى مهادنة خصومه من أصحاب الديانات المخالفة أو الفرق الإسلامية الخارجة كالجيهمية والصوفية القائلين بالحلول والاتحاد، وقد كان ابن تيمية شجاعًا جريئًا وقد أشرنا من قبل إلى موقفه المشهود في حرب التتار، وقد قاتل مع الجيش بنفسه وكان معه أخوه وانتهت المعركة بهزيمة التتار.

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع: جـ ٢ ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٦٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٤ ص ٢٣٥.

هذا الموقف الشجاع لابن تيمية يتسق مع مواقفه الأخرى من خصومه في الفكر والاعتقاد ومع مواقفه من أصحاب السلطان إذ كان دائمًا شجاعًا جريئًا حادًا عنيفًا لا يهادن في الحق، ولا يلين ولو كان للسلطان في أدنى الأمور ولذلك تعرض للحبس مرات كثيرة فكان يرضى به ولا يقبل أن يرجع عما يرى أنه الحق.

كان ابن القيّم كشيخه داعيًا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف من تحكيم الكتاب والسنة دون تعطيل أو تشبيه، وقد حارب كشيخه الفرق المختلفة، كما وقف موقف الخصومة من أصحاب الديانات المخالفة من اليهود والنصارى وغيرهم، ولكن هناك فرقًا بينهما يتمثل في هدوء ابن القيم وميله إلى الحجاج البعيد عن الحدة والعنف فلم يبلغ من العنف والثورة مبلغ شيخه، ومرد ذلك راجع إلى الاختلاف الفطري بين طبيعة كل منهما، فأحدهم ثائر عنيف والآخر يميل إلى الهدوء كما أن ابن تيمية هو الذي شهد بداية الصراع وعنفوانه وقوة الخصوم ومعاندتهم، أما ابن القيم فقد شهد الصراع بعد أن أبلى شيخه في ميدانه بلاءً وفر عليه كثيرًا من الجهد كما أن الصراع نفسه قد فترت حدته، ومن ثم كان ابن القيم أكثر ميلًا إلى الهدوء وأبعد عن العنف في حجاجه ولذلك كان خصومه أقل من خصوم شيخه.

وعلى الرغم من تأثير ابن القيم الشديد بشيخه فإنه كان حر التفكير مستقل الشخصية يعمل فكره ولا يلتزم رأي غيره ولو كان شيخه وكثيرًا ما خالف شيخه في الآراء والفتاوى الفقهية ورجح منها ما تسنده الأدلة وضعف ما ليس له دليل قوي.

تعرض ابن القيم مع شيخه للأذى «فاعتقل معه بقلعة دمشق بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبًا بالدرة»[١]، وكان هذا الاعتقال هو الأخير بالنسبة لابن تيمية، وقد حبس تلميذه بنفس «القلعة متفردًا عن شيخه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ»[٢].

وقد تعرض ابن القيم للحبس مرة أخرى بسبب إنكاره شد الرحيل لزيارة قبر الخليل[٣]، وهي نفس التهمة التي حبس من أجلها ابن تيمية عام ٧٢٦ هـ بسبب الفتوى التي أفتى بها عام ٧١٠ هـ وأبى الرجوع عنها وأنكر فيها شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين، واعتمد على حديث الرسول ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا. . .، وهو لم يحرم زيارة قبر المسلم إلا إذا كانت هذه تقام في يوم معين وتحتاج لرحلة خاصة[٤].

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١. (٢) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٦٨.
(٣) الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١، شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٦٨.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة ابن تيمية.

هذه المحن تدلنا على ما تميز به ابن تيمية وتلميذه من ثبات على أقوالهما التي يؤدي إليها الاجتهاد الصحيح وتستند الأدلة النقلية والعقلية، فلقد كان في إمكان كل منهما أن يرجع عن هذه الفتوى ـ ولو ظاهريًا ـ إذا كان ممن يفضل حياة العافية على التمسك بالمبادىء ولكن موقفهما ظل صلبًا ثابتًا منذ أصدرها ابن تيمية عام ٧١٠ هـ وحبس بسببها عام ٧٢٦ هـ وكذلك ابن القيم حينما حبس بسببها بعد وفاة ابن تيمية.

وتعرض ابن القيم لمحن أخرى بسبب فتاواه أو فتاوى شيخه، وكان من علماء عصره وينالون منه[١]، وقد أنكر عليه قضاة عصره فتواه بجواز المسابقة بغير محلل وهي التي وضع فيها رسالة خاصة سماها «بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل»، وأنكر عليه السبكي ذلك وطلبه فأمسك عن الإفتاء بها[٢].

وكان يقصد كذلك للإفتاء بمسألة الطلاق و«جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكي وغيره»[٣] ويبدو أنها نفس المسألة التي أذي بسببها ابن تيمية وحبس بسجن قلعة دمشق عام ٧٢٠ هـ أكثر من خمسة أشهر حتى أفرج عنه بأمر من السلطان وهي خاصة بالحلف بالطلاق معلقًا بشيء أو غير معلق وقد خالف فيها ابن تيمية ما درج الفقهاء على أن يفتوا به[٤] وقد ناصره في نفس الفتوى تلميذه ابن القيم وتعرض مثل شيخه للأذى.

ويهمنا مما قدمنا أن نستخلص ما يدل على خلق الرجل وشخصيته فهو رجل متحرر في فكره يذم التقليد، ويناقش الأئمة ولا يتعصب لمذهب على حساب المذاهب الأخرى، وإنما يسير تبعًا للأدلة التي تتضح له غير مكابر أو مغالط وهو لذلك شديد التمسك برأيه الذي أداه إليه اجتهاده لا يعبأ في سبيله بأذى أو سجن أو محن أو محاسبة أو تضييق.

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٣ ص ٤٠٠، ٤٠١، ويوضح ذلك أن الشافعية والحنفية وأحمد يرون أنه إذا تسابق شخصان وبذل أحدهما الرهن، كان السباق جائزًا، فإن بذل كل منهما رهنًا لم تجز السباق إلا إذا أدخلا بينهما محللًا، ذلك أن السباق بدونه يعد قمارًا في الحالة الأخيرة، لأن كلًا منهما عرضة لأن يأخذ إذا سبق ويؤخذ منه إذا صار مسبوقًا فلو أدخلا بينهما ثالثًا للتحليل جاز الرهن وذلك بأن يأتي الثالث بفرس كفء لقوسيهما، ولا يدفع شيئًا فإن سبقهما أخذ ما دفعاه، وإن سبق المحلل مع أحدهما اشترك مع السابق في مال المسبوق، وإن سبقاه أحرزا ما أخرجاه ولم يغرم المحلل شيئًا، وقد خالف ابن القيم في ذلك إذ رأى جواز المسابقة دون محلل ومال إلى عدم جواز المحلل واحتج لقوله بالأدلة النقلية والعقلية، وفند حجج خصومه وبين ما يترتب على القول بجواز المحل من مفاسد تأباها مقاصد الشريعة، انظر ابن القيم: الفروسية الشرعية ص ١٩.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ترجمة: ابن القيم، إعلام الموقعين لابن القيم في أكثر من موضوع.

ويتصل بحديثنا عن خلقه ما يمكن أن يذكر عن تدينه، فالعقيدة أساس لكل خليفة أخرى، والإيمان مصدرها وموجهها، والدين أساس كل الأخلاق الكريمة إذ به تغرس التقوى في النفوس، والتقوى أساس الضمير الحي المحاسب في السر والعلان، وحين تكلم نقدة الرجال عن العدالة جعلوا مدارها على أمرين هما التقوى والمروءة، أما التقوى فلا تكون إلا عن تدين صالح وإيمان صادق وأما المروءة فالدين يهذب خلالها ويقومها ويركبها وينمي فروعها.

ويتضافر الذين رأوا ابن القيم في الحديث عن صلاح دينه وتقواه إذ يذكرون مظاهر ذلك فيصفه ابن كثير بأنه «كان ملازمًا للاشتعال ليلًا ونهارًا، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد لا يحسد ولا يحقد، لا أعرف في زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه، وكان يطيل الصلاة جدًّا ويمد ركوعها وسجودها وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول: هذه غذوتي لو لم أقعدها سقطت قواي، وكان يقول: بالصبر والفقر أنال الإمامة في الدين، وكان يقول: لا بد للسالك من همه تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه[١].

ويصفه تلميذه ابن رجب أيضًا بأنه كان «ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والحديث والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله»[٢].

كما ذكر عنه أيضًا أنه «كان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والخوض في غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحج مرات كثيرة، وجاوز بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه[٣].

ولا أحسبنا بعد هذين الشاهدين اللذين عاصراه بحاجة إلى غيرهما ممن يشهدون بعدالته وتقواه وحسن خلقه، ولا نكاد نجد لدى غيرهما قدحًا في عدالته حتى من قبل خصومه، وإن يكن الذهبي قد أخذ إعجابه برأيه وجرأته على الأمور فليس في هذا النقد

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢١، ٢٢.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٦٨.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٤٨، ١٦٩.

من قدح في العدالة، وبالرغم من ذلك فقد وجد من يدفع عنه هذه التهمة ويبين أنها إحدى فضائله ومزاياه إذ إنه كان «متقيدًا بالأدلة الصحيحة معجبًا بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعًا بالحق، لا يحابي فيه أحد ونعمت الجرأة»(١).

خلق الرجل كان نابعًا من هذه التقوى، ومحددًا بما تمليه تعاليم الإسلام وما تندب إليه من المكارم والفضائل، وكان فهمه الصحيح للتصوف على أنه علم وعمل متمثلًا في مسلكه العملي اليومي، فهو ليس واحدًا من الذين يعملون ويبتغون بعلمهم عرض هذه الحياة وزخرفها قانعين بمنصب أو رتبة أو وظيفة، وليس ـ أيضًا ـ واحدًا من النساك الجهلة الذين يمكن للشيطان أن يلبس عليهم أو يخدعهم عن حقائق الأمور، وإنما هو رجل قد جمع بين الفضيلتين فضيلة العلم وفضيلة الحسن به، وهذا هو المسلك الأمثل وهو الذي دعت إليه الشريعة السمحة.

ولقد كان لهذه الخلال التي اتصف بها ابن القيم أثرها في منهجه العلمي من أمانة في العلم والنقل، وإنصاف للخصم، وتعمق في البحث وإخلاص فيه لوجه الله، ومتابعة الأدلة بدون تعصب، وذلك لا يمليه إلا خلق صبغ بالتقوى والورع، ونمى على مكارم الدين وفضائله.

ولعل مما يدل على تقوى ابن القيم وورعه وتواضعه وانكساره لخالقه هذه الأبيات التي قالها والتي تدل على نفس خائفة من الله مستعظمة للذنب، محتقرة لشأنها ولما قدمته من أعمال، وهذا هو مقام الخوف بمشاعره التي لا تعتري إلا قلب المؤمن الصادق العارف لربه المراقب له المستيقن من لقائه وحسابه المتمثل لذلك، يقول في صفة نفسه(٢).

بني أبي بكر كثير ذنوبه	فليس على من نال من عرضه إثم
بني أبي بكر غدا متصدّرًا	يعلم علمًا وهو ليس له علم
بني أبي بكر جهول بنفسه	جهول بأمر الله أنى له العلم
بني أبي بكر يدوم ترقبًا	إلى جنة المأوى وليس له عزم
بني أبي بكر لقد خاب سعيه	إذا لم يكن في الصالحات له سهم
بني أبي بكر كما قال ربه	هلوع كنود وصفه الجهل والظلم

---

(١) الشوكاني: البدر الطالع: جـ ٢ ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢٢.

بـنـي أبـي بـكـر وأمـثـالـه غـدت بـفـتـواهـم هـذي الـخـلـيـقـة تـأتـم
وليس له في العلم باع ولا التقى ولا للزهد والدنيا لديهم هي الهم
بـنـي أبـي بـكـر غـدا مـتـمـنـيًـا وصـال الـمـعـانـي والـذنـوب لـه هـم

الخصائص العلمية لعصر ابن القيم:

تميز العصر بكثرة مؤلفاته التي اتسم كثير منها بالموسوعية، ذلك بأن العلماء كانوا يحسون بعد الخراب الذي حل ببغداد أن عليهم واجب إحياء علوم الدين واللغة، ومحاولة سد ما حدث بها من نقص، وقد أنتج العصر آلاف الكتب والرسائل، وعرف كثير من رجاله بكثرة التأليف فابن تيمية ـ مثلًا ـ وهو أستاذ ابن القيم أربت مؤلفاته على خمسمائة، وابن حجر العسقلاني وهو من علماء القرن الثامن الهجري زادت مؤلفاته على مائة وخمسين فيها مؤلفات مطولة كشرحه المشهور على البخاري والمعروف باسم «فتح الباري» ولو لم يؤلف غيره لكفاه.

وكثرة التأليف لم تكن ناتجة عن رغبة في إحياء ما درس ببغداد فحسب، بل كانت لها عوامل كثيرة منها نضج كثير من العلوم، واحتراق بعضها من كثرة ما ألف فيه ووضع من متون وشروح.

وقد كانت ظاهرة «المتون والشروح» غالبة وواضحة، وكثرت المنظومات التعليمية، وأشهر منها ألفية الحافظ العراقي في علوم الحديث وألفية ابن مالك في النحو وغير ذلك، كما كانت هناك موشحات تنظم في ببعض العلوم.

لقد اشتمل التأليف لذلك العصر على جميع الأشكال الممكنة ما بين متن نثري، وشرح له وحاشية على الشرح، ومنظومة شعرية وشرح لها وموشح بالإضافة إلى الكتب التي توضع مبسوطة فلا تحتاج إلى شروح أو لا تشرح لقلة عناية الدارسين بها. . إلى آخر هذه الأشكال التصنيفية.

ولعل طابع الزخرفة والتنسيق الذي ظهر في فنون العصر وغلب عليها، وأثر في الشعر والنثر فصبغه بصبغة لفظية متكلفة في الغالب، هذا الطابع ظهر أثره في المؤلفات العلمية وفي طريقة وضعها وتصنيفها، بحيث نجد اهتمام المؤلف الأول متصرفًا إلى التنظيم والتبويب في مصنفه، وهو يحاول جاهدًا أن يبتكر في التنسيق الشكل ما لم يسبق إليه، لأن الابتكار في جوهر العلم غدا عسيرًا بعد أن كثرت المؤلفات، وكثرت المنقولات، وغلب طابع التقليد وقتلت كثير من الموضوعات بحثًا.

جهاده وتعرّضه للبلاء والسجن:

حبس ابن القيم لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل، وأُوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية في المدة الأخيرة بالقلعة منفردًا عنه، ثم أُفرج عنه بعد موت الشيخ ابن تيمية، وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر.

وفاته:

بعد حياة حافلة بالجد والنشاط العلمي الواسع وافته المنية في الثالث عشر من رجب عام ٧٢١ هـ (الموافق ١٢٥٠ م وليس ١٣٥٦ كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية وهمًا، فقد ذكرت التاريخ الهجري الصحيح لعامي الميلاد والوفاة).

وكانت وفاته وقت العشاء وبذلك يكون قد عاش ستين عامًا هجريًا وشهرًا وبضعة أيام، وقد ذكروا أن جنازته كانت «حافلة جدًا»[١]، وهذا الاحتفال بالجنازة يدل على حسن اعتقاد العامة فيه وحبهم له، وهو يذكرنا بجنازة شيخه ابن تيمية وإمام المذهب ابن حنبل الذي أثر عنه قوله لخصومه «بيننا وبينكم أتباع الجنائز» فكانت هذه الجنائز غير العادية دليلًا للناس على إخلاص هؤلاء الأئمة لأمتهم ونصحهم لها، لا سيما أنهم ليسوا من أرباب الدنيا هؤلاء كانوا يشيعون بقلوب تحبهم ونفوس تعطيهم وتجلهم، فلهم سلطان على قلوب الناس أغلب وأبقى من سلطان الملوك والأمراء.

وقد «صلى عليه من الغد بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر ثم بجامع جراح ودفن بمقبرة الباب الصغير»[٢].

وقد ذكرت تراجمه أنه قد رأى قبل موته في منامه شيخه تقي الدين ابن تيمية وسأله عن منزلته فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر ثم قال له:

وأنت كدت تلحق بنا ولكن أنت الآن في طبقة ابن خذيمة[٣].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢٣. (٢) ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٧٠.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ ٤ ص ٢٣، ابن العماد: شذرات الذهب: جـ ٦ ص ١٧٠، الشوكاني: البدر الطالع: جـ ٢ ص ١٤٥.



القسم الأول

طبّ القلوب عند شيخ الإسلام
ابن تيمية الحرّاني



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع فتاويه الجزء العاشر:

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا.

فصل في مرض القلوب وشفائها

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠] وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم﴾ [الحَجّ: الآية ٥٣] وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ [الأحزاب: الآية ٦٠] وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدَّثر: الآية ٣١] وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: الآية ٥٧] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٢] وقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم. وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرًا، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج.

وأما فساد حركته الطبيعية، فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحب الأشياء التي تضره، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك؛ ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك؛ بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية:

فالأول: أما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وأما بسبب زياداتها فيحتاج إلى استفراغ.

والثاني: كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى.

فصـــل

وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره، وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب. كما فسر مجاهد وقتادة قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠] أي شك. وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٢].

ولهذا صنّف الخرائطي «كتاب اعتلال القلوب» أي مرضها، وأراد به مرضها بالشهوة، والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح، فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك، من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض.

والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي، والصحة تحفظ بالمثل، وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما يهلك. وإن حصل له ما يقوي القوة ويزيل المرض كان بالعكس.

ومرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب. قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال: فلان شفي غيظه، وفي القود استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغمّ والغيظ والحزن، وكل هذه آلام تحصل في النفس.

وكذلك «الشك، والجهل» يؤلم القلب، قال النبي ﷺ: «هلا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال». والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه، حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن

حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه. قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٥٣] لأن ذلك أورث شبهة عندهم، والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان، فصار فتنة لهم.

وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزَاب: الآية ٦٠] كما قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدَّثر: الآية ٣١] لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات، وكذلك ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٢] وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميثل إلى ما يعرض له في ذلك بحسب قوة المرض وضفعه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محبًا للرشاد مبغضًا للغي، بعد أن كان مريدًا للغي مبغضًا للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح. يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

والصدقة لما كانت تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار صار القلب يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣].

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب. وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغًا من تخليطاته حيث خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه. فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: الآية ٢١] وقال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٢٨] وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النُّور: الآية ٣٠] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآيتان ٩، ١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: الآية ٣] وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النَّازعات: الآيتان ١٨، ١٩] فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكوا القلب، فإنه يتضمن نفي إلـٰهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلـٰهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إلـٰه إلا الله. وهذا أصل ما تزكوا به القلوب.

والتزكية جعل الشيء زكيًا: إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر؛ كما يقال عدلته إذا جعلته عدلًا في نفسه، أو في اعتقاد الناس، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النّجم: الآية ٣٢] أي تخبروا بزكاتها، وهذا غير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٣٢] وكان اسم زينب برة فقيل تزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٩] أي يجعله زاكيًا، ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم.

والعدل هو الاعتدال، الاعتدال هو صلاح القلب؛ كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالمًا لنفسه، والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه؛ بل ظلمها؛ فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل

وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦].

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسرَاء: الآية ٧] قال بعض السلف: إن للحسنة لنورًا في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وأن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: الآية ٢١] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدَّثر: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعَام: الآية ٧٠] و﴿تُبْسَلَ﴾ أي ترتهن وتحبس وتؤسر؛ كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو بإخراج المزاج، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل؛ فالأمثل؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل، ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف. والعدل المحض في كل شيء متعذر علمًا وعملًا، ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى. وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٢٩] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٢].

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس.

والظلم ثلاثة أنواع: والظلم كله من أمراض القلوب، والعدل صحتها وصلاحها. قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحدًا، أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك، كمرض الشرك والذنوب.

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٢].

لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع. كقوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: الآية ٧٠] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: الآية ٣١] ومن أنواعه: أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وفي الحديث الصحيح: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت».

وفي الصحيح أيضًا: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا».

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩] وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: الآية ٣٥] فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: الآيتان ٣٩، ٤٠].

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئًا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئًا ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

والثاني: مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئًا؛ فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢٤] وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذا فعل خيرًا ولم يفعل سيئة. وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: الآية ١] وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢٨].

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين. مثلًا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد، ومثلًا بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد.

وكذلك ضرب الله للنفاق «مثلين» قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٧] وقال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٧ - ٢٠].

فضرب لهم مثلًا كالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفأها الله، والمثل المائي كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى. ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر.

وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها، وفي الدعاء المأثور: «اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا». و«الربيع» هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات، قال النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم». والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسمية العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء؛ فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار، وتنبت الأوراق على الأشجار.

والقلب الحيّ المنوّر؛ فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧١] وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يُونس: الآيتان ٤٢، ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٥].

فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار، كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: الآية ٥]. فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من

جنس حياة البهائم، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧١].

فشبههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٩].

فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يُونس: الآية ١٢] وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها، فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار، والمراد بالإنسان هنا الكافر، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب؛ بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرًا للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر، كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند. ونحو ذلك، فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده.

فيقال: أولًا: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

ويقال: ثانيًا: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر، وإن كان معه إيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وأبو ذر رضي الله عنه من أصدق الناس إيمانًا.

وقال في الحديث الصحيح: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم».

وقال في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟! قال: فمن؟!».

وقال أيضًا في الحديث الصحيح: «لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع. قالوا: فارس والروم؟! قال: ومن الناس إلا هؤلاء».

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وعن علي ـ أو حذيفة ـ رضي الله عنهما قال: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذاك قلب الكافر، وقلب منكوس فذاك قلب المنافق، وقلب فيه مادتان: مادة تمده الإيمان، ومادة تمده النفاق، فأولئك قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر، وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: الآية ٦]. فيقولون المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم، فأي فائدة في طلب الهدى؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك، أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم، ويقول بعضهم زدني هدى، وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه؛ فإن الموارد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقر بأن محمدًا رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد، ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم.

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلًا، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: الآيتان ١، ٢] وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصَّافات: الآيتان ١١٧، ١١٨].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدًا حق والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه و[لا] يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما

أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائمًا في أن يهديهم الصراط المستقيم.

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول ثبتنا واهدنا لزوم الصراط.

وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد، ولا يكون مهتديًا حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل العمل، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله أعلم.

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته، كأبي الحسين البصري. قالوا: إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضًا مستلزمة لذلك، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة، وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي.

والحياء مشتق من الحياة؛ فإن القلب الحي يكون صاحبه حيًّا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان» وقال: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان. والبذاء والبيان شعبتان من النفاق».

فإن الحي بدفع ما يؤذيه؛ بخلاف الميت الذي لا حياة فيه [فإنه] يسمى وقحًا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام، بخلاف الأرض الخضرة.

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبح، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك. فالقلب إذا كان حيًّا

فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن، ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة: الآية ١٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩] مع أنهم موتى داخلون في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥] وفي قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٠] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحَجّ: الآية ٦٦] فالموت المثبت غير الموت المنفي. المثبت هو فراق الروح البدن، والنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن.

وهذا كما أن النوم أخو الموت، فيسمى وفاة ويسمى موتًا، وإن كانت الحياة موجودة فيهما. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢] وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» وفي حديث آخر: «الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا».

وإذا أوى إلى فراشه يقول: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» ويقول «باسمك اللهم أموت وأحيا».

فصل

ومن أمراض القلوب «الحسد» كما قال بعضهم في حده: إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء، فلا يجوز أن يكون الفاضل حسودًا؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل، وقد قالت طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، بخلاف الغبطة فإنه تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط.

والتحقيق: إن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان:

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقًا، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضًا في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها؛ لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه، وهو راحة، وأشد كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه

والمرض باق؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود.

والحاسد ليس له غرض في شيء معين؛ لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع. ولذا قال من قال: إنه تمنى زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسدًا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل أتاه الله مالًا وسلطه على هلكته في الحق» هذا لفظ ابن مسعود.

ولفظ ابن عمر: «رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل أتاه الله مالًا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار».

رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه: «لا حسد إلا في اثنين رجل أتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار، فسمعه رجل فقال: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا، ورجل أتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق فقال رجل يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا» فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

فإن قيل: إذا لم سمي حسدًا وإنما أحب أن ينعم الله عليه. قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدًا؛ لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء.

ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه. وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر، والتنافس ليس مذمومًا مطلقًا، بل هو محمود في الخير. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: الآيات ٢٢ - ٢٦].

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل، وهذا موافق لحديث النبي ﷺ فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه، ومن أوتي المال فهو ينفقه، فأما من أوتي علمًا ولم يعمل به ولم يعلمه، أو أوتي مالًا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله، فإنه ليس في خير يرغب فيه، بل هو معرض للعذاب، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل، أدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة؛ لكن هذا في جهاد عظيم، كذلك المجاهد في سبيل الله.

والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم، فلهذا لم يذكره، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال؛ بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج، فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه. فذلك أفضل لدرجتهما، وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق.

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، وإلا فالعامل لا يحسد في العادة، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرًا، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك، وكذلك فيمن له اتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا.

ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين: مثلًا بهذا، ومثلًا بهذا فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: الآيتان ٧٥، ٧٦].

والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع، ولا على كلام ينفع، فإذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء، وآخر قد رزقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هل يستوي هذا المملوك العاجز عن الإحسان وهذا القادر على الإحسان المحسن إلى الناس سرًّا وجهرًا، وهو سبحانه قادر على الإحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائمًا، فكيف يشبه به العاجز المملوك

الذي لا يقدر على شيء حتى يشرك به معه، وهذا مثل الذي أعطاه الله مالًا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار.

والمثل الثاني إذا قدر شخصان أحدهما أبكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو مع هذا كل على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير، فليس فيه من نفع قط، بل هو كل على من يتولى أمره، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل، ويعمل بالعدل، فهو على صراط مستقيم. وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس.

وقد ضرب ذلك مثلًا لنفسه؛ فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم. كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عِمـرَان: الآيـة ١٨] وقـال هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: الآية ٥٦].

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس، كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس، فكانوا يعظمون على ذلك. ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال: هذا والله الشرف، أو نحو ذلك.

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالًا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال أبقيت لهم الله ورسوله فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا».

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة؛ لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه وهو أنه خال من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك موسى ﷺ في حديث المعراج: حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النبي ﷺ فقيل له: ما يُبكِيك؟ فقال: أبكي؛ لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» أخرجاه في الصحيحين.

ورُوِيَ في بعض الألفاظ المروية غير الصحيح: «مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته: أكرمته وفضلته، قال: فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد، قال: مرحبًا بالنبيّ الأُميّ الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران، قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك، قلت: ويرفع صوته على ربه؟ قال: إن الله عزّ وجلّ قد عرف صدقه».

وعمر رضي الله عنه كان مشبهًا بموسى، ونبينا حاله أفضل من حل موسى فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك.

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة، وإن كان ذلك مباحًا، ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأمة فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء ما أؤتمن عليه كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته؛ ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف أنه لا يزاحم على الكبرى، ويؤتمن على المال من يعرف أنه ليس له غرض في أخذ شيء منه، وإذا أؤتمن من في نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم، فلا يقدر أن يؤدي الأمانة في ذلك لما في نفسه من الطلب لما أؤتمن عليه.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه : قال: كنا يومًا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة»، قال: فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من وضوء قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال النبي ﷺ، مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مقالته، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله، فلما قام النبي ﷺ اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، قال: نعم! قال أنس رضي الله عنه فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئًا؛ غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عزَّ وجلّ وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر، فقال عبد الله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلم فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فاقتدي بذلك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق.

فقول عبد الله بن عمرو له هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد.

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] أي ما أوتي إخوانهم

المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي حسدً وغيظًا مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم من مال الفيء، وقيل من الفضل والتقدم، فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا.

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٦].

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩] يودون أي يتمنون ارتدادكم حسدًا، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق؛ لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل؛ بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم، وكذلك في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النّساء: الآيتان ٥٤، ٥٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفَلَق: الآيات ١ - ٥].

وقد ذكر طائفة من المفسرين: أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه: سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل.

ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالمًا معتديًا مستحقًا للعقوبة إلا أن يتوب، وكان المحسود مظلومًا مأمورًا بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩] وقد ابتلي يوسف بحسد إخوته له حيث قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: الآية ٨] فحسدوهما على تفضيل الأب لهما، ولهذا قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥].

ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقاه في الجب وبيعه. رقيقًا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكًا لقوم كفار، ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراود عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلومًا من جهة من أحبه لهواه وغرضه الفاسد.

فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها شفاؤها وشفاؤه إن وافقها، وأولئك المبغضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب ثم أسيرًا مملوكًا بغير اختياره، فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره، وهذه ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوسًا مسجونًا باختياره، فكانت هذه أعظم في محنته، وكان صبره هنا صبرًا اختياريًا اقترن به التقوى، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم. والصبر الثاني أفضل الصبرين؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

وهكذا إذا أُوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان، وإن لم يفعل أوذي وعوقب، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: أما الحبس وأما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أُوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًا، فإنه إنما يؤذي لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لمّا مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سرًا، إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد ألجاؤهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا مَن منعوه منهم من ذلك وحبسوه.

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب المساوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة ـ وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه ـ فإن هذا أصيب

وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠].

بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة؛ لكن المصيبة يكفر بها خطاياه، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها.

والذين يؤذون على الإيمان، وطاعة الله ورسوله، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم في ذلك على طريقة الأنبياء واتباعهم كالمهاجرين الأولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملًا فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري، وهي التي يقال لها متولدة.

وقد اختلف الناس هل يقال إنها فعل لفاعل السبب، أو الله أو لا فاعل لها، والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسباب ولهذا كتب له بها عمل صالح.

والمقصود إن «الحسد» مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من جسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبًا لك! ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدًا ولسانًا.

فمن وجد في نفسه حسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر. فيكره ذلك من نفسه، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك؛ لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضًا في مواضع، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود، وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب.

ومَن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه: كما جرى لزينب بنت جحش رضي الله عنهما فإنها كانت هي التي تسامي عائشة من أزواج النبي ﷺ وحسد

النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها.

وهكذا الحسد يقع كثيرًا بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك وفات الآخر؛ ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا؛ فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى ـ كحسد اليهود للمسلمين ـ وقتله على ذلك؛ ولهذا قيل أول ذنب عصى الله به ثلاثة: الحرص، والكبر، والحسد. فالحرص من آدم والكبر من إبليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل.

وفي الحديث: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد، والظن، والطيرة. وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغض، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض» رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة.

وفي السنن: عن النبي ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» فسماه داء، كما سمي البخل داء في قوله: «وأي داء أدوأ من البخل؟!» فعلم إن هذا مرض، وقد جاء في حديث آخر: «أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء، والأدواء» فعطف الأدواء على الأخلاق والأهواء.

فإن «الخلق» ما صار عادة للنفس، وسجية. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤] قال ابن عباس وابن عيينة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم: على دين عظيم، وفي لفظ عن ابن عباس: على دين الإسلام. وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. وكذلك قال الحسن البصري: أدب القرآن هو الخلق العظيم.

وأما «الهوى» فقد يكون عارضًا، والداء هو المرض، وهو تألم القلب والفساد فيه، وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء؛ لأن الحاسد يكره أولًا فضل الله على ذلك الغير؛ ثم ينتقل إلى بغضه؛ فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة وهو يحب زوالها، وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه وأحب عدمه، والحسد يوجب البغي، كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا: أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم، بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض، كما يبغي الحاسد على المحسود.

وفي الصحيحين: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل

لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضًا: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النّساء: الآيتان ٧٢، ٧٣].

فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم، إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم.

ففي الصحيحين: عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد. إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه».

والشّح مرض، والبخل مرض، والحسد شر من البخل كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار».

وذلك أن البخيل يمنع نفسه، والحسود يكره نعمة الله على عباده، وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه وحسد لنظرائه، وقد يكون فيه بخل فلا حسد لغيره والشح أصل ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩] وفي الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

وكان عبد الرحمٰن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول: اللهم قني شح نفسي، فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا! فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة. والحسد يوجب الظلم.

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وحبها لما يضرها، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب، وأما مرض الشهوة والعشق فهو حب النفس لما يضره، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها، والعشق مرض نفساني، وإذا قوي أثر في البدن فصار مرضًا في الجسم، إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا؛ ولهذا قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك.

والمقصود هنا «مرض القلب» فإنه أصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي ما يضره، وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم ذلك قوي به المرض وزاد.

كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعًا، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطي مشتهاه قوي مرضه، وكان سببًا لزيادة الألم.

وفي الحديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب» وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في «كتاب الزهد» «يقول الله تعالى: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة. وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفرًا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى». وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه. والناس في العشق على قولين:

قيل: إنه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور.

وقيل: من باب التصورات، وأنه فساد في التخييل، حيث يتصور المعشوق على ما هو به، قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق، ولا أنه يعشق؛ لأنه منزه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالًا فاسدًا.

وأما الأولون فمنهم من قال: يوصف بالعشق فإنه المحبة التامة، والله يحب ويحب، وروي في أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي يعشقني وأعشقه» وهذا قول بعض الصوفية.

والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله: لأن العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته.

قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقًا لا يمدح لا في محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود، وأيضًا فإن لفظ «العشق» إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأة أو صبي، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين، وهو مقرون كثيرًا بالفعل المحرم: إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي، يقترن به النظر المحرم، واللمس المحرم، وغير ذلك من الأفعال المحرمة.

وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل، ويترك ما يجب، كما هو الواقع كثيرًا، حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة؛ لمحبته الجديدة، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله، أو يسرف في الإنفاق عليها، أو يملكها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه، وهذا في عشق من يباح له وطؤها.

فكيف عشق الأجنبية والذكر من العالمين؟!! ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه. قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢].

ومَن في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض والطمع الذي يقوي الإرادة والطلب، ويقوي المرض بذلك بخلاف ما إذا كان آيسًا من المطلوب، فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلًا، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك.

فأما إذا ابتلي بالعشق وعف وصبر، فإنه يثاب على تقواه لله، وقد روي في الحديث: «أن من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيدًا» وهو معروف من رواية يحيىٰ القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا، وفيه نظر ولا يحتج بهذا.

لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظرًا وقولًا وعملًا، وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم، إما شكوى إلى المخلوق وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق، وصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس، وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

فالنفس إذا أحبت شيئًا سعت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحبّ محبة مذمومة أو أبغض بعضًا مذمومًا وفعل ذلك كان آثمًا، مثل أن يبغض شخصًا فحسده له فيؤذي من له به تعلق إما بمنع حقوقهم؛ أو بعدوان عليهم. أو لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله، وهذه أمراض كثيرة في النفوس، والإنسان قد يبغض شيئًا فيبغض لأجله أمورًا كثيرة بمجرد الوهم والخيال.

وكذلك يحب شيئًا فيحب لأجله أمورًا كثيرة؛ لأجل الوهم والخيال. كما قال شاعرهم:

أحبّ لحبّها السودان حتى أحبّ لحبّها سود الكلاب

فقد أحبّ سوداء؛ فأحب جنس السواد، حتى في الكلاب، وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته.

فنسأل الله تعالى أن يعافي قلوبنا من كل داء؛ ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه عنه اقرأوا إن شئتم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُوم: الآية ٣٠] أخرجه البخاري، ومسلم.

فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفًا بالله محبًا له عابدًا له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ كما يغير البدن بالجدع ـ ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرسل ﷺ بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها، وإذا كان القلب محبًا لله وحده مخلصًا له الدين لم يبتل بحب غيره أصلًا، فضلًا أن يبتلي بالعشق. وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده.

ولهذا لما كان يوسف محبًا لله مخلصًا له الدين لم يبتل بذلك، بل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤] وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها، فلهذا ابتليت بالعشق، وما يبتلي بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق.

أحدهما: إنابته إلى الله، ومحبته له، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

والثاني: خوفه من الله، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه، وكل من أحب شيئًا بعشق أو غير عشق، فإنه يصرف من محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته يخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق، ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف، بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفًا منه وترك المعصية حبًا له وخوفًا منه قوي حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيمانًا من العلم النافع والعمل الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا: «إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن» والآدب: المضيف، فهو ضيافة الله لعباده. . .[١].

مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي إدبار الصلوات ويضم إلى ذلك الاستغفار؛ فإنه مَن استغفر الله ثم تاب إليه متّعه متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى.

وليتخذ وردًا من «الأذكار» في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين، وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال.

---

(١) بياض بالأصل.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا، ولم ينل أحد شيئًا من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر.

والحمد لله رب العالمين.. وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة حمدًا يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وسلم تسليمًا كثيرًا.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضًا الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم:

فصل في مرض القلوب وشفائها

قد ذكرنا في غير موضع: إن صلاح حال الإنسان في العدل. كما أن فساده في الظلم. وإن الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل.

وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة.

وقد ذكر الله «مرض القلوب وشفاءها» في مواضع من كتابه وجاء ذلك في سنة رسوله ﷺ، كقوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: الآية ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: الآية ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: الآية ٤٤] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢]. وقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦٠]. وقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب: الآية ١٢].

وقال النبي ﷺ: «هلّا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال».

وقال الرشيد: الآن شفيتني يا مالك!.

وفي صحيح البخاري: عن ابن مسعود: إن أحدًا لا يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في تفسير شيء سأل رجلًا فشفاه. وأوشك أن لا يجده والذي لا إلـه إلا هو.

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها.

لكن المقصود معرفة مرض القلب فنقول: المرض نوعان: فساد الحس. وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية.

وكلٌ منهما يحصل بفقده ألم وعذاب، فكما إنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب؛ ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم الله به على عباده، مما يكون فيه لذة ونعيم، وقال: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: الآية ٨] أي عن شكره.

فسبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك؛ وإنما هو نتيجته وثمرته ومقصوده وغايته، فالمرض فيه ألم لا بد منه وإن كان قد يسكن أحيانًا لمعارض راجح، فالمقتضي له قائم يهيج بأدنى سبب، فلا بد في المرض من وجود سبب الألم، وإنما يزول الألم بوجود المعارض الراجح.

ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيتين وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر.

فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه، فتارة يكون من جملة الشبهات. كما قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢] وكما صنف الخرائطي «كتاب اعتلال القلوب بالأهواء» ففي قلوب المنافقين: المرض من هذا الوجه، ومن هذا الوجه: من جهة فساد الاعتقادات، وفساد الإرادات.

والمظلوم في قلبه مرض وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له، فإذا استوفى حقه اشتفى قلبه. كما قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] فإن غيظ القلب إنما هو لدفع الأذى والألم عنه، فإذا اندفع عنه الأذى واستوفى حقه زال غيظه.

فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه ولا ينطق بلسانه كان ذلك مرضًا مؤلمًا له يفوته من المصالح ويحصل له من المضار فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل، ولم يميز بين الخير والشر، والغي الرشاد كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه؛ وكما أنه إذا اشتهى ما يضره مثل الطعام الكثير في الشهوة الكلية، ومثل أكل الطين ونحوه كان ذلك مرضًا؛ فإنه يتألم حتى يزول ألمه بهذا الأكل الذي يوجد ألمًا أكثر من الأول؛ فهو يتألم إن أكل؛ ويتألم إن لم يأكل.

فكذلك إذا بلي بحب من لا ينفعه العشق ونحوه سواء كان لصورة أو لرئاسة أو لمال ونحو ذلك فإن لم يحصل محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم؛ وإن حصل محبوبه فهو أشد مرضًا وألمًا وسقمًا؛ ولذلك كما أن المريض إذا كان يبغض ما يحتاج إليه من الطعام والشراب كان ذلك الألم حاصلًا؛ وكان دوامه على ذلك يوجب من الألم أكثر من ذلك حتى يقتله؛ حتى يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج إليه؛ فهو متألم في الحال؛ وتألمه فيما بعد إن لم يعافه الله أعظم وأكبر.

فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود كبغض المريض لا كل الأصحاء لأطعمتهم وأشربتهم حتى لا يقدر أن يراهم يأكلون؛ ونفرته عن أن يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعام وشراب فالحب والبغض الخارج عن الاعتدال والصحة في النفس كالشهوة والنفرة الخارج عن الاعتدال والصحة في الجسم، وعمى القلب وبكمه أن يبصر الحقائق ويميز ما ينفعه ويضره، كعمى الجسم وخرسه عن أن يبصر الأمور المرتبة، ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره.

وكما أن الضرير إذا أبصر وجد أن الراحة والعافية والسرور أمرًا عظيمًا فبصر القلب، ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله، وأما الغرض هنا تشبيه أحد المرضين بالآخر. فطب الأديان يحتذي حذو طب الأبدان.

وقد كتب سليمان إلى أبي الدرداء. أما بعد: فقد بلغني إنك قعدت طبيبًا فإياك أن تقتل، والله أنزل كتابه شفاء لما في الصدور. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٢] ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم.

فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال: أما شهوة ما لا يحصل أو يفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر، ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القَصَص: الآية ٥٠]. وقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩].

كما يكون الجسد خارجًا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له، وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة، ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره، أو يعجل الهلاك.

فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم: يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له، فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات، إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم.

و«التقوى» هي الاحتماء عمّا يضرّه بفعل ما ينفعه؛ فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضًا استعمالًا لضار، فلا يكون صاحبه من المتقين.

وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون، فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيًا بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى، وللمتقين؛ لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة، وإن وجدوا ألمًا في الابتداء لتناول الدواء والاحتماء، كفعل الأعمال الصالحة المكروهة. كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٦].

ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان ٤٠، ٤١]. وكما قال: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٧] فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو أصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سرًا؛ فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض، فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات.

وقد قدمنا في قاعدة كبيرة: أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء، وبينا أن هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره، وكما أن الواجب لاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها ـ بأن [عرض] له المرض ـ دوامًا، والصحة تحفظ بالمثل، والمرض يزول بالضد، فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها، أو هو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق.

ولهذا قال يحيىٰ بن عمار: العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدنيا. وهو علم التوحيد. وعلم هو غذاء الدين؛ وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث. وعلم هو دواء الدين؛ وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها، كما قال ابن

مسعود. وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث وعلم هو هلاك الدين؛ وهو علم السحر ونحوه.

فحفظ الصحة بالمثل، وإزالة المرض بالضد، في مرض الجسم الطبيعي، ومرض القلب النفساني الديني الشرعي. قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: الآية ٣٠] أخرجها في الصحيحين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: الآيات ٢٦ ـ ٣٠].

فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة. ـ وهي صحة الخلقة ـ من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علمًا وعملًا؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة، وهي مأدبة الله كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود: «إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وأن مأدبة الله هي القرآن» ومثله كماء أنزله الله من السماء، كما جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة. والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون القلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور.

وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة. كما قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه» وذلك تحقيق لقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣].

ومن لم يطهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤوب صحيحًا، وإلا احتاج أن يطهر منها في الآخرة فيعذبه الله، كالذي اجتمعت فيه أخلاطه، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه به، ولهذا جاء في الأثر: «إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!».

وقال النبي ﷺ: «المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها».

وكما أن أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيدًا، كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب، وكذلك الميت بغرق أو حرق أو هدم؛ فمن أمراض النفس، ما إذا أتى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيدًا، كالجبان الذي يتقي الله ويصبر للقتال حتى يقتل؛ فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم، وإن عصاه تألم كأمراض الجسم.

وكذلك العشق فقد روي: «من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات مات شهيدًا» فإنه مرض في النفس يدعو إلى ما يضر النفس كما يدعو المريض إلى تناول ما يضر، فإن أطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا أيضًا، وإن عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها فإذا مات من ذلك المرض كان شهيدًا، هذا يدعوه إلى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها.

فهذه الأمراض إذا كان معها إيمان وتقوى كانت كما قال النبي ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له».

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وسلم تسليمًا..

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه: ـ عن قول النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته» ما معنى هذه الدعوة؟ ولم كانت كاشفة للكرب؟ وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها؟ وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها. حتى يوجب كشف ضره؟ وما مناسبة ذكره: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع أن التوحيد. يوجب كشف الضر؟ وهل يكفيه اعترافه. أم لا بد من التوبة والعزم في المستقبل؟ وما هو السر في أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم؟ وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه إليه بالكلية، وما السبب المعين على ذلك؟؟.

فأجاب الحمد لله رب العالمين: لفظ «الدعاء» و«الدعوة» في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [الشعراء: الآية ٢١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: الآية ٨٨] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: الآية ١٩] وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النّساء: الآية ١١٧] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: الآية ٦٨] وقال في آخر السورة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٧].

قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل لولا دعاؤه إياكم. فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول تارة، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى؛ لأنه لا بد له من فاعل، فلهذا كان هذا أقوى القولين؟ أي ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٧] أي عذاب لازم للمكذبين.

ولفظ «الصلاة في اللغة» أصله الدعاء، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء، وهو العبادة والمسألة.

وقد فسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] بالوجهين. قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري استجب لكم. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشّورى: الآية ٢٦] أي يستجيب لهم، وهو معروف في اللغة، يقال: استجابه واستجاب له كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا مَن يُجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مُجيب

وقيل: سلوني أعطكم.

وفي الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له. من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» فذكر أولًا لفظ الدعاء، ثم ذكر السؤال والاستغفار. والمستغفر سائل كما أن السائل داع؛ لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير، وذكرهما جميعًا بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

وكل سائل راغب راهب، فهو عابد للمسؤول، وكل عابد له فهو أيضًا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل عابد سائل وكل سائل عابد. فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما: فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب

المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب. ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن في ذلك صيغ سؤال.

والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضًا راج خائف راغب راهب: يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: الآية ٩٠] وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦]. ولا يتصور أن يخلو داع لله ـ دعاء عبادة أو دعاء مسألة ـ من الرغب والرهب من الخوف والطمع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة، فهذا قد يفسر مراده بأن المقربين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه، وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم.

ومن قال من هؤلاء: لم أعبدك شوقًا إلى جنتك ولا خوفًا من نارك، فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة، بل كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار. ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته «قال: إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال: حولها ندندن».

وقد أنكر على من قال هذا الكلام يعني أسألك لذة النظر إلى وجهك فريق من أهل الكلام، ظنوا أن الله لا يتلذذ بالنظر إليه، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق. فغلط هؤلاء في معنى الجنة كما غلط أولئك، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يطلب، وهؤلاء أنكروا ذلك.

وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري، ومن قال: لو أدخلني النار لكنت راضيًا، فهو عزم منه على الرضا. والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق. ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون الذي قال:

وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت فامتحني

فابتلي بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. قال: تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٣].

وبعض مَن تكلم في علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناءً على مشاهدة القدر. وأن مَن شهد القدر[١] فشهد توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن وبقي من لم يزل، يخرج عن هذه الأمور، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعًا.

أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور أن لا يكون حساسًا محبًا لا يلائمه مبغضًا لما ينافره، ومن قال إن الحي يستوي عنده جميع المقدورات فهو أحد رجلين: إما أنه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل، وإما أنه مكابر معاند ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله ـ سواء سمي اصطلامًا أو محو أو فناء أو غشيًا أو ضعفًا ـ فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها.

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقًا فإنه غالط، بل لا بد من الفرق فإنه أمر ضروري.

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبعي، فيبقى متبعًا لهواء لا مطيعًا لمولاه.

ولهذا لما وقعت «هذه المسألة» بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم «الفرق الثاني» وهو: أن يفرق بين المأمور والمحظور، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع، فيشهد الفرق في القدر الجامع. ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الإسلام.

وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية وإن خرجوا عنه كانوا كفارًا من شرّ الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد، بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة، ويعصون الله ورسوله تارة، كالعصاة من أهل القبلة. وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن لفظ «الدعوة، والدعاء» يتناول هذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠].

وفي الحديث: «أفضل الذكر لا إلـه إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا.

---

(١) هكذا في نسختين، وفي نسخة «وأما مَن نظر إلى القدر...».

وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «دعوة أخي ذي النون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته».

سماها «دعوة» لأنها تتضمن نوعي الدعاء. فقوله لا إلـه إلا أنت اعتراف بتوحيد الآلهية. وتوحيد الآلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإلـه هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهو الله لا إلـه إلا هو.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر، إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين. كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: الآية ٤٧] فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر.

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القَصَص: الآية ٢٤] فإن هذا وصل لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه.

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» رواه الترمذي وقال: حديث حسن. ورواه مالك بن الحويرث وقال: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وأظن البيهقي رواه مرفوعًا بهذا اللفظ.

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله: «أفضل الدعاء يوم عرفة لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك أن شيمتك الحباء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

قال: فهذا مخلوق يخاطب مخلوقًا فكيف بالخالق تعالى.

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام: «اللّهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان» فهذا خبر يتضمن السؤال.

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٣] فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره وهي صيغة خبر تضمنت السؤال. وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء، فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه: أنا جائع، أنا مريض، حسن أدب في السؤال. وإن كان في قوله أطعمني وداوني ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب طلب جازم من المسؤول، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب.

وهذه الصيغة «صيغة الطلب والاستدعاء» إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك، فإنها تقال على وجه الأمر: إما لما في ذلك من حاجة الطالب، وإما لما فيه من نفع المطلوب، فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغنى من كل وجه فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار وإظهار الحال.

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان.

وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني؛ لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول، وتصريح به باللفظ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضي للسؤال والإجابة ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال، فيتضمن السؤال والمقتضي له والإجابة كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه «لما قال: له علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «قل: اللّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». أخرجاه في الصحيحين.

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب.

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك. كقول موسى عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٥] فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضي الإجابة. وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القَصَص: الآية ١٦] فيه وصف حال النفس والطلب. وقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص: الآية ٢٤] فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال، فهذه أنواع لكل نوع منها خاصة.

يبقى أن يقال فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟.

فيقال: لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشركان بذنبي، فأصل الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره إنه مسيء ظالم، وهو الذي أدخل الضر على نفسه، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني؛ بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول، إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضرر، فهذا مقدم في قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده.

وهذا يتبين بالكلام على قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي. قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: الآية ١٠١] وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا۟ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٦] وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في مسلم في دعاء الاستفتاح: «اللّهم أنت الملك لا إلـه إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وفي صحيح البخاري: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات من ليلته دخل الجنة».

فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه فإنه لا يظلم الناس شيئًا فلا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، وهو يحسن إليهم فكل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل.

فقوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فيه إثبات انفراده بالإلـهية، والإلـهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد فإن «الإلـه»

هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، الخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص؛ فإن التسبيح وإن كان يقال؛ يتضمن نفي النقائص، وقد روي في حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي ﷺ في قول العبد: سبحان الله: «إنها براءة الله من السوء» فالنفي لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوتًا وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى.

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله. كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] فنفي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: الآية ٣٨] يتضمن كمال قدرته، ونحو ذلك. فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء، ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه. ففي قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] تبرئته من الظلم، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله، والله غني عن كل شيء، عليم بكل شيء، وهو غني بنفسه، وكل ما سواه فقير إليه، وهذا كمال العظمة.

وأيضًا ففي هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] تهليل. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تسبيح. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع. وهن من القرآن. سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر».

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له، وفي الصحيح عن النبي ﷺ إنه سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده».

وفي الصحيحين: عن النبي ﷺ إنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمـٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» وفي القرآن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحِجر: الآية ٩٨] وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد، والأخرى بالتعظيم، فإنا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون

على المحاسن. وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام، إذ ليس كل معظم محبوبًا محمودًا، ولا كل محبوب محمودًا معظمًا، وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه. ففيها إجلاله وإكرامه. وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام.

ومن الناس من يحسب أن «الجلال» هو الصفات السلبية و«الإكرام» الصفات الثبوتية، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية، وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص، لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم: كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمَان: الآية ٢٦] وقول سليمان عليه السلام: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النّمل: الآية ٤٠] وكذلك قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التّغَابُن: الآية ١] فإن كثيرًا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودًا بل مذمومًا، إذ الحمد يتضمن الأخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة، فيتضمن أخبارًا بمحاسن المحبوب محبة له.

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك. فالأول يهاب ويخاف ولا يحب. وهذا يحب ويحمد، ولا يهاب ولا يخاف. والكمال اجتماع الوصفين. كما ورد في الأثر «أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة» وفي نعت النبي ﷺ: «كان من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه».

فقرن التسبيح بالتحميد، وقرن التهليل بالتكبير؛ كما في كلمات الأذان. ثم إن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا أفرد؛ فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم؛ ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلـٰهية فإن الإلـٰهية تتضمن كونه محبوبًا؛ بل تتضمن إنه لا يستحق كمال الحب إلا هو. والحمد هو الأخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب فالإلـٰهية تتضمن كمال الحمد؛ ولهذا كان «الحمد لله» مفتاح الخطاب؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم «وسبحان الله» فيها إثبات عظمته كما قدمناه؛ ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٧٤] وقد قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» رواه أهل السنن. وقال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم» رواه مسلم. فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم.

ففي قوله «سبحان الله وبحمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلـٰهيته وحمده. وأما قوله «لا إلـٰه إلا الله والله أكبر» ففي لا إلـٰه إلا الله [إثبات] محامده فإنها كلها داخلة في إثبات

إلـهيته وفي قوله: «الله أكبر» إثبات عظمته فإن الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء أكمل.

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: «الله أكبر» فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري. فمن نازعني واحدًا منهما عذبته» فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أن الرداء أشرف، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه، وتضمن ذلك التعظيم، وفي قوله: سبحان الله، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم، فصار كل من الكلمتين متضمنًا معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها.

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر؛ فإنه يدل على الذات، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر، لكن هذا باللزوم، وأما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة، ودلالتها على أحدهما بالتضمن.

فقول الداعي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتي هن أفضل الكلام بعد القرآن. وهذه الكلمات تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرىء نفسه عن هذا الوصف لا سيما في مقام مناجاته لربه. وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وقال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب، فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام، بل يقولون: كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ.

فصل

وأما قول السائل: لم كانت موجبة لكشف الضر؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله. كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: الآية ١٠٧] والذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفَال: الآية ٣٣] فأخبر أنه سبحانه لا يعذب مستغفرًا. وفي الحديث: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا

يحتسب» وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

فقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] اعتراف بالذنب وهو استغفار، فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة.

وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] وتحقيق لتوحيد الإلـٰهية، فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والمعوق له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجًا عن قدرة العبد فهو من الله، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببًا للنجاة، والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه: فإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه.

وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ: إنه دخل على مريض فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال: «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف».

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له، من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣] فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: الآية ٣١].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين، ويرجوهم، فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥١] والخالص من الشرك يحصل له إلا من كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعَام: الآية ٨٢] وقد فسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك.

ففي الصحيح عن ابن مسعود: إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ: وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «إنما هذا الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمَان: الآية ١٣]».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٦٥ - ١٦٧] وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسرَاء: الآيتان ٥٦، ٥٧] ولهذا يذكر الله الأسباب، ويأمر بأن لا يعتمد عليها، ولا يرجى إلا الله، قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٦] وقال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٠].

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

وكلاهما لا يصلح إلا لله فمن جعل مع الله إلـٰهًا آخر قعد مذمومًا مخذولًا، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله، ولا يسأل غيره؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك». فالمشرف الذي يستشرف بقلبه، والسائل الذي يسأل بلسانه.

وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: أصابتنا فاقة فجئت رسول الله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول: «أيها الناس والله! مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم، وإنه من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر».

و«الاستغناء» أن لا يرجو بقلبه أحدًا فيستشرف إليه. و«الاستعفاف» أن لا يسأل بلسانه أحدًا؛ ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال: قطع الاستشراف إلى الخلق؛ أي لا يكون في قلبك أن أحدًا يأتيك بشيء فقيل له: فما الحجة في ذلك؟ فقال: قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة؟ فقال: «أما إليك فلا».

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله؛ فلهذا قال المكروب: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]. ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: عند الكرب: «لا إلٰه إلا الله العظيم الحليم، لا إلٰه إلا الله رب العرش العظيم، لا إلٰه إلا الله رب السمٰوات ورب الأرض رب العرش الكريم» فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد، وتأله العبد ربه، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب.

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: لا إلٰه إلا الله، فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفُرقان: الآيتان ٤٣، ٤٤] فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ إلٰهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله، ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦].

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعًا له كالشمس والقمر والكواكب، والخليل بين أن الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره، فأي وجه لعبادة من يأفل؟!.

وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إلٰه إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] فعلل صرب السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: الآيـة ٤٢] وقـال الـشـيـطـان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صَ: الآيتان ٨٢، ٨٣] وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إلٰه إلا الله مخلصًا من قلبه حرمه الله على النار».

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمن دخل النار من القائلين لا إلٰه إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار؛ بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما

أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]. والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله. إما خوفًا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك. وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا».

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هوى من الله له نصيب ممن اتخذ إلـهه هواه، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر؛ فلهذا قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧].

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع. كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: الآية ١٩] وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هُود: الآيتان ٢، ٣] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هُود: الآيات ٥٠ ـ ٥٢] وقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فُصّلَت: الآية ٦].

وخاتمة المجلس: «سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» إن كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلس لغو كانت كفارةً له، وقد روي أيضًا إنها تقال في آخر الوضوء بعد أن يقال: «أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللَّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار؛ فإن صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعه؛ فإن جميع الدين داخل في «الشهادتين» إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله، وأن نطيع رسوله و«الدين» كله داخل في هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله، وكل ما يجب أو يستحب داخل في طاعة الله ورسوله.

وقد رُوِيَ أنه يقول: «سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» وهذا كفارة المجلس، فقد شرع في آخر المجلس وفي آخر الوضوء، وكذلك كان النبي ﷺ يختم الصلاة كما في الحديث الصحيح إنه كان يقول في آخر

صلاته: «اللّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إلـٰه إلا أنت» وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد؛ لأن الدعاء مأمور به في آخر الصلاة، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فإن تقديم التوحيد أفضل.

فإن جنس الدعاء الذي هو ثناء وعبادة أفضل من جنس الدعاء الذي هو سؤال وطلب، وإن كان المفضول قد يفضل على الفاضل في موضعه الخاص، بسبب وبأشياء أخر، كما إن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر الذي هو ثناء، والذكر أفضل من الدعاء الذي هو سؤال، ومع هذا فالمفضول له أمكنة وأزمنة وأحوال يكون فيها أفضل من الفاضل، لكن أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد، وإخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا إلـٰه إلا الله.

فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلًا لا نقدر أن نضبطه، حتى أن كثيرًا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربه، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب، وبين توحيد الإلـٰهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي.

فإن المشركين ما كانوا يقولون: إن العالم خلقه اثنان، ولا أن مع الله ربًّا ينفرد دونه بخلق شيء؛ بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: الآية ٢٥؛ الزمر: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٦] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٨٤ - ٨٩].

وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى، يجعلونهم شفعاء لهم إليه. ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: الآية ٣]. و﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥].

والإشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] فمن أحب مخلوقًا كما يحب الخالق فهو مشرك به، قد اتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله. وإن كان مقرًّا بإن الله خالقه.

ولهذا فرّق الله ورسوله بين مَن أحبّ مخلوقًا لله، وبين من أحب مخلوقًا مع الله، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته يحب معه غيره؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك، فكان حبه لما يحبه تابعًا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلًا فيه.

بخلاف من أحب مع الله فجعله ندًا لله يرجوه ويخافه، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله، ويتخذه شفيعًا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: الآية ١٨] وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآية ٣١] وقد قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ: «ما عبدوهم، قال: احلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم» قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ٢١] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: الآيات ٢٧ - ٢٩].

فالرسول وجبت طاعته؛ لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: الآية ٥٩].

فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ بل جعل طاعة أولي الأمور داخلة في طاعة الرسول؛ وطاعة الرسول طاعة لله، وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله: فليس لأحد إذًا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا، بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله، فليس كل من أطاعهم مطيعًا لله، بل لا بد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله، وينظر هل أمر الله به أم لا، سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء، ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك، وبهذا يكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩].

وقال النبي ﷺ: لما قيل له: يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ثم إن كثيرًا من الناس يحب خليفة أو عالمًا أو شيخًا أو أميرًا فيجعله ندًا لله، وإن كان قد يقول: إنه يحبه لله.

فمَن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندًا، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، ويدعوه ويستغيث به، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه، ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥].

فالتوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب، ويكون في أعماله القلب ولهذا قال الجنيد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله، وإذا أفرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله، والتوكل من تمام التوحيد.

وهذا كلفظ «الإيمان» فإنه إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة، وقيل الإيمان قول وعمل، أي قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الإيمان بضع وستون شعبةً، أعلاها قول لا إلـه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآيات ٢ - ٤] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: الآية ٦٢].

و«الإيمان المطلق» يدخل فيه الإسلام كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم» ولهذا قال من قال من السلف: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا.

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَيِّنَة: الآية ٧] وهو في القرآن كثير، وكما في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال: «الإسلام: أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. قال: فما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ففرق في هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرن بين الاسمين وفي ذلك النص أدخل الإسلام في الإيمان لما أفرد بالذكر.

وكذلك لفظ «العمل» فإن الإسلام المذكور هو من العمل والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة، وإيمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمدًا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه.

و«الإيمان» وإن تضمن التصديق فليس هو مرادفًا له، فلا يقال لكل مصدق بشيء: أنه مؤمن به. فلو قال: أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا، ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا: إنه مؤمن بذلك؛ بل لا يستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] فإنهم أخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالأول: يقال للمخبر، والثاني: يقال للمخبر به كما قال إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] وقال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يُونس: الآية ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبَة: الآية ٦١] ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين؛ لأن المراد يصدق المؤمنين إذا أخبروه وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به.

ومنه قوله تعالى عن فرعون وزملائه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧] أي نقر لهما ونصدقهما. ومنه قوله: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٥] ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٦] ومن المعنى الآخر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] وقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة:

الآية ٢٨٥] وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] أي أقر بذلك ومثل هذا في القرآن كثير.

والمقصود هنا: إن لفظ «الإيمان» إنما يستعمل في بعض الأخبار، وهو مأخوذ من الأمن، كما أن الإقرار مأخوذ من قر، فالمؤمن صاحب أمن، كما أن المقر صاحب إقرار، فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به.

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذب خبرًا ولا مخبرًا بل استكبر عن أمر ربه. وفرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: الآية ١٤] وقال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسرَاء: الآية ١٠٢] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٦].

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وقد كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع».

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان، وإن من دل الشرع على إنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه، وهذا من أعظم الجهل شرعًا وعقلًا. وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر؛ ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك، فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالمًا بالحق ويبغضه لغرض آخر، فليس كل من كان مستكبرًا عن الحق يكون غير عالم به، وحينئذٍ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله، وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل.

ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارًا تامًا بأن محمدًا رسول الله وأحبه محبة تامة امتنع مع ذلك أن لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزًا لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادرًا على النطق بهما.

و«أبو طالب» وإن كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة، فأصل محبوبه هو الرئاسة؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما ـ فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: الآيات ١٧ - ٢١] وكما كان يحبه سائر المؤمنين به، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعًا ـ فكان حبه حبًّا مع الله لا حبًّا لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى.

وهذا مما يحقّق أن «الإيمان، والتوحيد» لا بد فيهما من علم القلب، كحب القلب، فلا بد من إخلاص الدين لله، والدين لا يكون دينًا إلا بعمل؛ فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة؛ وقد أنزل الله عزَّ وجلّ سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافِرون: الآية ١] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: الآية ١] إحداهما: في توحيد القول والعلم. والثانية: في توحيد العمل والإرادة؛ فقال في الأول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: الآيات ١ - ٤] فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال في الثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافِرون: الآيات ١ - ٦] فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله.

و«العبادة» أصلها القصد والإرادة. والعبادة إذا أفردت دخل فيها التوكل ونحوه، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيمًا لها، كما ذكرناه في لفظ الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٥٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١] فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات؛ والتوكل من ذلك، وقد قال في موضع آخر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ١٢٣].

ومثل هذا كثيرًا ما يجيء في القرآن: تتنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الإفراد والاقتران؛ كلفظ «المعروف والمنكر» فإنه قد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١] وقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] فالمنكر يدخل فيه ما كرهه الله؛ كما يدخل في المعروف ما يحبه الله.

وقد قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥] فعطف المنكر على الفحشاء، ودخل في المنكر هنا البغي. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: الآية ٩٠] فقرن بالمنكر الفحشاء والبغي.

ومن هذا الباب لفظ «الفقراء، والمساكين» إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرق؛ لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عموم وخصوص، فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في توحيد الله تعالى، قال تعالى في المحبة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: الآية ٥٢] فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٥٩] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده.

وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: إن قول القائل: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فيه أفراد الإلـٰهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولًا وعملًا، فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى، فلا يخصونه بالإلـٰهية. وتخصيصه بالإلـٰهية يوجب أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يسأل غيره، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٥] فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه، لكن في أمور لا يحبها الله؛ بل يكرهها وينهي عنها، فهذا وإن كان مخلصًا له في سؤاله والتوكل عليه، لكن ليس هو مخلصًا في عبادته وطاعته، وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فإنهم يعانون على هذه الأمور.

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: الآية ١٢].

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به. فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم، وعلى طاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه؛ ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة، وبالإعجاب أخرى، فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه، وربَّما حصل له جزع، فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٥ ـ ٢٧].

وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق؛ والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] فمن حقّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب، وفي الحديث المعروف: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وشرٌّ من هؤلاء وهؤلاء مَن لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين.

ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كأصحاب الأحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها إشراك بالله. كما قد بسط الكلام عليهم في مواضع أخر. وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن إنه من كرامات الأولياء. وإنما هو من أحوال السحرة والكهان؛ ولهذا يجب الفرق بين الأحوال الإيمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية.

وأما القسم الرابع: فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا إلا إياه ولم يتوكلوا إلا عليه.

وقول المكروب: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] قد يستحضر في ذلك أحد النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد في النوعين، فإن المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه، فقد يقول: «لا إلـٰه إلا الله» مستشعرًا أنه لا يكشف الضر غيرك، ولا يأتي بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية، ومستحضر توحيد السؤال والطلب، والتوكل عليه، معرض عن توحيد الإلـٰهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد إلا إياه ولا يعبده إلا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ كان عابدًا لله متوكلًا عليه وكان ممتثلًا قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨؛ الشورى: الآية ١٠] وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المُزمّل: الآيتان ٨، ٩].

ثم إن كان مطلوبه محرمًا أثم وإن قضيت حاجته. وإن كان طالبًا مباحًا لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته لم يكن آثمًا ولا مثابًا. وإن كان طالبًا ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابًا مأجورًا.

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه، وبين النبي الملك، فإن نبينا محمدًا ﷺ خير بين أن يكون نبيًا ملكًا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا؛ فإن العبد الرسول هو الذي لا يفعل إلا ما أمر به، ففعله كله عبادة لله، فهو عبد محض منفذ أمر مرسله، كما ثبت عنه في صحيح البخاري أنه قال: «إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت» وهو لم يرد بقوله «لا أعطي أحدًا ولا أمنع» إفراد الله بذلك قدرًا وكونًا، فإن جميع المخلوقين يشاركونه في هذا فلا يعطي أحدًا ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره؛ وإنما أراد إفراد الله بذلك شرعًا ودينًا. أي لا أعطي إلا من أمرت بإعطائه، ولا أمتنع إلا من أمرت بمنعه، فأنا مطيع لله في إعطائي ومنعي فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم المواريث بين أهلها؛ لأن الله أمره بهذه القسمة.

ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله، ليس المراد به إنه ملك للرسول، كما ظنه طائفة من الفقهاء، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خلقًا وقدرًا؛ فإن جميع الأموال بهذه المثابة. وهذا كقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] الآية وقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الحَشر: الآيتان ٦، ٧]. الآية. فذكر في الفيء ما ذكر في الخمس.

فظن طائفة من الفقهاء أن الإضافة إلى الرسول تقتضي إنه يملكه، كما يملك الناس أملاكهم. ثم قال بعضهم: إن غنائم بدر كانت ملكًا للرسول. وقال بعضهم: إن الفيء وأربعة أخماسه كان ملكًا للرسول. وقال بعضهم: إن الرسول إنما كان يستحق من الخمس خمسه. وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحق من خمس الفيء خمسه، وهذه الأقوال توجد في كلام طوائف من أصحاب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم، وهذا غلط من وجوه:

منها: أن الرسول لم يكن يملك هذه الأموال كما يملك الناس أموالهم، ولا كما يتصرف الملوك في ملكهم، فإن هؤلاء وهؤلاء لهم أن يصرفوا أموالهم في المباحات، فإما أن يكون مالكًا له فيصرفه في أغراضه الخاصة، وإما أن يكون ملكًا له فيصرفه في مصلحة ملكه، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان. قال تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صَ: الآية ٣٩] أي اعط من شئت وأحرم من شئت لا حساب عليك، ونبينا كان عبدًا رسولًا لا يعطي إلا من أمر بإعطائه، ولا يمنع إلا من أمر بمنعه، فلم يكن يصرف الأموال إلا في عبادة الله وطاعة له.

ومنها: أن النبي لا يورث ولو كان ملكًا، فإن الأنبياء لا يورثون فإذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكًا كما يملك الناس أموالهم، فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبد رسول مالكًا.

ومنها: أن النبي ﷺ كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة، ويصرف سائر المال في طاعة الله لا يستفضله، وليست هذه حال الملاك، بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله، بمعنى إن الله أمر رسوله أن يصرف ذلك المال في طاعته، فتجب طاعته في قسمه، كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وهو في ذلك مبلغ من الله.

والأموال التي كان يقسمها النبي ﷺ على وجهين:

منها: ما تعين مستحقه ومصرفه كالمواريث.

ومنها: ما يحتاج إلى اجتهاده ونظره ورأيه، فإن ما أمر الله به منه ما هو محدود بالشرع: كالصلوات الخمس، وطواف الأسبوع بالبيت، ومنه ما يرجع في قدره إلى اجتهاد المأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يحبها الله.

فمن هذا ما اتفق عليه الناس، ومنه ما تنازعوا فيه: كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات: هل هي مقدرة بالشرعة؟ أم يرجع فيها إلى العرف، فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف أحوال الناس؟. وجمهور الفقهاء على القول الثاني، وهو

الصواب لقوله النبي ﷺ لهند: «خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف» وقال أيضًا: في خطبته المعروفة «للنساء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف».

وكذلك تنازعوا أيضًا فيما يجب من الكفارات: هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف؟

فما أضيف إلى الله والرسل من الأموال كان المرجع في قسمته إلى أمر النبي ﷺ؛ بخلاف ما سمي مستحقوه كالمواريث، ولهذا قال النبي ﷺ عام حنين: «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» أي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس، ولهذا قال: «وهو مردود عليكم» بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الوقعة.

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين، والخمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا رسول الله ﷺ في أمته فيقسمونها بأمرهم، فأما أربعة الأخماس فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتي المستفتي، وكما كانوا في الحدود لمعرفة الأمر الشرعي، والنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم؛ فقيل: إن ذلك كان من الخمس؛ وقيل: إنه كان من أصل الغنيمة، وعلى هذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك؛ ولهذا أجاب من عتب من الأنصار بما أزال عتبه وأراد تعويضهم عن ذلك.

ومن الناس مَن يقول الغنيمة قبل القسمة لم يملكها الغانمون؛ وإن للإمام أن يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور في غير هذا الموضع.

فإن المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] توحيد الإلـٰهية وتوحيد الربوبية؛ وإن كانت الإلـٰهية تتضمن الربوبية: والربوبية تستلزم الإلـٰهية؛ فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: الآيات ١ - ٣] وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] فجمع بين الاسمين: اسم الإلـٰه واسم الرب. فإن «الإلـٰه» هو المعبود الذي يستحق أن يعبد. و«الرجب» هو الذي يرب عبده فيدبره.

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله، والسؤال متعلقًا باسمه الرب؛ فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق. والإلـٰهية هي الغاية؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم؛ والمصلي إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية؛ فالعبادة

غاية مقصودة؛ والاستعانة وسيلة إليها: تلك حكمة وهذا سبب؛ والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف؛ ولهذا يقال: أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك. فالعلة الغائية متقدمة في التصور والإرادة وهي متأخرة في الوجود. فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

ولمّا كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان الله أكبر، الله أكبر. ومثل الشهادتين: أشهد أن لا إلـه إلا الله، [أشهد أن محمدًا رسول الله] ومثل التشهد: التحيات لله، ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر.

وأما السؤال فكثيرًا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: الآية ٤٧] وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: الآية ١٦] وقول الخليل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] الآية وقوله مع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٧] وكذلك قول الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١] ومثل هذا كثير.

وقد نقل عن مالك أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه: يا سيدي! يا سيدي! يا حنان! يا حنان! ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء؛ ربنا! ربنا! نقله عنه العتبي في «العتبية».

وقال تعالى: عن أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: الآية ١٩١] الآيات.

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب. وإن سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنًا، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك. إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب، ولهذا قال يونس: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] فإن يونس عليه السلام ذهب مغاضبًا، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: الآية ٤٨] وقال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾ [الصافات: الآية ١٤٢] ففعل

ما يلام عليه فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه، والاعتراف بأنه لا إلـٰه إلا هو فهو الذي يستحق أن يعبد دون غيره فلا يطاع الهوى، فإن اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده، وقد روي أن يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلهم وخاف أن ينسبوه إلى الكذب فغاضب. وفعل ما اقتضى الكلام الذي ذكره الله تعالى وأن يقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الإلـٰهية، سواء صدر ذلك [عن] هوى النفس أو طاعة الخلق أو غير ذلك. ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧].

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق، وفيما يريده وهو غير حسن.

وأما آدم عليه السلام فإنه اعترف أولًا بذنبه فقال: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به، مما يزاحم الإلـٰهية بل ظن صدق الشيطان الذي: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: الآيتان ٢١، ٢٢] فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا في قبول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسبًا لقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] لما حصل من التفريط، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلـٰهية وكانا محتاجين إلى أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما. حتى لا يغترا بمثل ذلك، فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره.

وذو النون شهد ما حصل من التقصير في حق الإلـٰهية بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له وأن يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فإن قول العبد: لا إلـٰه إلا أنت، يمحو أن يتخذ إلـٰهه هواه. وقد روي «ما تحت أديم السماء إلـٰه يعبد أعظم عند الله من هوى متبع» فكمل يونس صلوات الله عليه تحقيق إلـٰهيته لله، ومحو الهوى الذي يتخذ إلـٰهًا من دونه، فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله لا إلـٰه إلا أنت إرادة تزاحم إلـٰهية الحق، بل كان مخلصًا لله الدين إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين.

وأيضًا فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له، فيبقى فيه نوع مغاضبة للقدر ومعارضة له في خلقه وأمره، ووساوس في حكمته ورحمته، فيحتاج العبد أن ينفي عنه شيئين: الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة، فيعلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته لا فيما اقتضاه علم العبد وحكمته، ويكون هواه تبعًا لما أمر الله به، فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوى يخالف ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: الآية ٦٥].

وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» رواه أبو حاتم في صحيحه.

وفي الصحيح: أن عمر قال له: يا رسول الله! والله لأنت أحب إلي من نفسي. قال: «الآن يا عمر».

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبَة: الآية ٢٤].

فإذا كان الإيمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ويكون هواه تبعًا لما جاء به، ويكون الرسول والجهاد في سبيله مقدمًا على حب الإنسان نفسه وماله وأهله، فكيف في تحكيمه الله تعالى والتسليم له؟! فمن رأى قومًا يستحقون العذاب في ظنه. وقد غفر الله لهم ورحمهم، وكره هو ذلك، فهذا إما أن يكون عن إرادة تخالف حكم الله وإما عن ظن يخالف علم الله، والله عليم حكيم. وإذا علمت إنه عليم، وإنه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه، وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلقه ولم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه.

فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات: كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا أن نطيعه في أمره بخلاف توبته على عباده وإنجائه إياهم من العذاب فإن هذا من مفعولاته التي يأمرنا أن نكرهها، بل هي مما يحبها فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين. فكراهة هذا من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلـهية. فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلـهية فيقول: لا إلـه إلا أنت.

فعلينا أن نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهي عما ينهي. فإذا كان ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] فعلينا أن نحبهم؛ ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه.

والكلام في هذا المقام مبني على «أصل»: وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٣٦، ١٣٧] وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧] وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥].

بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء، ولو كانوا أولياء لله، ولهذا من سب نبيًّا من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء، ومن سب غيرهم لم يقتل.

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فإن «النبي» هو المنبأ عن الله، و«الرسول» هو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟ هذا فيه قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» وقالوا: إن هذا لم يثبت، ومن علم إنه ثبت: قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول ﷺ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضًا. وقالوا في قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: الآية ٥٢] هو حديث النفس.

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلًا ثابتًا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: الآيات ٥٢ - ٥٤] فقالوا الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث، والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها. وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهرًا يسمعه الناس لا باطنًا في

النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ.

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق، وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] ألا ترى أن الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ، فبيان الرسول ﷺ إن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب، وهذا هو المقصود بالرسالة فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليمًا، ولهذا كان تكذيبه كفرًا محضًا بلا ريب.

وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع. هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟ والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والقول الذي عليه جمهور الناس، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً، والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول.

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا، ومعلوم أن التأسي بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه، كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورًا به ولا منهيًا عنه، فضلًا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

وكذلك ما احتجّوا به من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح. أو إنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه

قبل الخطيئة، وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة «لله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلًا» الخ.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠] وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر، فيقول الله له «إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول: أي رب! إن لي سيئات لم أرها» إذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقًا منها أن تظهر، ومعلوم أن حاله هذه مع هذا البديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل.

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٧٢، ٧٣] فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم.

وفي الكتاب والسُّنّة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه.

والرّادّون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات» ونصوص «القدر» ونصوص «المعاد» وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار إنها باطلة، وإنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم.

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع، وهي «العصمة في التبليغ» لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجبه ما بلغته الأنبياء، وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه لو كانوا فيه كالأُميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، والعصمة التي كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: الآية ٥٤].

والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونًا بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٧] وقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤١] وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَراء: الآية ٨٢] وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٥، ١٥٦] وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القَصَص: الآية ١٦] وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] وقوله تعالى عن داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: الآيتان ٢٤، ٢٥] وقوله تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: الآية ٣٥].

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبًا فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الإمام أحمد الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة» وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ويوسف ﷺ هم هما تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهم الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله.

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١].

وأما ما ينقل: من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله؛ لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] فمن كلام امرأة العزيز، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٥٠ - ٥٣].

فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن، لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته ـ كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٢] أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته ـ فحينئذٍ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤] وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقيضه، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن ما تضمنته «قصة ذي النون» مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات؛ ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَلَم: الآيات ٤٨ - ٥٠] وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٢] فأخبر أنه في تلك الحال مليم، و«المليم» الذي فعل ما يلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] ارفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها.

والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا ثم علمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال.

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان، ورضي الرحمٰن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: الآية ٢٤] فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حاله غيرهم من المخلوقين وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب.

ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم حين نفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر فعلم إن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المال، عند حصول الكمال.

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرًا فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل. فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقته ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف إنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. وهو كما قال: عمر؛ فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشرّ، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك. ولهذا يقال:

والضد يظهر حسنه الضد.

ويقال: وبضدها تتبين الأشياء.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لست بخب ولا يخدعني الخب. فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقًا؛ فإن هذا ليس بمطرد، بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس.

ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به، والنفور عنه، والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشركًا أو يهوديًا أو نصرانيًا، وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح الله صدره للإسلام، وعرفه محاسن الإسلام؛ فإنه قد يكون أرغب فيه، وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا، أو مقلد في مدح هذا وذم هذا.

ومثال ذلك من ذاق طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده، فإن محبة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يبتل بذلك ولم يعرف حقيقته.

وكذلك مَن دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحًا، ورزقه الجهاد في سبيل الله، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم، وجهاده لهم أعظم من غيره، قال نعيم بن حماد الخزاعي ـ وكان شديدًا على الجهمية ـ أنا شديد عليهم؛ لأني كنت منهم. وقد قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١١٠] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم، فهاجروا إلى الله ورسوله؛ وجاهدوا وصبروا.

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من أشد الناس على الإسلام فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام؛ وكان [بعض من سبقهما] دونهما في الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله؛

وكان عمر لكونه أكمل إيمانًا وإخلاصًا وصدقًا ومعرفةً وفراسةً ونورًا أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دينًا لله، مقدمًا على سائر المسلمين، غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا ينقص البداية.

وما يذكر في الإسرائيليات: «أن الله قال لداود: أما الذنب فقد غفرناه؛ وأما الود فلا يعود» فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعًا لنا وليس لنا أن نبني ديننا على هذا فإن دين محمد ﷺ في التوبة جاء بما لم يجيء به شرع من قبله؛ ولهذا قال: «أنا نبي الرحمة؛ وأنا نبي التوبة» وقد رفع به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا.

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] وأخبر أنه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب أعظم من فرحه الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس. فإذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته؛ كيف يقال: إنه لا يعود لمودته: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البُرُوج: الآيات ١٤ - ١٦] ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب إليه العبد بعد التوبة؛ فإن كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة أفضل مما كان يأتي به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة؛ وإن كان أنقص كان الأمر أنقص؛ فإن الجزاء من جنس العمل؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: الآية ٤٦].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب؛ وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها: فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي؛ ولئن سألني لأعطينه؛ ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

ومعلوم أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبة ومودة، وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم وودهم.

وقد قال تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٧] نزلت في المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل «أهل الأحزاب» كأبي سفيان بن حرب، وأبي سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وغيرهم. فإنهم بعد

معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودةً، وكانوا في ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودة من أبي سفيان بن حرب ونحوه. وقد ثبت في الصحيح «أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت: والله يا رسول الله! ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن بذلوا من أهل خبائك، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك» فذكر النبي ﷺ لها نحو ذلك.

ومعلوم أن المحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم لله تعالى، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله. فالحب لله من كمال التوحيد والحب مع الله شرك. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] فتلك المودة التي صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين إنما كانت مودة لله ومحبة لله ومن أحب الله أحبه الله، ومن ود الله وده الله، فعلم أن الله أحبهم وودهم بعد التوبة، كما أحبوه وودوه، فكيف يقال: إن التائب إنما تحصل له المغفرة دون المودة؟!.

وإن قال قائل أولئك كانوا كفارًا، لم يعرفوا أن ما فعلوه محرم؛ بل كانوا جهالًا، بخلاف من علم أن الفعل محرم وأتاه.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه ليس الأمر كذلك؛ بل كان كثير من الكفار يعلمون أن محمدًا رسول الله، ويعادونه حسدًا وكبرًا وأبو سفيان قد سمع من أخبار نبوة النبي ﷺ ما لم يسمع غيره، كما سمع من أمية بن أبي الصلت، وما سمعه من هرقل ملك الروم، وقد أخبر عن نفسه أنه لم يزل موقنًا أن أمر النبي ﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليه الإسلام، وهو كاره له، وقد سمع منه عام اليرموك وغيره ما دل على حسن إسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفُرقان: الآيات ٦٨ - ٧٠] فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصًا بمن كان كافرًا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٧] قال أبو العالية سألت أصحاب

رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

الوجه الثاني: إن ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب في محبة الله تعالى للتائبين فرق لا أصل له؛ بل الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين، ويفرح بتوبة التائبين، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنبًا أو لم يكونوا عالمين بذلك.

ومن علم أن ما أتاه ذنبًا ثم تاب فلا بد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود؛ فإذا كان يبغض الحق فلا بد أن يحبه، وإذا كان يحب الباطل فلا بد أن يبغضه. فما يأتي به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتي به العبد من محابه، فكل من كان أعظم فعلًا لمحبوب الحق كان الحق أعظم محبة له، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل، وقوةً حب ما انتقل إليه من حب الحق، فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه؛ بل يبدل الله سيئاته حسنات لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات، فإن الجزاء من جنس العمل. وحينئذٍ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم وإذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، فكيف يقال الود لا يعود.

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبيًا إلا من كان معصومًا قبل النبوة، كما تقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال إنه لا يبعث نبيًا إلا من كان مؤمنًا قبل النبوة، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصًا وإن تاب التائب منها، وهذا منشأ غلطهم فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصًا فهو غالط غلطًا عظيمًا، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلًا؛ لكن أن قدم التوبة لم يلحقه شيء، وأن آخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة؛ بل يسارعون إليها، ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك، ومن آخر ذلك زمنًا قليلًا كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون ﷺ هذا على المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة؛ وأما من قال إن إلقاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج إلى هذا.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب؛ وإذا كان قد يكون أفضل، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة، وقد أخبر الله عن

إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٦]. فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام ثم أرسله الله تعالى إلى قوم لو وقد قال تعالى في قصة شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٨٨، ٨٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤].

وإذا عرف أن الاعتبار بكماله النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار، ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين والآخرين. كما قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧٣].

وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ، وآخر ما نزل عليه ـ أو من آخر ما نزل عليه ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: الآيات ١ ـ ٣] وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٧].

وفي صحيح البخاري: عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وفي صحيح مسلم: عن الأغر المزني، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

وفي السنن عن ابن عمر أنه قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.

وفي الصحيحين: عن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني؛ اللَّهم! اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللَّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير».

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله! أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: «أقول: اللهم! باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهم! نقني من خطاياي كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد».

وفي صحيح مسلم وغيره: أنه كان يقول: نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع.

وفي صحيح مسلم: عن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللَّهم! أنت الملك لا إلـه إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده: «اللَّهم! اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، علانيته وسره، أوله وآخره».

وفي السنن: عن علي: أن النبي ﷺ أتي بدابة ليركبها وأنه حمد الله وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ١٣، ١٤] ثم كبره وحمده ثم قال: «سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ثم ضحك! وقال: «إن الرب يعجب من عبده إذا قال اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا».

وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: الآية ١٩] وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآيتان ١، ٢].

وثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة: «أن المسيح يقول: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه، فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة.

ولكن المنازعون يتأوّلون هذه النصوص من جنسه تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب. وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه. كتأويلهم قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآية ٢] المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه:

أحدها: أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلًا عن عام الحديبية الذي أنزل الله فيه هذه السورة قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: الآيتان ١٢١، ١٢٢] وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٧] وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

والثاني: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبي أيضًا، ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

الوجه الثالث: أن الله لا يجعل الذنب ذنبًا لمن لم يفعله فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤] فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: الآية ٥٤] وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: الآية ٨٤] ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال: إن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآية ٢] المراد ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم، وقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة. أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمامهم إذا اجتمعوا» وحينئذٍ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوبًا له. فإن قال: إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل: وهو أيضًا لم يغفر ذنوب جميع أمته.

الوجه الرابع: أنه قد ميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: الآية ١٩] فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له.

الوجه الخامس: إنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة: يا رسول الله! هذا لك فما لنا فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ٤] فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآية ٢] مختص به دون أمته.

الوجه السادس: إن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل وأخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: الآية ١٢٣] والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل. فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول؛ لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب.

فصــل

وأما قول السائل: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها؛ أم يحتاج إلى شيء آخر؟؟.

فجوابه: إن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها؛ فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: الآية ٤٨] في موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور؛ وبدون التوبة معلق بالمشيئة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُمَر: الآية ٥٣] فهذا في حق التائبين، ولهذا عمم وأطلق، وحتم أنه يغفر الذنوب جميعًا، وقال في تلك الآية: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: الآية ٤٨] فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة؛ وأما ما دونه فيغفره الله للتائب؛ وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء.

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد إن كان متضمنًا للتوبة أوجب المغفرة؛ وإذا غفر الذنب زالت عقوبته؛ فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب.

ومن الناس من يقول الغفر الستر، ويقول: إنما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر، وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار، وهذا تقصير في معنى الغفر؛ فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه. وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنًا أن ظاهرًا فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب.

وأما إذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببًا في حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافي المغفرة.

وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتي بحسنات يفعلها، فإن يشترط في التوبة من تمام التوبة؛ وقد يظن الظان إنه تائب ولا يكون تائبًا بل يكون تاركًا، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضى لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له

بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى؛ لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق؛ فإن التوبة من أعظم الحسنات؛ والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره، كما قال الفضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧؛ الملك: الآية ٢] قال أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العلم إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: اللَّهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وبسط الكلام في التوبة له موضع آخر.

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها؛ وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها». قالوا: يا رسول الله إذًا نكثر. قال «الله أكثر» فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة وإذا لم تحصل، فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء.

وقول مَن قال من العلماء. الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبة، وإنه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة، لك لا يضاد الاستغفار بدون التوبة.

وقول القائل: هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟.

فجواب هذا مبني على أصول:

أحدهما: إن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضي للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر، أو كان المانع من أحدهما أشد، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف.

وذهب طائفة من أهل الكلام كأبي هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر، قالوا: لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها، وحكى القاضي أبو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد، لأن المروذي نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال لو مرضت لم أعد لكن لا يدع النظر، فقال أحمد: أي توبة ذه؟! قال جرير بن عبد الله سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال «اصرف بصرك».

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة، وأحمد في هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً، لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافي ذلك، وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضًا أولى من حمله على التناقض، لا سيما إذا كان القول الآخر مبتدعًا لم يعرف عن أحد من السلف، وأحمد يقول: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام، وكان في المحنة يقول: كيف أقول ما لم يقل؟ واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك، وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة.

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم.

فجوابه أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه.

وأيضًا فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض؛ فإن ذلك يقبل منه.

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وإن خالفوهم في الاسم، فقالوا: إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه؛ ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة.

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم، وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات؛ ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك، وإن كان مستحقًا للعقوبة على كبيرته.

وكتاب الله عزّ وجلّ يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضًا، وبين حكم الكفار في «الأسماء، والأحكام». والسنة المتواترة عن النبي ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

وعلى هذا تنازع الناس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقًا فلم يأت كبيرة، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك، فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم «المتقين» وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصًا لله موافقًا لأمر الله، فمن اتقاه في عمل تقبله منه، وإن كان عاصيًا في غيره. ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعًا في غيره.

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطًا في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسرَاء: الآية ١٩] وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧] وقال: ﴿يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

الأصل الثاني: إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما علمت في هذا نزاعًا إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حالة الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما: يغفر له الجميع، لإطلاق قوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله» رواه مسلم. مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

والقول الثاني: إنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه؛ فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص؛ فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام: يا رسول الله! أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» فقد دل هذا النص على إنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن لا يحسن؛ وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منها فلم يحسن.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨] يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره؛ وذلك لأن قول القائل لغيره: إن انتهيت غفرت لك ما تقدم، ونحو ذلك يفهم منه عند الإطلاق إنك أن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه، كما يفهم مثل ذلك في قوله: «إن تبت»، لا يفهم منه إنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره.

وأما قول النبي ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله» وفي رواية «يجب ما كان قبله» فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له: «يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها» ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب.

الأصل الثالث: إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًا بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محظور.

والندم سواء قيل: إنه من باب الاعتقادات، أو من باب الإرادات، أو قيل: إنه من باب الآلام التي تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها فإذا استشعر القلب إنه فعل ما يضره، حصل له معرفة بأن الذي فعله كان من السيئات، وهذا من باب الاعتقادات، وكراهية ما كان فعله، وهو من جنس الإرادات؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله؛ وهذا من باب الآلام، كالغموم والأحزان، كما أن الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والإرادات.

ومَن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم: إن اللذة هي إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وأن الألم هو إدراك المنافر من حيث هو منافر فقط غلط في ذلك. فإن اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فإن الحب لما يلائمه، كالطعام المشتهي مثلًا له ثلاثة أحوال:

أحدها: الحب، كالشهوة للطعام.

والثاني: إدراك المحبوب، كأكل الطعام.

والثالث: اللذة الحاصلة بذلك، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهي؛ بل هي حاصلة لذوق المشتهي؛ ليست نفس ذوق المشتهي.

وكذلك «المكروه» كالضرب مثلًا. فإن كراهته شيء، وحصوله شيء آخر، والألم الحاصل به ثالث.

وكذلك ما للعارفين أهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك؛ فإن حبهم لله شيء، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء، ثم اللذة الحاصلة بذلك أمر ثالث، ولا ريب أن الحب مشروط بشعور المحبوب، كما أن الشهوة مشروطة بشعور المشتهي؛ لكن الشعور المشروط في اللذة غير الشعور المشروط في المحبة، فهذا الثاني يسمى إدراكًا وذوقًا ونيلًا ووجدًا ووصالًا، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب، سواء كان بالباطن أو الظاهر، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة، واللذة أمر يحسه الحي باطنًا وظاهرًا.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا».

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

فبيّن ﷺ أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وأن وجد حلاوة الإيمان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، ومن كان يحب شخصًا لله لا لغيره، ومن كان يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يلقى في النار؛ فهذا الحب للإيمان. والكراهية للكفر استلزم حلاوة الإيمان، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الإيمان، وهذا هو اللذة؛ وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة في القلب، ولا نفس الحب الحاصل في القلب؛ بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له، وهي أمور متلازمة، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذق منه شيئًا لم يجد لذة، كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئًا، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة، كمن ذاق ما لا يريده، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك.

وإن حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم، فالذي يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم، والذي لا يبغضه لا يندم على فعله، فإذا فعله وعرف أن هذا مما يبغضه ويضره ندم على فعله إياه. وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «الندم توبة».

إذا تبين هذا. فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده إنه حسن

ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته.

وأما «التوبة المطلقة»: وهي أن يتوب توبةً مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق؛ لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعين. كما تصلح أن تكون سببًا لغفران الجميع؛ بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام، كما تناولت الذنوب تناولًا عاماً.

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المصنفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًّا أعظم نفعًا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح: أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل يدعى حمارًا، وكان يشرب الخمر، وكان كلما أتي به إلى النبي ﷺ جلده الحد، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعنه رجل، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله، مع إنه ﷺ لعن في الخمر عشرة: «لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها».

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له.

وكذلك «التكفير المطلق» و«الوعيد المطلق». ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له؛ فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ـ لكنها من عقوبات الدنيا ـ وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضًا بدعاء المؤمنين: كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد ﷺ تسليمًا.

وحينئذٍ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجبه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه؛ بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائمًا. والله أعلم.

وأما قول السائل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟ وما الحيلة في صرفه القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟.

فيقال: سبب هذا تحقيق التوحيد: «توحيد الربوبية»، و«توحيد الإلـٰهية».

فتوحيد الربوبية: أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقل شيء سواه بأحداث أمر من الأمور؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكل ما سواه إذا قدر سببًا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلًا لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور.

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئًا؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأموره خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التّكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩] وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: الآيات ٢٩ - ٣١] وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدّثّر: الآيتان ٥٥، ٥٦].

والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله، فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، ثم إن وحده العبد توحيد الإلـٰهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة.

وإن كان ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُونس: الآية ١٢] وفي وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٧] كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه.

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: الآيات ٨٤ - ٨٩] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العَنكبوت: الآية ٦١] وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع.

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن.

وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال: بعض السلف: يا ابن آدم! لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضى انصرفت. وفي بعض الإسرائيليات يابن آدم! البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

وهذا المعنى كثير، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك.

ولفظ «الذوق» وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر، كما أن لفظ «الإحساس» في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس، بل وبالباطن.

وأما في اللغة فأصله «الرؤية» كما قال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريَم: الآية ٩٨].

والمقصود: لفظ «الذوق» قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: الآية ١١٢] فجعل الخوف والجوع مذوقًا؛ وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللابس؛ بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدّخان: الآية ٤٩] وقال تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القَمَر: الآية ٤٨] وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الدّخان: الآية ٥٦] وقال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥] وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢١] وقد قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا».

فاستعمال لفظ «الذوق» في إدراك الملائم والمنافر كثير. وقال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» كما تقدم ذكر الحديث. فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق، أصحابه فيه يتفاوتون، فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدوه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى؛ قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب.

وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه. والله سبحانه أعلم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

«الفناء» الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور:

أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في «الحقيقة» عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه وإنابته، وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال. وليس لأحد خروج عن هذا.

وهذا هو «القلب السليم» الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٩] وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة. والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك.

وهذا «الفناء» لا ينافيه البقاء؛ بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانيًا عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعرًا بالله وبالسوي، وترجمته قول لا إلـه إلا الله، وكان النبي ﷺ يقول: «لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن» وهذا في «الجملة» هو أول الدين وآخره.

الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة. ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرًا العبادة، آمرًا بشرائعه، أكمل من شهود وجوده؛ أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.

ولهذا كان الصحابة أكمل شهودًا من أن ينقصهم شهود للحق مجملًا عن شهوده مفصلًا، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة. كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق: الموت والغشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، حتى اختلفوا في إمكان ذلك، وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى إنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر. وإذا عورض بالنبي ﷺ وخلفائه ادعى الاختصاص، أو أعرض عن الجواب أو تحير في الأمر.

وسبب ذلك أنه قاس جميع الخلق علي ما وجده من نفسه؛ ولهذا يقول بعض هؤلاء: إنه لا يمكن حين تجلى الحق سماع كلامه، ويحكى عن ابن عربي أنه لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنه جوز اجتماع الأمرين. قال نحن نقول له عن شهوده الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات، والصواب مع شهاب الدين. فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد. وإنما بنى ابن عربي على أصله الفكري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات، ومعلوم أن شهود هذا لا يقع فيه خطاب، وإنما الخطاب في مقام العقل[1].

وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، إذا فني بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة في خط المؤلف لخرم في الأصل.

عرفانه. كما يحكون أن رجلًا كان مستغرقًا في محبة آخر، فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني فظننت إنك أني.

وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر، وسكر عشيق الصور. وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحاله حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى وهي شطحات بعض المشايخ: كقول بعضهم: انصب خيمتي على جهنم، ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع؛ وقد يكون صاحبها غير مأثوم، وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو من يعين كافرًا أو ظالمًا بحاله ويزعم أنه مغلوب عليه. ويحكم [على] هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمرًا محرمًا.

وهذا كما قلنا في عقلاء المجانين والمولهين، الذين صار ذلك لهم مقامًا دائمًا كما أنه يعرض لهؤلاء في بعض الأوقات، كما قال بعض العلماء ذلك في من زال عقله حتى ترك شيئًا من الواجبات. إن كان زواله بسبب غير محرم مثل الإغماء بالمرض أو اسقي مكرهًا شيئًا يزيل عقله فلا إثم عليه، وإن زال يشرب الخمر ونحو ذلك من الأحوال المحرمة إثم بترك الواجب، وكذلك الأمر في فعل المحرم.

وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة، وقال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولًا وأحوالًا فسلب عقولهم وترك أحوالهم وأسقط ما فرض بما سلب.

ولهذا اتفق العارفون على أن حال البقاء أفضل من ذلك، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق، كما قال الله تعالى فيما روي عنه رسوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي» وفي رواية: «وبي ينطق، وبي يعقل» فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه وشهد الحق على ما هو عليه.

وعامّة ما تجده في كتب أصحاء الصوفية مثل شيخ الإسلام ومن قبله من الفناء هو هذا، مع أنه قد يغلط بعضهم في بعض أحكامه كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع.

وفي الجملة فهذا الفناء صحيح وهو في عيسوبة المحمدية، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث في التابعين، ولهذا يقع كثير من هؤلاء في نوع ضلال؛ لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلى عدم العلم والشهود. وهو وصف نقص لا وصف كمال، وإنما يمدح من جهة عدم إرادة ما سواه: لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى إرادته والفتنة به.

ولهذا غالب عباد «العيسوية» في عدم العلم بالسوي، وإرادته والفتنة به، ويوصفون بسلامة القلوب. وغالب علماء «الموسوية» في العلم بالسوي وإرادته والفتنة به، ويصفون بالعلم؛ لكن الأولون موصوفون بالجهل والعدل. والآخرون موصوفون بالظلم[١] وكلاهما صحيح.

فأما العلم بالحق والخلق، وإرادة الله وحده لا شريك له فهذا نعت المحمدية الكاملون في العلم والإرادة، وسلامة القلب المحمودة، هي سلامة[١] إذ الجهل لا يكون بنفسه صفة مدح. إلا أنه قد يمدح لسلامته به عن الشرور، فإن أكثر النفوس إذا عرفت الشّرّ الذي تهواه اتبعته أو فزعت منه أو فتنها.

الثالث: فناء عن وجود السوي: بمعنى أنه يرى إن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوني ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجود لغيره؛ لا بمعنى أن قيام الأشياء به ووجودها به، كما قال النبي ﷺ [«أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيدة»].

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

وكما قيل في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح؛ لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات، فهذا كفر وضلال ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ. كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح. ويرجعون إلى وجد فاسد أو قياس فاسد. فتدبر هذا التقسيم فإنه بيان الصراط المستقيم.

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله ما عمل أهل الجنة؟ وما عمل أهل النار؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين:

عمل أهل الجنة: الإيمان والتقوى، وعمل أهل النار الكفر والفسوق والعصيان، فأعمال أهل الجنة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره

(١) خرم في الأصل هنا.

وشره والشهادتان: شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. وأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومن أعمال أهل الجنة؛ صدق الحديث، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد، وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم.

ومن أعمال أهل الجنة الإخلاص لله والتوكل عليه، والمحبة له ولرسوله، وخشية الله ورجاء رحمته، والإنابة إليه، والصبر على حكمه والشكر لنعمه.

ومن أعمال أهل الجنة: قراءة القرآن وذكر الله ودعائه ومسألته والرغبة إليه.

ومن أعمال أهل الجنة الآمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله للكفار والمنافقين.

ومن أعمال أهل الجنة: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك؛ فإن الله أعد الجنة للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين.

ومن أعمال أهل الجنة: العدل في جميع الأمور، وعلى جميع الخلق حتى الكفار وأمثال هذه الأعمال.

وأما عمل أهل النار: فمثل الإشراك بالله، والتكذيب بالرسل والكفر والحسد، والكذب والخيانة، والظلم والفواحش، والغدر وقطيعة، الرحم والجبن عن الجهاد، والبخل، واختلاف السر والعلانية، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والجزع عند المصائب، والفخر والبطر عند النعم، وترك فرائض الله واعتداء حدوده، وانتهاك حرماته، وخوف المخلوق دون الخالق، ورجاء المخلوق دون الخالق، والتوكل على المخلوق دون الخالق، والعمل رياء وسمعة، ومخالفة الكتاب والسنة وطاعة المخلوق في معصية الخالق، والتعصب بالباطل، والاستهزاء بآيات الله وجحد الحق، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة.

ومن عمل أهل النار: السحر وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وأكل مال اليتيم وأكل الربا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات الغلافات المؤمنات.

وتفصيل «الجملتين» لا يمكن؛ لكن «أعمال أهل الجنة» كلها تدخل في طاعة الله ورسوله، و«أعمال أهل النار» كلها تدخل في معصية الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: الآيتان ١٣، ١٤] والله أعلم.

وقال الشيخ رحمه الله:

وأما قوله هل الأفضل للسالك العزلة أو الخلطة؟

فهذه «المسألة» وإن كان الناس يتنازعون فيها؟ إما نزاعًا كليًا وإما حاليًا. فحقيقة الأمر: إن «الخلطة» تارة تكون واجبة أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأمورًا بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة. وجماع ذلك: أن «المخالطة» إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجارًا، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانًا؛ إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته. كما قال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقًا خطأً، واختيار الانفراد مطلقًا خطأً. وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم.

وكذلك «السبب وترك السبب»: فمن كان قادرًا على السبب، ولا يشغله عما هو أنفع له في دينه فهو مأمور به، مع التوكل على الله، وهذا خير له من أن يأخذ من الناس ولو جاءه بغير سؤال، وسبب مثل هذا عبادة الله، وهو مأمور أن يعبد الله ويتوكل عليه، فإن تسبب بغير نية صالحة، أو لم يتوكل على الله، فهو مطيع في هذا وهذا، وهذه طريق الأنبياء والصحابة.

وأما مَن كان من الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فهذا إما أن يكون عاجزًا عن الكسب أو قادرًا عليه بتفويت ما هو فيه أطوع لله من الكسب، ففعل ما هو فيه أطوع هو المشروع في حقه، وهذا يتنوع بتنوع أحوال الناس.

وقد تقدم أن الأفضل يتنوع «تارة» بحسب أجناس العبادات، كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، و«تارة» يختلف باختلاف الأوقات كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

و«تارة» باختلاف عمل الإنسان الظاهر، كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

و«تارة» باختلاف الأمكنة: كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

و«تارة» باختلاف مرتبة جنس العبادة: فالجهاد للرجال أفضل من الحج، وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها؛ بخلاف الأيمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها.

و«تارة» يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه: فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس، ويتبعون أهواءهم.

فإن من الناس من يرى إن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبة له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربه يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس، ويأمرهم بمثل ذلك.

والله بعث محمدًا بالكتاب والحكمة، وجعله رحمة للعباد وهديًا لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له، فعلى المسلم أن يكون ناصحًا للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له.

وبهذا تبين لك أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية ـ كالصلاة والصيام ـ أفضل له، والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا.

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

اتباع الرسول بصريح المعقول

وقال الشيخ:

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: اعلم أنه يجب على كل بالغ عاقل من الإنس والجن أن يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا. أرسله إلى جميع الخلق: إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم، وفرسهم وهندهم، وبربرهم ورومهم، وسائر أصناف العجم أسودهم وأبيضهم، والمراد بالعجم من ليس بعربي على اختلاف ألسنتهم.

فمحمد ﷺ أرسل إلى كل أحد: من الإنس والجن كتابيهم وغير كتابيهم، في كل ما يتعلق بدينه من الأمور الباطنة والظاهرة، في عقائده وحقائقه، وطرائقه وشرائعه، فلا عقيدة إلا عقيدته ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا طريقة إلا طريقته ولا شريعة إلا شريعته ولا يصل أحد من الخلق إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته، وولايته إلا بمتابعته باطنًا وظاهرًا في الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة في أقوال القلب وعقائده، وأحوال القلب وحقائقه، وأقوال اللسان وأعمال الجوارح.

وليس لله وليّ إلا من اتبعه باطنًا، وظاهرًا، فصدقه فيما أخبر به من الغيوب، والتزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات. فمن لم يكن له مصدقًا فيما أخبر ملتزمًا طاعته فيما أوجب، وأمر به في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمنًا فضلًا عن أن يكون وليًا لله ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل فإنه لا يكون مع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من أداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتها وواجباتها إلا من أهل الأحوال الشيطانية، المبعدة لصاحبها عن الله، المقربة إلى سخطه وعذابه.

لكن مَن ليس بمكلف من الأطفال والمجانين قد رفع القلم عنهم، فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله وتقواه باطنًا وظاهرًا ما يكونون به من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون في الإسلام تبعًا لآبائهم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور: الآية ٢١].

وهم مع عدم العقل لا يكونون ممن في قلوبهم حقائق الإيمان ومعارف أهل ولاية الله وأحوال خواص الله؛ لأن هذه الأمور كلها مشروطة بالعقل فالجنون مضاد العقل

والتصديق والمعرفة واليقين والهدى والثناء، وإنما يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات. فالمجنون وإن كان الله لا يعاقبه ويرحمه في الآخرة فإنه لا يكون من أولياء الله المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم.

ومن ظن أن أحدًا من هؤلاء الذين لا يؤدون الواجبات، ولا يتركون المحرمات سواء كان عاقلًا أو مجنونًا أو مولهًا أو متولهًا، فمن اعتقد أن أحدًا من هؤلاء من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين وجنده الغالبين، السابقين، المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم بالعلم والإيمان مع كونه لا يؤدي الواجبات ولا يترك المحرمات، كان المعتقد لولاية مثل هذا كافرًا مرتدًا عن دين الإسلام، غير شاهد إن محمدًا رسول الله ﷺ، بل هو مكذب لمحمد ﷺ فيما شهد به؛ لأن محمدًا أخبر عن الله أن أولياء الله هم المتقون المؤمنون قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

و«التقوى» أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله، وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله، ولا يتقرب ولي الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله. قال تعالى: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» ما جاء في الحديث الصحيح الإلـٰهي. الذي رواه البخاري.

فصل

ومن أحبّ الأعمال إلى الله وأعظم الفرائض عنده الصلوات الخمس في مواقيتها، وهي أول ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج لم يجعل فيها بينه وبين محمد واسطة، وهي عمود الإسلام الذي لا يقوم إلا به، وهي أهم أمر الدين كما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكتب إلى عماله: إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». فمن لم يعتقد وجوبها على كل عاقل بالغ غير حائض ونفساء فهو كافر مرتد باتفاق أئمة المسلمين، وإن اعتقد إنها عمل صالح وإن الله يحبها ويثيب عليها وصلى مع ذلك وقام الليل وصام النهار وهو

مع ذلك لا يعتقد وجوبها على كل بالغ فهو أيضًا كافر مرتد، حتى يعتقد أنها فرض واجب على كل بالغ عاقل.

ومَن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ: العارفين والمكاشفين والواصلين؛ أو أن لله خواصًا لا تجب عليهم الصلاة؛ بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلى حضرة القدس، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها أو أولى. أو أن المقصود حضور القلب مع الرب، أو أن الصلاة فيها تفرقة فإذا كان العبد في جمعيته مع الله فلا يحتاج إلى الصلاة بل المقصود من الصلاة هي المعرفة، فإذا حصلت لم يحتج إلى الصلاة، فإن المقصود أن يحصل لك خرق عادة كالطيران في الهواء، والمشي على الماء أو ملء الأوعية ماء من الهواء أو تغوير المياه واستخراج ما تحتها من الكنوز، وقتل من يبغضه بالأحوال الشيطانية. فمتى حصل له ذلك استغنى عن الصلاة ونحو ذلك.

أو أن لله رجالًا خواصًا لا يحتاجون إلى متابعة محمد ﷺ بل استغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى. أو أن كل من كاشف وطار في الهواء أو مشى على الماء فهو ولي سواء صلى أو لم يصل.

أو اعتقد أن الصلاة تقبل من غير طهارة، أو أن المولهين والمتولهين والمجانين الذين يكونون في المقابر والمزابل والطهارات والخانات والقمامين وغير ذلك من البقاع وهم لا يتوضؤون ولا يصلون الصلوات المفروضات. فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء الله فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمة الإسلام، ولو كان في نفسه زاهدًا عابدًا. فالرهبان أزهد وأعبد، وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون أتباعه ولكنهم لم يؤمنوا بجميع ما جاء به، بل آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فصاروا بذلك كافرين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: الآيات ١٥٠ - ١٥٢].

ومَن كان مسلوب العقل أو مجنونًا فغايته أن يكون القلم قد رفع عنه، فليس عليه عقاب، ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله؛ فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل. فمن لا عقل له لا يصح شيء من عباداته لا فرائضه ولا نوافله، ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٤] أي العقول وقال تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر:

الآية ٥] أي لذي عقل. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] وقال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفَال: الآية ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يُوسُف: الآية ٢].

فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل. فإما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط. بل قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [المُلك: الآية ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعـراف: الآيـة ١٧٩] وقـال: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤].

فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفله، ومن كان يهوديًا أو نصرانيًا ثم جن وأسلم بعد جنونه لم يصح إسلامه لا باطنًا ولا ظاهرًا. ومن كان قد آمن ثم كفر وجن بعد ذلك فحكمه حكم الكفار. ومن كان مؤمنًا ثم جن بعد ذلك أثيب على إيمانه الذي كان في حال عقله، ومن ولد مجنونًا ثم استمر جنون لم يصح منه إيمان ولا كفر. وحكم المجنون حكم الطفل إذا كان أبواه مسلمين كان مسلمًا تبعًا لأبويه باتفاق المسلمين، وكذلك إذا كانت أمه مسلمة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد.

وكذلك مَن جنّ بعد إسلامه يثبت لهم حكم الإسلام تبعًا لآبائهم. وكذلك المجنون الذي ولد بين المسلمين بحكم له بالإسلام ظاهرًا تبعًا لأبويه أو لأهل الدار كما يحكم بذلك للأطفال. لا لأجل إيمان قام به فأطفال المسلمين ومجانينهم يوم القيامة تبع لآبائهم، وهذا الإسلام لا يوجب له مزية على غيره، ولا أن يصير به من أولياء الله المتقين الذين يتقربون إليه بالفرائض والنوافل. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٣] فنهى الله عزّ وجلّ عن قربان الصلاة إذا كانوا سكارى حتى يعلموا ما يقولون.

وهذه الآية نزلت باتفاق العلماء قبل أن تحرم الخمر بالآية التي أنزلها الله في «سورة المائدة». وقد روي أنه كان سبب نزولها: إن بعض الصحابة صلى بأصحابه وقد شرب الخمر قبل أن تحرم فخلط في القراءة، فأنزل الله هذه الآية؛ فإذا كان قد حرم الله الصلاة مع السكر والشرب الذي لم يحرم حتى يعلموا ما يقولون، علم أن ذلك يوجب أن لا يصلي أحد حتى يعلم ما يقول. فمن لم يعلم ما يقول لم تحل له الصلاة، وإن كان عقله

قد زال بسبب غير محرم؛ ولهذا اتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال، فكيف بالمجنون؟!

وقد قال بعض المفسرين ـ وهو يروي عن الضحاك ـ لا تقربوها وأنتم سكارى من النوم. وهذا إذا قيل إن الآية دلت عليه بطريق الاعتبار أو شمول معنى اللفظ العام، وإلا فلا ريب أن سبب نزول الآية كان السكر من الخمر. واللفظ صريح في ذلك؛ والمعنى الآخر صحيح أيضًا. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قام أحدكم يصلي بالليل فاستعجم القرآن على لسانه فليرقد، فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه ـ وفي لفظ ـ إذا قام يصلي فنعس فليرقد».

فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة مع النعاس الذي يغلط معه الناعس. وقد احتج العلماء بهذا على أن النعاس لا ينقض الوضوء؛ إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة، أو لوجب الخروج منها لتجديد الطهارة، والنبي ﷺ إنما علل ذلك بقوله «فإنه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه» فعلم أنه قصد النهي عن الصلاة لمن لا يدري ما يقول وإن كان ذلك بسبب النعاس. وطرد ذلك أنه ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا يصلي أحدكم وهو يدافع الأخبثين ولا بحضرة طعام» لما في ذلك من شغل القلب. وقال أبو الدرداء: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته فيقضيها ثم يقبل على صلاته وقلبه فارغ.

فإذا كانت الصلاة محرمة مع ما يزيل العقل ولو كان بسبب مباح حتى يعلم ما يقول كانت صلاة المجنون ومن يدخل في مسمى المجنون وإن سمي مولهًا أو متولهًا أولى أن لا تجوز صلاته.

ومعلوم أن الصلاة «أفضل العبادات» كما في الصحيحين: عن ابن مسعود أنه قال قلت: للنبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال «الصلاة على وقتها». قلت ثم أي؟ قال «بر الوالدين». قلت ثم أي؟ قال «الجهاد». قال حدّثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.

وثبت أيضًا في الصحيحين: عنه أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله، وجهاد في سبيله، ثم الحج المبرور. ولا منافاة بينهما فإن الصلاة داخلة في مسمى الإيمان بالله، كما دخلت في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] قال البراء بن عازب وغيره من السلف أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

ولهذا كانت الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال فلا يصلي أحد عن أحد الفرض لا لعذر ولا لغير عذر. كما لا يؤمن أحد عنه، ولا تسقط بحال كما لا يسقط الإيمان؛ بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضرًا وهو متمكن من فعل بعض أفعالها، فإذا

عجز عن جميع الأفعال ولم يقدر على الأقوال فهل يصلي بتحريك طرفه ويستحضر الأفعال بقلبه؟ فيه قولان للعلماء، وإن كان الأظهر أن هذا غير مشروع.

فإذا كان كذلك تبين أن من زال عقله فقد حرم ما يتقرب به إلى الله من فرض ونفل، و«الولاية» هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل، فقد حرم ما به يتقرب أولياء الله إليه لكنه مع جنونه قد رفع القلم عنه فلا يعاقب، كما لا يعاقب الأطفال والبهائم؛ إذ لا تكليف عليهم في هذه الحال. ثم إن كان مؤمنًا قبل حدوث الجنون به وله أعمال صالحة وكان يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل قبل زوال عقله كان له من ثواب ذل الإيمان والعمل الصالح ما تقدم، وكان له من ولاية الله تعالى بحسب ما كان عليه من الإيمان والتقوى، كما لا يسقط ذلك بالموت بخلاف ما لو ارتد عن الإسلام فإن الردة تحبط الأعمال، وليس من السيئات ما يحبط الأعمال الصالحة إلا الردة. كما إنه ليس من الحسنات ما يحبط جميع السيئات إلا التوبة، فلا يكتب للمجنون حال جنونه مثل ما كان يعمل في حال إفاقته، كما لا يكون مثل ذلك لسيئاته في زوال عقله بالأعمال المسكرة والنوم؛ لأنه في هذه الحال ليس له قصد صحيح، ولكن في الحديث الصحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو وصحيح مقيم».

وفي الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة تبوك: «إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» فهؤلاء كانوا قاصدين للعمل الذي كانوا يعملونه راغبين فيه لكن عجزوا فصاروا بمنزلة العامل؛ بخلاف من زال عقله فإنه ليس له قصد صحيح ولا عبادة أصلًا، بخلاف أولئك فإن لهم قصدًا صحيحًا يكتب لهم به الثواب.

وأما إن كان قبل جنونه كافرًا أو فاسقًا أو مذنبًا لم يكن حدوث الجنون به مزيلًا لما ثبت من كفره وفسقه، ولهذا كان من جن من اليهود والنصارى بعد تهوده وتنصره محشورًا معهم، وكذلك من جن من المسلمين بعد إيمانه وتقواه محشورًا مع المؤمنين من المتقين. وزوال العقل بجنون أو غيره سواء سمي صاحبه مولهًا أو متولهًا لا يوجب مزيد حال صاحبه من الإيمان والتقوى، ولا يكون زوال عقله سببًا لمزيد خيره ولا صلاحه ولا ذنبه؛ ولكن الجنون يوجب زوال العقل، فيبقى على ما كان عليه من خير وشر، لا أنه يزيده ولا ينقصه، لكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير، كما أنه يمنع عقوبته على الشر.

وأما إن كان زوال عقله بسبب محرم: كشرب الخمر، وأكل الحشيشة، أو كان يحضر السماع الملحن فيستمع حتى يغيب عقله، أو الذي يتعبد بعبادات بدعية حتى

يقترين به بعض الشياطين فيغيروا عقله أو يأكل بنجًا يزيل عقله، فهؤلاء يستحقون الذم والعقاب على ما أزالوا به العقول. وكثير من هؤلاء يستجلب الحال الشيطاني بأن يفعل ما يحبه فيرقص رقصًا عظيمًا حتى يغيب عقله. أو يغط ويخور حتى يجيئه الحال الشيطاني، وكثير من هؤلاء يقصد التوله حتى يصير مولهًا. فهؤلاء كلهم من حزب الشيطان وهذا معروف عن غير واحد منهم.

واختلف العلماء هل هم «مكلفون» في حال زوال عقلهم؟ والأصل «مسألة السكران» والمنصوص عن الشافعي وأحمد وغيرهما إنه مكلف حال زوال عقله. وقال كثير من العلماء ليس مكلفًا، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد وإحدى الروايتين عن أحمد أن طلاق السكران لا يقع وهذا أظهر القولين. ولم يقل أحد من العلماء أن هؤلاء الذين زال عقلهم بمثل هذا يكونون من أولياء الله الموحدين المقربين وحزبه المفلحين. ومن ذكره العلماء من عقلاء المجانين الذين ذكروهم بخير فهم من القسم الأول الذين كان فيهم خير ثم زالت عقولهم.

ومن «علامة هؤلاء» إنهم إذا حصل لهم في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، لا بالكفر والبهتان بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع إفاقة بالكفر والشرك، ويهذي في زوال عقله بالكفر فهذا إنما يكون كافرًا لا مسلمًا، ومن كان يهذي بكلام لا يعقل بالفارسية أو التركية أو البربرية وغير ذلك مما يحصل لبعض من يحضر السماع ويحصل له وجد يغيب عقله حتى يهذي بكلام لا يعقل ـ أو بغير العربية ـ فهؤلاء إنما يتكلم على ألسنتهم الشيطان كما يتكلم على لسان المصروع.

ومَن قال إن هؤلاء أعطاهم الله عقولًا وأحوالًا فأبقى أحوالهم وأذهب عقولهم وأسقط ما فرض عليهم بما سلب.

قيل: قولك وهب الله لهم أحوالًا كلام مجمل؛ فإن الأحوال تنقسم إلى: حال رحماني، وحال شيطاني، وما يكون لهؤلاء من خرق عادة بمكاشفة وتصرف عجيب، «فتارة» يكون من جنس ما يكون للسحرة والكهان، و«تارة» يكون من الرحمٰن من جنس ما يكون من أهل التقوى والإيمان؛ فإن كان هؤلاء في حال عقولهم كانت لهم مواهب إيمانية، وكانوا من المؤمنين المتقين فلا ريب إنه إذا زالت عقولهم سقطت عنهم الفرائض بما سلب من العقول، وإن كان ما أعطوه من الأحوال الشيطانية ـ كما يعطاه المشركون وأهل الكتاب والمنافقون ـ فهؤلاء إذا زالت عقولهم لم يخرجوا بذلك مما كانوا عليه من الكفر والفسوق، كما لم يخرج الأولون عما كانوا عليه من الإيمان والتقوى كما إن نوم

كل واحد من الطائفتين وموته وإغماءه لا يزيل حكم ما تقدم قبل زوال عقله من إيمانه وطاعته أو كفره وفسقه بزوال العقل، غايته أن يسقط التكليف.

ورفع القلم لا يوجب حمدًا ولا مدحًا ولا ثوابًا ولا يحصل لصاحبه بسبب زوال عقله موهبة من مواهب أولياء الله، ولا كرامة من كرامات الصالحين، بل قد رفع القلم عنه كما قد يرفع القلم عن النائم والمغمى عليه والميت ولا مدح في ذلك ولا ذم، بل النائم أحسن حالًا من هؤلاء؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام ينامون وليس فيهم مجنون ولا موله، والنبي ﷺ يجوز عليه النوم والإغماء، ولا يجوز عليه الجنون، وكان نبينا محمد ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه وقد أغمي عليه في مرضه.

وأما «الجنون» فقد نزه الله أنبياءه عنه؛ فإنه من أعظم نقائص الإنسان؛ إذ كمال الإنسان بالعقل، ولهذا حرم الله إزالة العقل بكل طريق، وحرم ما يكون ذريعة إلى إزالة العقل، كشرب الخمر؛ فحرم القطرة منها وإن لم تزل العقل لأنها ذريعة إلى شرب الكثير الذي يزيل العقل فكيف يكون مع هذا زوال العقل سببًا أو شرطًا أو مقربًا إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال؟! حتى قال قائلهم في هؤلاء.

هم معشر حلوا النظام وخرقوا السـ ... ـياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أبوابه يسجد العقل

فهذا كلام ضال؛ بل كافر، يظن أن للمجنون سرًّا يسجد العقل على بابه؛ وذلك لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة. ويكون ذلك بسبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان، فيظن هذا الضال أن كل من كاشف أو خرق عادة كان وليًّا لله. ومن اعتقد هذا فهو كافر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى؛ فإن كثيرًا من الكفار والمشركين فضلًا عن أهل الكتاب يكون لهم من المكاشفات وخرق العادات بسبب شياطينهم أضعاف ما لهؤلاء؛ لأنه كلما كان الرجل أضل وأكفر كان الشيطان إليه أقرب: لكن لا بد في جميع مكاشفة هؤلاء من الكذب والبهتان. ولا بد في أعمالهم من فجور وطغيان، كما يكون لإخوانهم من السحرة والكهان، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢٢١، ٢٢٢].

فكل مَن تنزّلت عليه الشياطين لا بد أن يكون فيه كذب وفجور، من أي قسم كان. والنبي ﷺ قد أخبر أن أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بالفرائض، وحزبه المفلحون، وجنده الغالبون، وعباده الصالحون. فمن اعتقد فيمن لا يفعل الفرائض ولا النوافل أنه من أولياء الله المتقين إما لعدم عقله أو جهله أو لغير ذلك فمن اعتقد في مثل هؤلاء إنه

من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين فهو كافر مرتد عن دين رب العالمين، وإذا قال: أنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله كان من الكاذبين الذين قيل فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنَافِقون: الآيات ١ - ٣].

وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر طبع الله على قلبه» فإذا كان طبع على قلب من ترك الجمع وإن صلى الظهر، فكيف بمن لا يصلي ظهرًا ولا جمعة ولا فريضة ولا نافلة ولا يتطهر للصلاة لا الطهارة الكبرى ولا الصغرى؟! فهذا لو كان قبل مؤمنًا، وكان قد طبع على قلبه كان كافرًا مرتدًا بما تركه ولم يعتقد وجوبه من هذه الفرائض، وإن اعتقد أنه مؤمن كان كافرًا مرتدًا، فكيف يعتقد إنه من أولياء الله المتقين. وقد قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجَادلة: الآية ١٩] أي استولى، يقال: حاذ الإبل حوذًا إذا استاقها، فالذين استحوذ عليهم الشيطان فساقهم إلى خلاف ما أمر الله به ورسوله قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريَم: الآية ٨٣] أي تزعجهم إزعاجًا، فهؤلاء: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجَادلة: الآية ١٩].

وفي السنن عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من ثلاثة في قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان». فأي ثلاثة كانوا من هؤلاء لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة كانوا من حزب الشيطان الذين استحوذ عليهم لا من أولياء الرحمـٰن الذين أكرمهم؛ فإن كانوا عبادًا زهادًا ولهم جوع وسهر وصمت وخلوة كرهبان الديارات والمقيمين في الكهوف والمغارات كأهل جبل لبنان وأهل جبل الفتح الذي بآسون، وجبل ليسون، ومغارة الدم بجبل قاسيون، وغير ذلك من الجبال والبقاع التي يقصدها كثير من العباد الجهال الضلال ويفعلون فيها خلوات ورياضات من غير أن يؤذن، وتقام فيهم الصلاة الخمس بل يتعبدون بعبادات لم يشرعها الله ورسوله بل يعبدونه بأذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لأحوالهم بالكتاب والسنة ولا قصد المتابعة لرسول الله الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] الآية، فهؤلاء أهل البدع والضلالات من حزب الشيطان لا من أولياء الرحمـٰن، فمن شهد لهم بولاية الله فهو شاهد زور كاذب وعن طريق الصواب ناكب.

ثم إن كان قد عرف أن هؤلاء مخالفون للرسول، وشهد مع ذلك أنهم من أولياء الله فهو مرتد عن دين الإسلام وإما مكذب للرسول، وإما شاك فيما جاء به مرتاب وإما غير منقاد له بل مخالف له إما جحودًا أو عنادًا أو اتباعًا لهواه وكل من هؤلاء كافر.

وأما إن كان جاهلًا بما جاء به الرسول، وهو معتقد مع ذلك إنه رسول الله إلى كل أحد في الأمور الباطنة والظاهرة وإنه لا طريق إلى الله إلا بمتابعته ﷺ، لكن ظن أن هذه العبادات البدعية والحقائق الشيطانية هي مما جاء بها الرسول ولم يعلم أنها من الشيطان، لجهله بسنته وشريعته ومنهاجه وطريقته وحقيقته؛ لا لقصد مخالفته، ولا يرجو الهدى في غير متابعته، فهذا يبين له الصواب ويعرف ما به من السنة والكتاب، فإن تاب وأناب وإلا ألحق بالقسم الذي قبله وكان كافرًا مرتدًا، ولا تنجيه عبادته ولا زهادته من عذاب الله، كما لم ينج من ذلك الرهبان وعباد الصلبان وعباد النيران وعباد الأوثان، مع كثرة من فيهم ممن له خوارق شيطانية، ومكاشفات شيطانية قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤].

قال سعد بن أبي وقاص وغيره من السلف نزلت في أصحاب الصوامع والديارات. وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا يتأولونها في الحرورية ونحوهم من أهل البدع والضلالات. وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢٢١، ٢٢٢] فالإفاك هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: الآيتان ١٥، ١٦].

ومَن تكلم في الدين بلا علم كان كاذبًا وإن كان لا يتعمد الكذب، كما ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفي عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع فكانت حاملًا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل، فقال لها أبو السنابل بن بعكك: ما أنت بناكحة حتى يمضي عليك آخر الأجلين، فقال النبي ﷺ: «كذب أبو السنابل، بل حللت فانكحي» وكذلك لما قال سلمة بن الأكوع أنهم يقولون: إن عامر قتل نفسه وحبط عمله فقال: «كذب من قالها؛ إنه لجاهد مجاهد» وكان قائل ذلك لم يتعمد الكذب فإنه كان رجلًا صالحًا، وقد روي أنه كان أسيد بن الحضير؛ لكنه لما تكلم بلا علم كذبه النبي ﷺ.

وقد قال أبو بكر وابن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتون به باجتهادهم: إن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه. فإذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا اجتهاد يبيح له الكلام

في الدين؟ فهذا خطؤه أيضًا من الشيطان مع أنه يعاقب عليه إذا لم يتب، والمجتهد خطؤه من الشيطان وهو مغفور له؛ كما أن الاحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا اجتهاد يبيح له ذلك، فهذا كاذب آثم في ذلك، وإن كانت له حسنات في غير ذلك فإن الشيطان ينزل على كل إنسان ويوحي إليه بحسب موافقته له، ويطرد بحسب إخلاصه لله وطاعته له قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحِجر: الآية ٤٢].

وعباده هم الذين عبدوه بما أمرت به رسله من أداء الواجبات والمستحبات، وأما من عبده بغير ذلك فإنه من عباد الشيطان؛ لا من عباد الرحمـٰن. قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يَس: الآيات ٦٠ - ٦٢].

والذين يعبدون الشيطان أكثرهم لا يعرفون أنهم يعبدون الشيطان بل قد يظنون أنهم يعبدون الملائكة أو الصالحين، كالذين يستغيثون بهم ويسجدون لهم فهم في الحقيقة إنما عبدوا الشيطان وإن ظنوا أنهم يتوسلون ويستشفعون بعباد الله الصالحين. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سَبأ: الآيتان ٤٠، ٤١].

ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها فإن الشيطان يقارنها حينئذٍ حتى يكون سجود عباد الشمس له، وهم يظنون إنهم يسجدون للشمس وسجودهم للشيطان، وكذلك أصحاب دعوات الكواكب الذين يدعون كوكبًا من الكواكب ويسجدون له ويناجونه ويدعونه ويصنعون هل من الطعام واللباس والبخور والتبركات[1] ما يناسبه، كما ذكره صاحب «السر المكتوم» المشرقي، وصاحب «الشعلة النورانية» البوني المغربي وغيرهما فإن هؤلاء تنزل عليهم أرواح تخاطبهم وتخبرهم ببعض الأمور وتقضي لهم بعض الحوائج ويسمون ذلك روحانية الكواكب.

ومنهم مَن يظن أنها ملائكة وإنما هي شياطين تنزل عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرُف: الآية ٣٦] وذكر الرحمـٰن هو الذي أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

---

(١) في نسخة: «والتسبيحات».

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢] وهو الذكر الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑨﴾ [الحِجر: الآية ٩] فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه.

وإذا كان مواليًا للرحمٰن تارة وللشيطان أخرى كان فيه من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمٰن، وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان، كما قال حذيفة بن اليمان: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر ـ و«الأغلف» الذي يلف عليه غلاف. كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٥] وقد تقدم قوله ﷺ: «من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه» ـ وقلب منكوس فذلك قلب المنافق. وقلب فيه مادتان: مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له. وقد روي هذا في «مسند الإمام أحمد» مرفوعًا.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «أربع من كان فيه كان منافقًا خالصًا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فقد بيّن النبي ﷺ أن القلب يكون فيه شعبة نفاق، وشعبة إيمان. فإذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته؛ ولهذا يكون بعض هؤلاء يجري على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه تكون من كرامات الأولياء، وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين ولهذا أمرنا الله تعالى: أن نقول كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾ [الفَاتِحَة: الآيتان ٦، ٧].

والمغضوب عليهم: هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، والضالون الذين يعبدون الله بغير علم. فمن اتبع هواه وذوقه ووجده، مع علمه أنه مخالف للكتاب والسنة فهو من ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] وإن كان لا يعلم ذلك فهو من «الضالين».

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والحمد لله رب العالمين. والعاقبة للمتقين. وصلى الله على محمد.

وسئل عمّن يقول: الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق. هل قوله صحيح؟؟.

فأجاب: إن أراد بذلك الأعمال المشروعة الموافقة للكتاب والسنة: كالصلاة، والصدقة، والجهاد، والذكر، والقراءة وغير ذلك. فهذا صحيح.

وإن أراد إلى الله طريقًا مخالفًا للكتاب والسنة: فهو باطل. والله أعلم.

في شرح كلمات للشيخ أبي محمد عبد القادر في كتاب «فتوح الغيب»

قال شيخ الإسلام: علّامة الزمان، أبو العباس أحمد ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ ونور ضريحه:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر في كتاب «فتوح الغيب»:

لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به.

فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم بها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله».

قلت هذا كلام شريف، جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد، وهي مطابقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠] ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٠] ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦]؛ فإن «التقوى» تتضمن: فعل المأمور، وترك المحظور، و«الصبر» يتضمن: الصبر على المقدور. «فالثلاثة» ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر، وهو طاعة الله ورسوله.

فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله، وهو: أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّارِيَات: الآية ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: الآية ٩٩]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١].

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٤٥].

وإنما كانت «الثلاثة» ترجع إلى امتثال الأمر؛ لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعل [شيء] من الفرائض: كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك يحتاج إلى فعل ذلك المأمور، وفي الوقت الذي تحدث أسباب المعصية يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك، وهذا فعل لما أمر به في هذا الوقت، وأما من لم تخطر له المعصية ببال فهذا لم يفعل شيئًا يؤجر عليه، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب، والعدم المحض المستمر لا يؤمر به، وإنما يؤمر بأمر يقدر عليه العبد، وذاك لا يكون إلا حادثًا: سواء كان إحداث إيجاد أمر، أو إعدام أمر.

وأما «القدر الذي يرضى به» فإنه إذا ابتلى بالمرض أو الفقر أو الخوف فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب، ومأمور بالرضا، إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب؛ وللعلماء من أصحابنا وغيرهم في ذلك قولان، ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله، فهو من امتثال الأمر وهو عبادة لله.

لكن هذه «الثلاثة» وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والاقتران: إما أن تخص بالذكر وإما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا، كما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ١٢٣] وقوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: الآية ١٤] فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق اسم العبادة، وعند «الاقتران» إما أن يقال: ذكره عمومًا وخصوصًا، وإما أن يقال ذكره خصوصًا يغني عن دخوله في العام.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المُزمّل: الآيات ٨ - ١٠] وقد يقال: لفظ «التبتيل» لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة.

وبالجملة: فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان ابتداء، وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة، أو عند حب الشيء وبغضه.

وكلام الشيخ ـ قدس الله روحه ـ يدور على هذا القطب، وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويخلو فيما سواهما عن إرادة؛ لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله

به، وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عزَّ وجلّ بلا واسطة العبد، أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد. فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به.

وسيأتي في كلام الشيخ ما يبين مراده، وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أمر به، ويترك ما نهي عنه. وأما إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله، وهذه هي «الحقيقة» في كلام الشيخ وأمثاله. وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أن هذا نوعان:

أحدهما: أن يكون العبد مأمورًا فيما فعله الرب. إما بحب له وإعانة عليه. وإما ببغض له ودفع له.

والثاني: أن لا يكون العبد مأمورًا بواحد منهما.

فالأول: مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه: كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان، وبمحبة ذلك الرضا به، وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير: إما بنصر مظلوم، وإما بتعزية مصاب، وإما بإغناء فقير نحو ذلك.

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه فمثل: ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه، وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان».

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما: فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له إنه يستعان بها على طاعة ولا معصية. فهذه لا يؤمر بحبها، ولا يبغضها، وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية.

مع أن هذا نقص منه، فإن الذي ينبغي أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة، فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه، فكان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإما من فعل المباحات مع الغفلة، أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع إداء الفرائض واجتناب المحارم باطنًا وظاهرًا، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين.

و(بالجملة) الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستوية من كل وجه، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيرًا للعبد؛ وإلا كان تركها خيرًا

له وإن لم يعاقب عليها، ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة عدمها خير من وجودها، إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله، فإنها تكون شاغلة له عن ذلك، وأما إذا قدر إنها تشغله عما دونها فهي خير له مما دونها، وأن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه، وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيرًا له من هذا وهذا.

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الاستعانة بها على الطاعة كالنوم للذي يقصد به الاستعانة على العبادة؛ والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة إذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصًا من العبد وفوات حسنة وخير يحبه الله. ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك».

وقال في الصحيح: «نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة».

فما لا يحتاج إليه من المباحات، أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه.

وقد قال النبي ﷺ: «في بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله! يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر. قال: «أرأيتم لو وضعها في الحرام أما كان عليه وزر؟» قالوا: بلى! قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر. فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال».

وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله، ويقصد فعل المباح معتدًا أن الله أباحه «والله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» كما رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره، ولهذا أحب القصر والفطر، فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها، وإن فعل مباحًا لما اقترن به من الاعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله. فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى.

وأيضًا فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات، هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش، ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبًا للوعيد، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم، وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه، بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه. فقول النبي ﷺ: «في بضع أحدكم صدقة» فإن المباضعة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك، فإن قضاء حاجتها التي لا تنقضي إلا به بالوجه المباح صدقة.

و«السلوك» سلوكان:

سلوك الأبرار أهل اليمين: وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنًا وظاهرًا.

والثاني: سلوك المقربين السابقين، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم، كما قال النبي ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

وكلام الشيوخ الكبار: كالشيخ «عبد القادر» وغيره يشير إلى هذا السلوك؛ ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو مكروه غير محرم، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة، وبالعامة ملك العامة، وطريق الخاصة طريق المقربين أن لا يفعل العبد إلا ما أمر به، ولا يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته، وهو ما يحبه الله ويرضاه، ويريده إرادة دينية شرعية، وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقًا وتكوينًا.

والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقًا غير مقدور عقلًا، ولا مأمور شرعًا؛ وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه ولا تجوز إرادته، كمن أراد تكفير الرجل أو تكفير أهله، أو الفجور به أو بأهله أو أراد قتل النبي وهو قادر على دفعه، أو أراد إضلال الخلق وإفساد دينهم ودنياهم، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهتها؛ لا تجوز إرادتها.

وأما الامتناع عقلًا؛ فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره، فهو عند الجوع يحب ما يغنيه كالطعام، ولا يحب ما لا يغنيه كالتراب فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء.

وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذي ينفعه، ويبغض الكفر والفسوق الذي يضره، بل ويحب الله وعبادته وحده، ويبغض عبادة ما دونه. كما قال الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٧٥ - ٧٧] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: الآية ٤].

فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرؤوا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله، وقال الخليل: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ٢٦، ٢٧] والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب، وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله، ويحب ما يحبه الله لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥].

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله، والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لآلهتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم.

فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه، وبغض ما يضره لم يمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرةً وخلقًا، ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريدًا لجميع الحوادث، بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة أخرى.

والرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بعثوا بتكميل الفطرة وتقريره لا بتحويل الفطرة وتغييرها. وقد قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا».

و«الحنيفية» هي الاستقامة بإخلاص الدين لله، وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيء، لا في الحب ولا في الذل، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده، والتوكل على الله وحده.

والرسول يطاع ويحب، فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: الآية ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبَة: الآية ٥٩].

وهذا حقيقة دين الإسلام.

والرسل بعثوا بذلك، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشّورى: الآية ١٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥١، ٥٢].

فهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به، فلا بد أن يكون مريدًا محبًّا لما أمره الله بإرادته ومحبته، كارهًا مبغضًا لما أمره الله بكراهته وبغضه.

والناس في هذا الباب أربعة أنواع:

أكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك. فيأمرون بما أمر الله به ورسوله، ولا يأمرون بغير ذلك، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله، ولا ينهون عن غير ذلك، وهذه حال الخليلين أفضل البرية: محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا» وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «إني والله لا أعطي أحدًا، ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت».

وذكر؛ إن ربه خيره بين أن يكون نبيًا ملكًا؛ وبين أن يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا. فإن «النبي الملك» مثل داود وسليمان، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [صَ: الآية ٣٩] قالوا: معناه أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك..

«فالنبي الملك» يعطي بإرادته لا يعاقب على ذلك، كالذي يفعل المباحات بإرادته، وأما «العبد الرسول» فلا يعطي ولا يمنع إلا بأمر ربه، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية، والسابقون المقربون اتباع العبد الرسول، والمقتصدون أهل اليمين اتباع النبي الملك، وقد يكون للإنسان حال هو فيها خال عن الإرادتين: وهو أن لا تكون له إرادة في عطاء ولا منع، لا إرادة دينية هو مأمور بها، ولا إرادة نفسانية سواء كان منهيًا عنها أو غير منهي عنها، بل ما وقع كان مرادًا له، ومهما فعل به كان مرادًا له، من غير أن يفعل المأمور به شرعًا في ذلك.

فهذا بمنزلة من له أموال يعطيها وليس له إرادة في إعطاء معين، لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة؛ بل يعطي كل أحد. فهذا إذا قدر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ولكنه خفي عليه الإرادة الشرعية في تفصيل أفعاله. فإنه لا يذم على ما فعل ولا يمدح مطلقًا. بل يمدح لعدم هواه، ولو علم تفصيل المأمور به وإرادة إرادة شرعية لكان أكمل. بل هذا مع القدرة إما واجب وإما مستحب. وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه؛ وإن كان ذلك مباحًا له، وهو دون من يريد بأمر ربه ولا بهواه، ولا بالقدر المحض.

فمضمون هذا المقام أن الناس في المباحات من الملك والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام:

قوم لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعي. وهو حال نبينا ﷺ. وهو حال العبد الرسول ومن اتبعه في ذلك.

وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التي ليست محرمة. وهذا حال النبي الملك. وهو حال الأبرار أهل اليمين.

وقوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا.

أما «الأول» فلعدم علمهم به. وأما «الثاني» فلزهدهم فيه؛ بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض، اتباعًا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية، وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعي معلوم، وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلهام يقع في قلوبهم وخطاب.

وكلام «الشيخ عبد القادر» ـ«قدس الله روحه ـ كثيرًا ما يقع في هذا المقام؛ فإنه يأمر بالزهد في إرادة النفس وهواها، حتى لا يتصرف بحكم الإرادة والنفس، وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين وعن طريق الملوك مطلقًا، ومن حصل هذا وتصرف بالأمر الشرعي المحمدي القرآني فهو أكمل الخلق، لكن هذا قد يخفى عليه؛ فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أو يتعسر في كثير من المواضع ألا ترى أن النبي ﷺ لما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بقتل مقاتلتهم، وبسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم. قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». وذلك أن تخيير ولي الأمر بين القتل والاسترقاق، والمن والفداء ليس تخيير شهوة، بل تخيير رأي ومصلحة، فعليه أن يختار الأصلح، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله، وإلا فلا.

ولما كان هذا يخفي كثيرًا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك» والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده، فلما أمر سعد بما هو الأرضى لله، والأحب إليه، حكم بحكمه، ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه فإنه حكم باجتهاده، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله في الباطن.

ففي مثل هذه الحال التي لا يتبين الأمر الشرعي في الواقعة المعينة يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيخ: «تارة» بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك، و«تارة» بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجحة من جهة الشرع، كما يرجح الشارع بالقرعة. فهم يأمرون أن لا يرجح بمجرد إرادته وهواه، فإن هذا إما محرم وإما مكروه، وإما منقص، فهم في هذا النهي كنهيهم عن فضول المباحات.

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به، وإلا رجحوا: إما «بسبب باطن» من الإلهام والذوق، وإما «بالقضاء والقدر» الذي لا يضاف إليهم. ومن يرجح في مثل

هذه الحال «باستخارة الله» كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن، فقد أصاب.

وهذا كما إنه إذا تعارضت أدلة «المسألة الشرعية» عند الناظر المجتهد، وعند المقلد المستفتي، فإنه لا يرجح شيئًا؛ بل ما جرى به القدر أقروه، ولم ينكروه. وتارة يرجح أحدهم: إما بمنام، وإما برأي مشير ناصح، وإما برؤية المصلحة في أحد الفعلين.

وإما الترجيح بمجرد الاختيار، بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره. فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام، وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام، ولكن قاله طائفة من الفقهاء في العامي المستفتي: إنه يخير بين المفتين المختلفين. وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجح بمجرده ذوقه وإرادته، فالترجيح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمر علمي باطن ولا ظاهر، لا يقول به أحد من أئمة العلم والزهد. فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا.

ولكن من جوز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من شرع للسلك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه.

لكن قد يقال: القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي. وعلى هذا التقدير ليس من هذا فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله، وبغض ما يكرهه الله، إذا لم يدر في الأمر المعين هل هو محبوب لله أو مكروه، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه كان هذا ترجيحًا عنده. كما لو أخبره من صدقه أغلب من كذبه، فإن الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه الترجيح ترجيح بدليل شرعي.

ففي الجملة متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحًا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام طريقًا على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقًا شرعيًا على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحًا، وألهم حينئذٍ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة؛ والأحاديث الضعيفة، والظواهر الضعيفة، والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب، والخلاف وأصول الفقه.

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: الآية ٧٥]». وقال عمر بن الخطاب: اقتربوا من أفواه المطيعين؛ واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى

لهم أمور صادقة. وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي».

وأيضًا فالله سبحانه وتعالى فطر عباده على الحنيفية: وهو حب المعروف، وبغض المنكر، فإذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق، فإذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الإيمان، منوّرة بنور القرآن، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة، ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين، كان هذا من أقوى الإمارات عند مثله، وذلك أن الله علم القرآن والإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: الآية ٥١] الآية. ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] وقال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا.

وفي الصحيحين عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة».

وفي الترمذي وغيره حديث النواس عن النبي ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا. وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط. فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابًا من تلك الأبواب ناداه المنادي ـ أو كما قال ـ يا عبد الله! لا تفتحه، فإنك أن تفتحه تلجه. والداعي على رأسه الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن».

فقد بيّن أن في قلب كل مؤمن واعظ، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر. كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ﴾ [النور: الآية ٣٥] قال بعض السلف في الآية: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا سمع بالأثر كان نورًا على نور. نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل؛ فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

وقد يؤتي العبد أحدهما ولا يؤتي الآخر. كما في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها

طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر».

والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون آخر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر» والمحدث الملهم المخاطب، وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة «البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب والإثم ما حاك في نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك» وهو في السنن.

وفي صحيح مسلم عن النواس عن النبي ﷺ قال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» وقال ابن مسعود: الإثم حزاز القلوب.

وأيضًا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقينًا أو ظنًا، فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج، لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفًا بدليل، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن، ولا يمكنه التعبير عنه، وهذا أحد ما فسر به معنى «الاستحسان».

وقد قال من طعن في ذلك ـ كأبي حامد وأبي محمد ـ: ما لا يعبر عنه فهو هوس، وليس كذلك؛ فإنه ليس كل أحد يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، وكثير من الناس يبينها بيانًا ناقصًا، وكثير من أهل الكشف يلقي في قلبه أن هذا الطعام حرام، أو أن هذا الرجل كافر أو فاسق، من غير دليل ظاهر، وبالعكس قد يلقي في قلبه محبة شخص وإنه ولي لله أو أن هذا المال حلال.

وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام الشرعية؛ لكن أن مثل هذا يكون ترجيحًا لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة. فالترجيح بها خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعًا. فإن التسوية بينهما باطلة قطعًا. كما قلنا: إن العمل بالظن الناشىء عن ظاهر أو قياس خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما. والصواب الذي عليه السلف والجمهور إنه لا بد في كل حادثة من دليل شرعي، فلا يجوز تكافؤ الأدلة في نفس الأمر، لكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له، وأما من قال: إنه ليس في نفس الأمر حقٌّ معين، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة، وليس لأحدهما على الآخر مزية في علم ولا عمل، فهؤلاء قد

يجوزون أو بعضهم تكافؤ الأدلة، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين، وهؤلاء يقولون ليس على الظن دليل في نفس الأمر؛ وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة، كترجيح النفس الغضبية للانتقام، والنفس الحليمة للعفو.

وهذا القول خطأ؛ فإنه لا بد في نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى. كالكعبة في حق من اشتبهت عليه القبلة والمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى جهة سقط عنه الفرض بالصلاة إليها، كالمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه كلاهما مطيع لله، وهو مصيب بمعنى إنه مطيع لله وله أجر على ذلك؛ وليس مصيبًا بمعنى أنه علم الحق المعين؛ فإن ذلك لا يكون إلا واحدًا ومصيبه له أجران وهذا في كشف الأنواع التي يكون عليها دليل شرعي لكن قد يخفى على العبد. فإن الشارع بين الأحكام الكلية.

وأما الأحكام المعينات التي تسمى «تنقيح المناط» مثل كون الشخص المعين عدلًا أو فاسقًا أو مؤمنًا أو منافقًا أو وليًا لله أو عدوًا له، وكون هذا المعين عدوًا للمسلمين يستحق القتل، وكون هذا العقار ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه، وكون هذا المال يخاف عليه من ظلم ظالم، فإذا زهد فيه الظالم انتفع به أهله، فهذه الأمور لا يحب أن تعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها.

ومن طرق ذلك «الإلهام» فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين، وحال هذا الشخص المعين، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره.

وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب، ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالى؛ فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله، لكن فيها علم حال ذاك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها، لعلمه بأنه أتى بها هدية له، ونحو ذلك. ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح.

والنوع الثاني: عكس هذا. وهو إنهم يتبعون هواهم، لا أمر الله؛ فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم، ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهونه بهواهم، وهؤلاء شر الخلق. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٣] قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه. وقالت عالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القَصص: الآية ٥٠] وقال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه،

فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق، وتعاقب على ما خالفته. وهو كما قال رضي الله عنه لأنه في الموضعين إنما قصد اتباع هواه لم يعمل لله.

ألا ترى أن أبا طالب نصر النبي ﷺ، وذب عنه أكثر من غيره؛ لكن فعل ذلك لأجل القرابة، لا لأجل الله تعالى، فلم يتقبل الله ذلك منه، ولم يثبه على ذلك؟!.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أعانه بنفسه وماله لله؛ فقال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: الآيات ١٧ - ٢١].

القسم الثالث: الذي يريد تارة إرادة يحبها الله وتارة إرادة يبغضها الله، وهؤلاء أكثر المسلمين فإنهم يطيعون الله تارة، ويريدون ما أحبه، ويعصونه تارة ويريدون ما يهوونه، وإن كان يكرهه.

والقسم الرابع: إن يخلو عن الإرادتين، فلا يريد لله ولا لهواه، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء، ويقع لكثير من الزهاد والنساك في كثير من الأمور.

وأما خلو الإنسان عن الإرادة مطلقًا فممتنع، فإنه مفطور على إرادة ما لا بد له منه وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه، والزاهد الناسك إذا كان مسلمًا فلا بد أن يريد أشياء يحبها الله: مثل أداء الفرائض وترك المحارم، بل وكذلك عموم المؤمنين لا بد أن يريد أحدهم أشياء يحبها الله، وإلا فمن لم يحب الله، ولا أحب شيئًا لله، فلم يحب شيئًا من الطاعات، لا الشهادتين ولا غيرهما ولا يريد ذلك فإنه لا يكون مؤمنًا، فلا بد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله؛ وأما إرادة العبد لما يهواه ولا يحبه الله، فهذا لازم لكل من عصى الله، فإنه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها. وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة فيقع على وجهين:

أحدهما: مع إعراض العبد عن عبادة الله تعالى وطاعته وإن علم بها، فإنه قد يعلم كثيرًا من الأمور إنه مأمور بها، وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها، وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريدًا لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله، ولا لانتصار هؤلاء الذي يبغضه الله.

والوجه الثاني: يقع من كثير من الزهاد العباد الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه، وأمور أخرى لا يعلمون إنها مأمور بها ولا منهي عنها، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم، وقد يرضونها من جهة كونها مخلوقة مقدرة، وقد يعاونون عليها، ويرون هذا موافقة لله وإنهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث؛ بل والمعاونة عليه. وهذا موضع يقع فيه الغلط، فإن ما

أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبه الله ورسوله، وما أبغضه الله ورسوله فعلينا أن نبغض ما أبغضه الله ورسوله، وأما ما لا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تكليف فيها مثل أفعال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لا يحبها ويرضاها ولا يكرهها ويذمها، فالمؤمن أيضًا لا ينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها.

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها، بل هو شامل لجميع المخلوقات. والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته، وقد أحسن كل شيء خلقه، والرضا بالقضاء ثلاثة أنواع:

أحدها: الرضا بالطاعات؛ فهذا طاعة مأمور بها.

والثاني: الرضا بالمصائب، فهذا مأمور به: إما مستحب، وإما واجب.

والثالث: الكف والفسوق والعصيان، فهذا لا يؤمر بالرضا به، بل يؤمر ببغضه وسخطه، فإن الله لا يحبه ولا يرضاه. كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٨] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] وقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧]وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٠].

وهو وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التي يحبها، كما خلق الشياطين. فنحن راضون عن الله في أن يخلق ما يشاء، وهو محمود على ذلك.

وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله فلا نرضى به ولا نحمده. وفرق بين ما يحب لنفسه، وما يراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضًا من جهة أخرى؛ فإن الأمر الواحد يراد من وجه ويكره من وجه آخر. كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه؛ فإنه يبغض الدواء ويكرهه، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب، لا لأنه في نفسه محبوب.

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت كان هذا مقتضيًا أن يكره إماتته مع أنه يريد إماتته؛ لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى. فالأمور التي يبغضها الله تعالى وينهي عنها لا تحب ولا ترضى؛ لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها، لما له في ذلك من الحكمة، فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغي أن تحب ولا ترضى كما لا ينبغي أن تبغض.

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، كان حقًا على الله أن يرضيه» وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله، إذ له الحمد على كل حال، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خلق لأجلها ما خلق وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات، فحيث انتفى الأمر الشرعي أو خفي الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة، كما يكون في الأمور الشرعي، وإن كان ذلك مقدورًا.

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة «السالكين» وشيوخهم، فضلًا عن عامتهم، ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له.

فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له، فهذا تكون حاله أحسن ممن يقصر عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له.

ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي، ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية، ويبقى واقفًا مع هواه والقدر.

ومن هؤلاء من يموت كافرًا، ومنهم من يتوب الله عليه، ومنهم من يموت فاسقًا، ومنهم من يتوب الله عليه.

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي ولا بد مع ذلك من اتباع أمر ونهي غير الأمر الشرعي، إما من أنفسهم وإما من غير الله ورسوله، إذ الاسترسال مع القدر مطلقًا ممتنع لذاته. لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.

وقول من قال: «إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل» لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عن أحد من المسلمين، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع؛ ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه. فلا بد أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه.

فصل

وكما أن الطريقة العلمية بصحة النظر في الأدلة والأسباب هي الموجبة للعلم: كتدبر القرآن والحديث، فالطريقة العملية بصحة الإرادة والأسباب هي الموجبة للعمل، ولهذا يسمون السالك في ذلك «المريد» كما يسميه أولئك «الطالب» و«النظر» جنس تحته حق وباطل، ومحمود ومذموم، وكذلك «الإرادة».

فكما أن طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي الشرعي، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية، ويكون علمك بها مطابقًا لما أخبرت به الرسل، وإلا فلا

ينفعك أي معلوم علمته، ولا أي شيء اعتقدته فيما أخبرت به الرسل، بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فكذلك «الإرادة» لا بد فيها من تعيين «المراد» وهو الله و«الطريق إليه» وهو ما أمرت به الرسل. فلا بد أن تعبد الله وتكون عبادتك إياه بما شرع على ألسنة رسله، إذ لا بد من تصديق الرسول فيما أخبر علمًا، ولا بد من طاعته فيما أمر عملًا.

ولهذا كان «الإيمان» قولًا وعملًا مع موافقة السنة، فعلم الحق ما وافق علم الله، والإرادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه، وهو حكمه الشرعي، والله عليم حكيم.

فالأمور الخبرية لا بد أن تطابق علم الله وخبره؛ والأمور العملية لا بد أن تطابق حب الله وأمره، فهذا حكمه، وذاك علمه.

وأما مَن جعل حكمه مجرد القدر، كما فعل صاحب «منازل السائرين» وجعل مشاهدة العارف الحكم بمنعه أن يستحسن حسنة أو يستقبح سيئة، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه في غير هذا الموضع. فلا ينفع المريد القاصد أن يعبد أي معبود كان، ولا أن يعبد الله بأي عبادة كانت، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله، وأما أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده، ويعبدونه بما شرع. لا يعبدونه بالبدع إلا ما يقع من أحدهم خطأ.

فالسالكون طريق الإرادة قد يغلطون تارة في المراد؛ وتارة في الطريق إليه، وتارة يألهون غير الله بالخوف منه والرجاء له، والتعظيم والمحبة له وسؤاله والرغبة إليه، فهذا حقيقة الشرك المحرم، فإن حقيقة التوحيد أن لا يعبد إلا الله.

و«العبادة» تتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء، والخشية، والإجلال والإكرام، و«الفناء» في هذا التوحيد فناء المرسلين واتباعهم، وهو أن تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبسؤاله عن سؤال ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبحبه والحب فيه عن محبة ما سواه والحب فيه.

وأما الغالطون في الطريق فقد يريدون الله: لكن لا يتبعون الأمر الشرعي في إرادته، لكن «تارة» يعبده أحدهم بما يظنه يرضيه، ولا يكون كذلك. و«تارة» ينظرون القدر لكونه مراده، فيفنون في القدر الذي ليس لهم فيه غرض، وأما الفناء المطلق فيه فممتنع، وهؤلاء يفنى أحدهم متبعًا لذوقه ووجده المخالف للأمور الشرعي، أو ناظرًا إلى القدر. وهذا يبتلى به كثير من خواصهم.

و«الشيخ عبد القادر» نحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمرًا بالتزام الشرع، والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ أمرًا بترك الهوى والإرادة النفسية. فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما تقع من هذه الجهة؛ فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلًا؛ بل يريد ما يريده الرب عزَّ وجلّ: إما إرادة شرعية أن تبين له ذلك؛ والأجرى مع الإرادة القدرية، فهو إما مع أمر الرب، وإما مع خلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وهذه «طريقة شرعية صحيحة» إنما يخاف على صاحبها من ترك إرادة شرعية لا يعلم إنها شرعية، أو من تقديم إرادة قدرية على الشرعية فإنه إذا لم يعلم إنها شرعية فقد يتركها، وقد يريد ضدها، فيكون ترك مأمورًا أو فعل محظورًا وهو لا يعلم. فإن «طريقة الإرادة» يخاف على صاحبها من ضعف العلم؛ وما يقترن بالعلم من العمل، والوقوع في الضلال، كما أن طريقة العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل، وضعف العلم الذي يقترن بالعمل لكن لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها من هذا وهذا. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦] فإذا نفقه السالك، وتعلم الأمر والنهي بحسب اجتهاده، وكان علمه وإرادته بحسب ذاك، فهذا مستطاعه. وإذا أدى الطالب ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وكان علمه مطابقًا لعمله، فهذا مستطاعه.

فصل

قال: «الشيخ عبد القادر» قدس الله روحه: «افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذٍ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله».

قلت: فحكمه يتناول خلقه وأمره أي: افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة، وإما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقًا للأمر الشرعي لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه. فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات.

فالأول يكون بالأمر و«الثاني» لا تكون له إرادة. ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئًا دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقًا للقدر أم لا. وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين. والغالب على الصادقين منهم إنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

قال الشيخ: «فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم». وهو كما قال.

فإذا كان القلب لا يرجوهم، ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم وهذا يشبه بما يكون مأمورًا به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عما نهاهم الله عنه، كذهاب الرسل، واتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد. ليكون عابدًا لله متوكلًا عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به؛ فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل، أو مثله أو دونه، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب؛ بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه.

قال الشيخ: «وعلامة فنائك عنك وعن هواك؛ ترك التكسب، والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر، فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك، ولا تذب عنك، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولًا فيتولاه آخرًا. كما كان ذلك موكولًا إليه في حال كونك مغيبًا في الرحم، وكونك رضيعًا طفلًا في مهدك».

قلت: وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ودفع ما تبغضه ويضرها، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ويترك ما يبغضه الله عما يبغضه وحينئذٍ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلًا على الله.

والشيخ رحمه الله، ذكر هنا التوكل دون الطاعة؛ لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك واثقة به لم يمكن أن تنصرف عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقًا؛ بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هُود: الآية ١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المُزمّل: الآيتان ٨، ٩].

والمقصود أن: امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة، ومن كان واثقًا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره.

قال الشيخ رضي الله عنه: «وعلامة فناء إرادتك بفعل ذلك أنك لا تريد مرادًا قط، فلا يكن لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مرام؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله، ساكن الجوارح مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، عامر الباطن، غنيًا عن الأشياء بخالقها، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملك ويكسوك نورًا منه والحلل، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول، فتكون منكسرًا أبدًا.

فلا تثبت فيك شهوةٌ ولا إرادةٌ: كالإناء المتثلم ـ الذي لا يثبت فيه مانع ولا كدر فتفنوا عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك ساكنًا غير إرادة الله، فحينئذٍ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقًّا في العلم فتدخل حينئذٍ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية. كما قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقًا لما أشرت إليه وتقدم، قال الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» وساق كلامه. وفيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل» الحديث.

قلت: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأمورًا بإرادته، فقوله: علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادًا قط. أي لا تريد مرادًا لم تؤمر بإرادته، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه، فإرادته إما واجب وإما مستحب، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص.

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين، فيظنون أن الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادة أصلًا، وأن قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» ـ لما قيل له: ماذا تريد؟ ـ نقص وتناقض؛ لأنه قد أراد، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقًا، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقًا، فإن هذا غلط ممن قاله، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور.

فإن الحيّ لا بد له من إرادة، فلا يمكن حيًا أن لا تكون له إرادة، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركًا لما هو خير له.

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه «الإرادة» فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ

عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: الآيتان ١٩، ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: الآية ٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: الآية ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: الآية ١٩] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: الآيتان ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر: الآية ١٤] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: الآية ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

ولا عبادة إلا بإرادة الله، ولما أمر به. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: الآية ١١٢] أي أخلص قصده لله. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: الآية ٥] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة. وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١]. وكل محب فهو مريد. وقال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] ثم قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩].

ومثل هذا كثير في القرآن: يأمر الله بإرادته، وإرادة ما يأمر به، وينهي عن إرادة غيره، وإرادة ما نهى عنه، وقد قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فهما «إرادتان» إرادة يحبها الله ويرضاها، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها، بل إما نهى عنها، وإما لم يأمر بها، ولا ينهي عنها والناس في الإرادة ثلاثة أقسام:

فقوم يريدون ما يهوونه، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان.

وقوم يزعمون إنهم فرغوا من الإرادة مطلقًا، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدره الرب، وإن هذا المقام هو أكمل المقامات. ويزعمون إن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة، وهي الحقيقة القدرية الكونية؛ وإنه شهد القومية العامة، ويجعلون الفناء في شهوده توحيد الربوبية، هو الغاية؛ وقد يسمون هذا الجمع والفناء والاصطلام، ونحو ذلك. وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع.

وفي «هذا المقام» كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية؛ فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه،

وهو شهود القدر؛ وسموا هذا مقام الجمع. فإنه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلًا يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات؛ ويكون متبعًا لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم شهد إنه خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد «الفرق الثاني» وهو بعد هذا الجمع، وهو الفرق الشرعي. ألا ترى إنك تريد ما أمرت به، ولا تريد ما نهيت عنه؟! وتشهد أن الله يستحق العبادة دون ما سواه، وإن عبادته هي بطاعة رسله، فتفرق بين المأمور والمحظور، وبين أوليائه وأعدائه، وتشهد توحيد الألوهية، فنازعوه في هذا الفرق:

منهم: مَن أنكره.

ومنهم: مَن لم يفهمه.

ومنهم: مَن ادّعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه.

ثم إنك تجد كثيرًا من الشيوخ إنما ينتهي إلى ذلك الجمع، وهو «توحيد الربوبية» والفناء فيه. كما في كلام صاحب «منازل السائرين» مع جلالة قدره، مع أنه قطعًا كان قائمًا بالأمر والنهي المعروفين، لكن قد يدعون إن هذا لأجل العامة.

ومنهم: مَن يتناقض.

ومنهم: مَن يقول الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة، وقد يعبر عنهم بأهل المارستان.

ومنهم: مَن يسمّي ذلك مقام التلبيس.

ومنهم: مَن يقول التحقيق أن يكون الجمع في قلبك مشهودًا، والفرق على لسانك موجودًا، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور مع تفريقه بينهما.

ومنهم: مَن يرى إن هذه هي الحقيقة التي هي منتهى سلوك العرافين، وغاية منازل الأولياء الصديقين.

ومنهم: مَن يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية، وأما في النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر، وهو في الحقيقة قول بسقوط العبادة والطاعة؛ فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنما تكون في امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور، وإن كان كفرًا أو فسوقًا أو عصيانًا، ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجار وخفرائهم، حيث شهدوا القدر معهم؛ ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين.

ومن هؤلاء مَن يقول: من شهد القدر سقط عنه الملام. ويقولون إن الخضر إنما سقط عنه الملام لما شهد القدر.

وأصحاب شهود القدر قد يؤتي أحدهم ملكًا من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف فيظن ذلك كما لا في الولاية؛ وتكون تلك «الخوارق» إنما حصلت بأسباب شيطانية، وأهواء نفسانية؛ وإنما الكمال في الولاية أن يستعمل خرق العادات في إقامة الأمر والنهي الشرعيين مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة، وإن حصلت بالأسباب الشرعية لكن استعملت ليتوصل بها إلى محرم كانت مذمومة، وإن توصل بها إلى مباح لا يستعان بها على طاعة كانت للأبرار دون المقربين، وأما إن حصلت بالسبب الشرعي واستعين بها على فعل الأمر الشرعي: فهذه خوارق المقربين السابقين.

فلا بد أن ينظر في «الخوارق» في أسبابها وغاياتها: من أين حصلت، وإلى ماذا أوصلت ـ كما ينظر في الأموال في مستخرجها ومصروفها ـ ومن استعملها ـ أعني الخوارق ـ في إرادته الطبيعية كان مذمومًا، ومن كان خاليًا عن الإرادتين الطبيعية والشرعية فهذا حسبه أن يعفى عنه، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية.

وأما إن عرفها وأعرض عنها فإنه يكون مذمومًا مستحقًا للعقاب إن لم يعف عنه، وهو يمدح بكون إرادته ليست بهواه؛ لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقة لأمر الله تعالى ورسوله، لا يكفيه أن تكون لا من هذا ولا من هذا، مع أنه لا يمكن خلوه عن الإرادة مطلقًا، بل لا بد له من إرادة، فإن لم يرد ما يحبه الله ورسوله، أراد ما لا يحبه الله ورسوله؛ لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما تهواه بقي مريدًا لما يظن أنه مأمورًا به، فيكون ضالًا.

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصارى. وقد قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: الآيتان ٦، ٧] وقد قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون».

فاليهود لهم إرادات فاسدة منهي عنها، كما أخبر عنهم: بأنهم عصوا وكانوا يعتدون. وهم يعرفون الحق ولا يعملون به، فلهم علم، لكن ليس لهم عمل بالعلم، وهم في الإرادة المذمومة المحرمة يتبعون أهواءهم ليسوا في الإرادة المحمودة المأمور بها، وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله.

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد لكنهم ضلال، يعملون بغير علم، فلا يعرفون الإرادة التي يحبها الله ورسوله، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات، فلا يبقى

مريدًا لما أمر الله به ورسوله، كما لا يريد كثيرًا مما نهى الله عنه ورسوله، وهؤلاء ضالون عن مقصودهم فإن مقصودهم إنما هو في طاعة الله ورسوله، ولهذا كانوا ملعونين: أي بعيدين عن الرحمة التي تنال بطاعة الله عزَّ وجلّ.

و«العالم الفاجر» يشبه اليهود. و«العابد الجاهل» يشبه النصارى. ومن أهله العلم من فيه شيء من الأول، ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثاني.

وهذا الموضع تفرق فيه بنو آدم، وتباينوا تباينًا عظيمًا، لا يحيط به إلا الله. ففيهم من لم يخلق الله خلقًا أكرم عليه منه، وهو خير البرية. ومنهم من هو شر البرية، وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين: إبراهيم ومحمد صلّى الله عليهما وسلّم ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الأولين والآخرين، وخاتم النبيين وإمامهم إذ اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم - إبراهيم وموسى وغيرهما.

وأفضل الأنبياء بعده «إبراهيم» ما ثبت في الصحيح: عن أنس عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم خير البرية» وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: إنه كان يقول في خطبة الجمعة: خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ. وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس، كما رواه البخاري في صحيحه.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله».

وقال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته؟» وكان بعض أهله إذا عنفني على شيء قال: «دعوه فلو قضي شيء لكان».

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، وله الوسيلة في المقامات كلها، ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئًا، ولا أنه يريد كل واقع، كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى، بل هو منزه عن هذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣] وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية ١] والمراد بعبده عابده المطيع لأمره: وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون.

وقد قال الله لنبيه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٩] قال الحسن البصري لم يجعل الله عمل المؤمن أجلًا دون الموت، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: الآية ٤] قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل على دين عظيم. و«الدين» فعل ما أمر به. وقالت عائشة: «كان خلقه القرآن» رواه مسلم. وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، لكن يعاقب لله وينتقم لله، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه، وأما حدود الله فقد قال: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» أخرجاه في الصحيحين.

وهذا هو كمال الإرادة؛ فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح، وأمر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، ونهى عن ذلك، كم وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧].

وأما لحظ نفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم بل يستوفي حق ربه، ويعفو عن حظ نفسه، وفي حظ نفسه ينظر إلى القدر. فيقول: «لو قضى شيء لكان» وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به، ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن، فجاهدهم أولًا بلسانه بالقرآن الذي أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٥١، ٥٢]. ثم لما هاجر إلى المدينة وأذن له في القتال، جاهدهم بيده.

وهذا مطابق لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة، وهو معروف أيضًا من حديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ في حديث احتجاج آدم وموسى لما لام موسى آدم لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبًا علي قبل أن أخلق بمدة طويلة، قال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى».

وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل، فذكر له آدم إن هذا كان أمرًا مقدرًا لا بد من كونه، والمصائب التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر؛ فإن هذا هو الذي ينفعهم. وأما لومهم لمن كان سببًا فيها فلا فائدة لهم في ذلك، وكذلك ما فاتهم من الأمور التي

تنفعهم يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر، وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه، فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم، أو حصول مضرة لهم، فلينظروا في ذلك إلى القدر، وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا في التوبة من المعاصي، والإصلاح في المستقبل. فإن هذا الأمر ينفعهم، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

أمر النبي ﷺ بحرص العبد على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العجز، وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله، وهي عبادة الله تعالى. وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] ونهاه عن العجز وهو الإضاعة والتفريط والتواني.

كما قال في الحديث الآخر: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» رواه الترمذي.

وفي سنن أبي داود: أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما. فقال: المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» فالكيس ضد العجز.

وفي الحديث: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس» رواه مسلم. وليس المراد بالعجز في كلام النبي ﷺ ما يضاد القدرة؛ فإن من لا قدرة له بحال لا يلام، ولا يؤمر بما لا يقدر عليه بحال.

ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز، أمره إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر ويقول: قدر الله وما شاء فعل، ولا يتحسر ويتلهف ويحزن. ويقول: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

وقد قال بعض الناس في هذا المعنى: الأمر أمران: أمر فيه حيلة وأمر لا حيلة فيه. فما فيه حيلة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه. وهذا هو الذي يذكره أئمة الدين. كما ذكر الشيخ عبد القادر وغيره. فإنه لا بد من فعل المأمور وترك المحظور، والرضا والصبر على المقدور. وقد قال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

«فالتقوى» تتضمن فعل المأمور وترك المحظور. و«الصبر» يتضمن الصبر على المقدور. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١١٨ ـ ١٢٠] فبيّن سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٥] فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة. وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذين بألسنتهم والمؤذين بأيديهم، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون، وهذا الذي كان خلق النبي ﷺ وهديه هو أكمل الأمور.

فإما من أراد ما يحبه الله تارة وما لا يحبه تارة، أو لم يرد لا هذا ولا هذا، فكلاهما دون خلق رسول الله ﷺ؛ وإن لم يكن على واحد منهما إثم، كالذي يريد ما أبيح له من نيل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين، فهو وإن كان جائزًا لا إثم فيه فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه.

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة وإن كان يستعان بها على أمر مستحب، ولم يرد أن يغضب وينتقم ويجاهد إذا جاز العفو وإن كان الانتقام لله أرضى لله. ما هو أيضًا خلق بعض الأنبياء والصالحين فهذا وإن كان جائزًا لا إثم فيه فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه.

وهذا والذي قبله إذا كان شريعة لنبي فلا عيب على نبي فيما شرع الله له.

لكن قد فضل الله بعض النبيين على بعض، وفضل بعض الرسل على بعض، والشريعة التي بعث الله بها محمدًا ﷺ أفضل الشرائع: إذ كان محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين، وأمته خير أمة أخرجت للناس. قال أبو هريرة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] كنت خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق. والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وأما غير الأنبياء

فمنهم من يكون ذلك شرعة لاتباعه لذلك النبي، وأما من كان من أهل شريعة محمد ﷺ ومنهاجه فإن كان ما تركه واجبًا عليه وما فعله محرمًا عليه كان مستحقًا للذم والعقاب، إلا أن يكون متأولًا مخطئًا فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة.

ومن أسباب هذا الانحراف أن من الناس من تغلب عليه «طريقة الزهد» في إرادة نفسه فيزهد في موجبه الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباده المشركين، وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم، وهؤلاء يرون الجهاد نقصًا لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء.

ومنهم مَن لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة، ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيوانًا ولا يأكل لحمه ولا ينكح النساء، ويقول مادحه: فلان ما نكح، ولا ذبح.

وقد أنكر النبي ﷺ على هؤلاء كما في الصحيحين عن أنس: أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟! لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٨٧] نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل، ونوع من الترهب.

وفي الصحيحين عن سعد قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا.

و«الزهد» النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فإما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن».

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكلما صده عن ذلك فإنه ضار لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له، وإن أدى الفرائض وفعل مباحًا لا يعينه على طاعة فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضره.

وكذلك «الورع» المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو ما يعلم تحريمه، وما يشك في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله - مثل محرم معين - مثل من يترك أخذ الشبهة ورعًا مع حاجته إليها ويأخذ بدل ذلك محرمًا بينا تحريمه، أو يترك واجبًا تركه أعظم فسادًا من فعله مع الشبهة، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها، ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهنة.

وكذلك من «الورع» الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه.

وتمام «الورع» أن يعم الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات. ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع.

وكذلك «الزهد والرغبة» من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك؛ وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل، أو أكل الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده، أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، لما في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

يقول سبحانه وتعالى وإن كان قتل النفوس فيه شر فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما.

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أن في ذبحه ظلمًا له هو جاهل، فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت، فإذا قتل لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيرًا من أن يموت موتًا لا ينتفع به أحد، والآدمي أكمل منه، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان في الأكل والركوب ونحو ذلك؛ لكن ما لا يحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه كصبر البهائم وذبحها

في غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح. كما في صحيح مسلم عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وهؤلاء الذين زهدوا في «الإرادات» حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بإزائهم طائفتان.

طائفة: رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان.

وطائفة: رغبت فيما أمر الله ورسوله، لكن لهواء أنفسهم لا لعبادة الله تعالى، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ: إنه قيل له: يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢].

وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة، فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرم، وهم يشبهون اليهود، كما يشبه أولئك النصارى. قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٢] وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعرَاف: الآيتان ١٧٥، ١٧٦].

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيًّا مع العلم بالحق، وأولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال والجهل بالحق. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: الآية ٧٧].

وكلا الطائفتين تاركة ما أمر الله ورسوله به من الإرادات، والأعمال الصالحة، مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة.

فصل

فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مرادًا قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عزَّ وجلّ سواها، بل يجري فعله فيه، فيكون هو مراد الحق. إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه، فأما ما علم أن الله أمر به فعليه أن يريده ويعمل به، وقد صرحوا بذلك في غير موضع. وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال، وهو «الفناء في توحيد الربوبية» وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر، فتلك أقوال وطرائق فاسدة قد تكلم عليها في غير هذا الموضع.

فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف: مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر، والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين. فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور، ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف.

وهذا كثير في كلامهم: كقول الشيخ عبد القادر في كتاب (فتوح الغيب): «اخرج من نفسك، وتنح عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى الله تبارك وتعالى، وكن بوابه على باب قلبك، وامتثل أمره تبارك وتعالى في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانته نهيه في صد من يأمرك بصده. فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه، وإخراج الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته، فلا ترد إرادة غير إرادته تبارك وتعالى، وغير ذلك منك غير، وهو واد الحمقى، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى، وحجابك عنه.

احفظ أبدًا أمره، وانته أبدًا نهيه، وسلم إليه أبدًا مقدوره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه، فلا ترد ولا تهوى ولا تشته لئلا يكون شركًا. قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب؛ بل هو أيضًا متابعتك لهواك، وأن تختار مع ربك شيئًا سواه من الدنيا وما فيها، والآخرة وما فيها، فما سواه تبارك وتعالى غيره، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به غيره، فاحذر ولا تركن، وخف ولا تأمن،

وفتش ولا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالًا ولا مقامًا، ولا تدع شيئًا من ذلك».

وقال الشيخ عبد القادر أيضًا؛ «إنما هو الله ونفسك، وأنت المخاطب، والنفس ضد الله وعدوته؛ والأشياء كلها تابعة لله، فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها كنت خصمًا له على نفسك ـ إلى أن قال ـ:

«فالعبادة» في مخالفتك نفسك وهواك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صٓ: الآية ٢٦] إلى أن قال:

والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي ـ رحمه الله تعالى ـ لما رأى رب العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال قال أبو زيد؛ فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها.

فإذا ثبت إن الخير كله في معادتها في الجملة في الأحوال كلها، فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من إجرام الخلق، وشبههم ومنتهم، والاتكال عليهم والثقة بهم، والخوف منهم؛ والرجاء لهم، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا، فلا ترج عطاءهم على طريق الهدية، أو الزكاة، أو الصدقة، أو الكفارة أو النذر، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب، فاخرج من الخلق جدًّا، واجعلهم كالباب يرد ويفتتح، وكالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخرى، كل ذلك بفعل فاعل، وتدبير مدبر، وهو الله تبارك وتعالى.

فإذا صحّ لك هذا كنت موحدًا له تبارك وتعالى، ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية، واعتقد أن الأفعال لا تتم لهم دون الله تبارك وتعالى؛ لكيلا تعبدهم، وتنسى الله تعالى، ولا تقبل فعلهم دون الله فتكفر، وتكون قدريًا، ولكن قل: هي لله خلقًا وللعباد كسبًا. كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب، وامتثل أمر الله فيهم، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه، فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم، فلا تكن أنت الحاكم، وكونك معهم قدر، والقدر ظلمة، فادخل في الظلمة بالمصباح وهو «الحكم»: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا تخرج عنهما.

فإن خطر خاطر أو وجدت إلهامًا فاعرضهما على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك، مثل أن تلهم بالزنا أو الربا أو مخالطة أهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك، واهجره ولا تقبله، ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين، وإن وجدت فيهما إباحته كالشهوات المباحة من الآكل والشرب واللبس والنكاح فاهجره أيضًا ولا تقبله، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها، وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها.

قلت: ومراده بهجر المباح إذا لم يكن مأمورًا به، كما قد بين مراده في غير هذا الموضع. فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعمة الله عليه، وكان واجبًا عليه، وقد قدمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقربين؛ لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين.

قال: «وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته بل هو أمر لا تعقله، مثل أن يقال لك ائت موضع كذا وكذا، الق فلانًا الصالح؛ ولا حاجة لك هناك ولا في الصالحة؛ لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمه من العلم والمعرفة، فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه. فتقول: هل هذا إلهام إلا من الحق فاعمل به؟ بل انتظر الخير في ذلك، وفعل الحق بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى يفعلها العقلاء من أولياء الله، والمؤيدون من الإبدال.

وإنما لم تبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه وربما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون عزَّ وجلّ هو الفاعل فيك، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولًا محفوظًا فيها؛ لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله، وإنما تتطرق العقوبات نحوك لكونك في الشيء».

قلت: فقد أمر رضي الله عنه بأن ما كان محظورًا في الشرع يجب تركه ولا بد، وما كان معلومًا إنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضًا، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو فيه مضرة مثل السفر إلى مكان معين أو شخص معين، والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين، فإن جنس هذا العلم ليس محرمًا ولا كل أفراده مباحة؛ بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر في دينه فأمره بالكف عن الذهاب حتى يظهر أو يتبين له في الباطن إن هذا مصلحة لأنه إذا لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله، وإذا خاف الضرر ينبغي له تركه، فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حرج فلا يؤخذ بالفعل، بخلاف ما إذا فعله باختيار أو شهوته؛ وإذ تبين له إنه مصلحة راجحة كان حسنًا.

وقد جاءت شواهد السنة: بأن من ابتلي بغير تعرض منه أعين ومن تعرض للبلاء خيف عليه. مثل قوله ﷺ لعبد الرحمٰن بن سمرة «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها».

ومنه قوله: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا».

وفي السنن: «من سأل القضاء واستعان عليه بالشفعاء وكل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكًا يسدده ـ وفي رواية ـ وإن أكره عليه».

وفي الصحيحين: أنه ﷺ قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه؛ وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

وعنه أنه ﷺ: «نهى عن النذر».

ومنه قوله «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

فصل

قال الشيخ عبد القادر: «وإن كنت في حال الحقيقة، وهي حال الولاية: فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة، واتباع الأمر على «قسمين»:

أحدهما: أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس، وتترك الحظ وتؤدي الفرض وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

والقسم الثاني: ما كان بأمر باطن، وهو أمر الحق تبارك وتعالى يأمر عبده وينهاه، وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس حكمًا في الشرع، على معنى إنه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب، بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره، فسمي مباحًا فلا يحدث العبد فيه شيئًا من عنده بل ينتظر الأمر فيه فإذا أمر امتثل فيصير جميع حركاته وسكناته بالله تعالى، ما في الشرع حكمه فبالشرع، وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن، فحينئذٍ يصير محققًا من أهل الحقيقة وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم.

وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحق، والفناء حالة الإبدال المنكسري القلوب؛ لأجل الحق؛ الموحدين العارفين أرباب العلوم والفعل السادة الأمراء السخي الخفراء للحق خلفاء الرحمٰن وأجلائه وأعيانه وأحبابه عليهم السلام، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة، وأن لا تكون لك إرادة وهمة في شيء البتة، دنيا وأخرى عبد الملك لا عبد الملك، وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر، والميت الغسيل مع الغاسل، والمريض المغلوب على حسه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي.

وقال أيضًا: «اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك، إن كنت في حال التقوى التي هي القدم الأولى، واتبع الأمر في حالة الولاية ووجود الهوى ولا تتجاوزه، وهي القدم الثانية، وارض بالفعل ووافق وافنَ في حالة البدلية والعينية والصديقية، وهي المنتهى. تنح عن الطريق القذر، خل عن سبيله، رد نفسك وهواك، كفّ لسانك عن الشكوى فإذا

فعلت ذلك إن كان خيرًا زادك المولى طيبة ولذة وسرارًا وإن كان شرًا حفظك في طاعته فيه، وأزال عنك الملامة وأقعدك فيه حتى يتجاوز ويريحك عند انقضاء أجله، كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف، ذلك النموذج عندك فاعتبر به. ثم ذنوب وآثام وإجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطايا، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر عن أنجاس الذنوب والزلات، ولا يقبل على شدته إلا طيب من دون الدعوى والهواشات، كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الإنجاس وأنواع النتن والأوساخ، فالبلايا مكفرات. قال النبي ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة».

قلت: فقد بين الشيخ عبد القادر رضي الله عنه إن لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام، وذكر الأحوال الثلاث التي جعلها حال صاحب التقوى، وحال الحقيقة، وحال حق الحق، وقد فسر مقصوده بأنه لا بد للعبد في كل حال من أن يريد فعل ما أمر به في الشرع وترك ما نهى عنه في الشرع، وإنه إذا أمر العبد بترك إرادته فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وهذا حق. فإنه لم يؤمر به فتكون له إرادة في وجوده ولا نهى عنه فتكون له إرادة في عدمه فيخلو في مثل هذا عن إرادة النقيضين.

وقد بيّن أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائمًا الأمر الشرعي الظاهر أن عرفه، أو الأمر الباطن، وبين أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم، وإن مثل هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر.

فإن قلت: فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله؟ وصاحب الحق الذي بعده؟.

قيل: أما الذي بعده الذين سماهم «الأبدال» فهم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق ولا يفعلون إلا به فلا يشهدون لأنفسهم فعلًا فيما فعلوه من الطاعة؛ بل يشهدون إنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره. ولهذا قال: فاتباع الأمر فيها مخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة.

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلٰهية، فيشهدون إن الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير، فلا يرون لأنفسهم حمدًا ولا منة على أحد، ويرون أن الله خالق أفعال العباد فلا يرون أحدًا مسيئًا إليهم، ولا يرون لهم حقًا على أحد إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئًا، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة ويشهدون أنه يستحق أن يعبد، ولا يشرك به شيء وأنه يستحق أن يتقي حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، فيرون إنما قام بهم من العمل الصالح فهو جوده وفضله وكرمه له الحمد في ذلك.

ويشهدون: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله. وأما ما قام بالعباد من أذاهم، فهو خلقه وهو من عدله، وما تركه الناس من حقوقهم التي يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه، وله الحمد على كل حال على ما فعل وما لم يفعل. ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم؛ لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض، ولا أعظم انكسارًا ممن لم ير لنفسه إلا لعدم لا يرى له شيئًا، ولا يرى به شيئًا.

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه في إخلاص الدين لله؛ وأنه لا يفعل إلا ما أمر به، فلا يفعل إلا لله، لكن قصر عنه في شهود توحيد الربوبية ورؤيته، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وأنه ليس له في الحقيقة شيء؛ بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به، وإن كمال هذا الشهود لا يبقى شيئًا من العجب ولا الكبر ونحو ذلك. فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله، لكن هذا يشهد أن الله هو الذي جعله مسلمًا مصليًا، وأنه في الحقيقة لم يحدث شيئًا، وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدق به إذ كان مقرًا بأن الله خالق أفعال العباد؛ لكن قد لا يشهده شهودًا يجعله فيه بمنزلة المعدوم.

وأيضًا بينهما فرق من جهة ثانية: وهي أن الأول تكون له إرادة وهمة في أمور فيتركها، فهو يميز في مراداته بينما يؤمر به وما ينهى عنه، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه؛ ولهذا لم يبق له مراد أصلًا إلا ما أراده الرب، إما أمرًا به فيمتثله هو بالله وإما فعلًا فيه فيفعله الله به، ولهذا شبه بالطفل مع الظئر، في غير الأمر والنهي.

وأما الأول: الذي هو في مقام التقوى العامة، فإن له شهوات للمحرمات، وله التفات إلى الخلق، وله رؤية نفسه، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى، بأن يكف عن المحرمات، وعن تناول الشهوات بغير الأمر، فهذا يحتاج أن يميز بين ما يفعله وما لا يفعله، وهو التقوى، وصاحب الحقيقة لم يبق له ما يفعله إلا ما يؤمر به فقط، فلا يفعل إلا ما أمر به في الشرع، وما كان مباحًا لم يفعل إلا ما أمر به.

وأما الثالث: فقد تم شهوده في أنه لا يفعل إلا لله وبالله. فلا يفعل إلا ما أمر الله به لله، ويشهد أن الله هو الذي فعل ذلك في الحقيقة، ولا تكون له همة إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله تعالى.

والثلاثة مشتركون في الطريق، في أن كلّا منهم لا يفعل إلا الطاعة، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة، وبصفاء النية والإرادة. والله أعلم.

فإن قيل: كلام الشيخ كله يدور على أنه يتبع الأمر مهما أمكن معرفته باطنًا وظاهرًا، وما ليس فيه أمر باطنًا ولا ظاهرًا يكون فيه مسلمًا لفعل الرب، بحيث لا يكون له اختيار لا في هذا ولا في هذا بل إن عرف الأمر كان معه، وإن لم يعرفه كان مع

القدر، فهو مع أمر الرب إن عرف وإلا فمع خلقه، فإنه سبحانه له الخلق والأمر، وهذا يقتضي أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهي، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة، وقد صرح بذلك هو والشيخ حماد الدباس، وأن السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعي بأمر ولا نهي، بل يقف العبد مع القدر؛ وهذا الموضع هو الذي يكون السالك فيه عندهم مع «الحقيقة القدرية» المحضة، إذ ليس هنا حقيقة شرعية.

وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة. ويقولون: «الفعل» إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحًا على عدمه، وهو الواجب والمستحب. وإما أن يكون عدمه راجحًا على وجوده، وهو المحرم والمكروه. وإما أن يستوي الأمران وهو المباح. وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق.

ثم «الفعل المعين» الذي يقال هو مباح، إما أن تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانته به على طاعته ولحسن نيته، فهذا يصير أيضًا محبوبًا راجح الوجود بهذا الاعتبار، وإما أن يكون مفوتًا للعبد ما هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب، فهذا عدمه خير له.

والسالك المتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين في حقه مستوي الطرفين، فإنه إذا لم يستعن به على طاعته كان تركه وفعل الطاعة مكانه خيرًا له، وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله. فيقال: لا فرق بين هذا وهذا فهذا يصلح للإبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله بالفرائض، كأداء الواجبات، وترك المحرمات، ويشتغلون مع ذلك بمباحات. فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلًا إن لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول؛ إذ لا تكون معطلة عن جميع الحركات والسكنات.

ومن هذا أنكر الكعبي «المباح» في الشريعة؛ لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرم، وترك المحرم واجب، ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده، وهذا المباح ضده، والأمور بالشيء نهي عن ضده والنهي عنه أمر بضده إن لم يكن له إلا ضد واحد، وإلا فهو أمر بأحد أضداده، فأي ضد تلبس به كان واجبًا من باب الواجب المخير.

وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظار، فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه كأبي الحسن الآمدي، وقواه طائفة، بناءً على أن النهي عن الشيء أمر بضده كأبي المعالي. ومنهم من قال هذا فيما إذا كانت أضداده محصورة، فأما ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهي عنه أمرًا بأحدهما، كما يفرق بين الواجب المطلق والواجب

المخير. فيقال في المخير هو أمر بأحد الثلاثة، ويقال في المطلق هو أمر بالقدر المشترك، وجدنا أبو البركات يميل إلى هذا.

وقد ألزموا «الكعبي» إذا ترك الحرام بحرام آخر، وهو قد يقول عليه ترك المحرمات كلها إلى ما ليس بمحرم، بل إما مباح وإما مستحب، وإما واجب.

وتحقيق الأمر: أن قولنا: الأمر بالشيء نهي عن ضده وأضداده، والنيه عنه أمر بضده أو بأحد أضداده، من جنس قولنا: الأمر بالشيء أمر بلوازمه، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، والنهي عن الشيء نهي عما لا يتم اجتنابه إلا به. فإن وجود المأمور يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء أضداده، وعدم النهي عنه؛ بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته، وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلقه كالأكوان فلا بد عند عدمه من وجود بعض أضداده، فهذا حق في نفسه؛ لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود وإن لم يكن مقصوده الأمر. والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصدًا، وما يلزمه في الوجود.

فالأول هو الذي يذم ويعاقب على تركه بخلاف.

الثاني فإن من أمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيدًا فعليه أن يسعى من المكان البعيد، والقريب يسعى من المكان القريب، فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به، ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعة والحج لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب، بل ذلك بالعكس أولى مع إن ثواب البعيد أعظم، فلو كانت اللوازم مقصودة للأمور لكان يعاقب بتركها، فكان يكون عقوبة البعيد أعظم وهذا باطل قطعًا.

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لا بد من ترك أضداده، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصودًا للأمر، بحيث إنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التي اشتغل بها، وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه؛ ليس مقصوده فعل شيء من أضداده، وإذا تركه متلبسًا بضد له كان ذلك من ضرورة الترك.

وعلى هذا إذا ترك حرامًا بحرام آخر فإنه يعاقب على الثاني، ولا يقال فعل واجبًا وهو ترك الأول؛ لأن المقصود عدم الأول، فالمباح الذي اشتغل به عن محرم لم يؤمر به ولا بامتثاله أمرًا مقصودًا؛ لكن نهي عن الحرام ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضد من أضداده، فذاك يقع لازمًا لترك المنهي عنه، فليس هو الواجب المحدود بقولنا «الواجب ما يذم تاركه، ويعاقب تاركه»، أو «يكون تركه سببًا للذم والعقاب».

فقولنا «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، أو «يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب». يتضمن إيجاب اللوازم. والفرق ثابت بين الواجب «الأول»، و«الثاني».

فإن الأول يذم تاركه ويعاقب، والثاني واجب وقوعًا، أي لا يحصل إلا به، ويؤمر به أمرًا بالوسائل، ويثاب عليه، لكن العقوبة ليست على تركه.

ومن هذا الباب إذا اشتبهت الميتة بالمذكي فإن المحرم الذي يعاقب على فعله أحدهما، بحيث إذا أكلهما جميعًا لم يعاقب عقوبة من أكل ميتتين، بل عقوبة من أكل ميتة واحدة، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل. فقول من قال كلاهما محرم صحيح بهذا الاعتبار وقول من قال المحرم في نفس الأمر أحدهما صحيح أيضًا بذلك الاعتبار وهذا نظير قول من قال: يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب.

وإنكار أبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي على من قال هذا، ومن قال المحرم أحدهما لا يناسب طريقة الفقهاء، وحاصله يرجع إلى «نزاع لفظي». فإن الوجوب والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر، بل نوع آخر، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها يعتقد حل وطء إحداهما وتحريم وطء الأخرى، كان ولده من مملوكته ثابتًا نسبه بخلاف الأخرى، ولو قدرنا أنها اشتبهت بأجنبية وتزوج إحداهما فحد مثلًا، ثم تزوج الأخرى لم يحد حدين، مع أنه لا حد في ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هي الأجنبية.

وبهذا تنحلّ «شبهة الكعبي». فإن المحرم تركه مقصود، وأما الاشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة فإذا قيل المباح واجب بمعنى وجوب الوسائل، أي قد يتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم فهذا حق.

ثم إن هذا يعتبر فيه القصد فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها، أو يأكل طعامًا حلالًا ليشتغل به عن الطعام الحرام، فهذا يثاب على هذه النية والفعل؛ كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟! قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر، فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال؟!» ومنه قوله ﷺ: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته» رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه.

وقد يقال المباح يصير واجبًا بهذا الاعتبار، وإن تعين طريقًا صار واجبًا معينًا، وإلا كان واجبًا مخيرًا، لكن مع هذا القصد، أما مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجبًا أصلًا، إلا وجوب الوسائل إلى الترك وترك المحرم لا يشترط فيه القصد. فكذلك ما يتوسل به إليه، فإذا قيل هو مباح من جهة نفسه وأنه قد يجب وجوب المخيرات من جهة الوسيلة لم يمنع ذلك. فالنزاع في هذا الباب نزاع لفظي اعتباري. وإلا فالمعاني الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها.

والمقصود هنا: إن الأبرار وأصحاب اليمين قد يشتغلون بمباح عن مباح آخر، فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم. أما السابقون المقربون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعة لحسن القصد فيها، والاستعانة على طاعة الله. وحينئذٍ فمباحاتهم طاعات، وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده، فيؤمرون به شرعًا أمر استحباب، أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم أن لا يفعلوه، وإن لم يكن فيه إثم، والشريعة قد بينت أحكام الأفعال كلها فهذا سؤال.

وسؤال ثان وهو أنه إذا قدر أن من الأفعال ما ليس فيه أمر ولا نهي كما في حق الأبرار، فهذا الفعل لا يحمد ولا يذم، ولا يحب ولا يبغض، ولا ينظر فيه إلا وجود القدر وعدمه؛ بل إن فعلوه لم يحمدوا، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا، فلا يجعل مما يحمدون عليه أنهم يكونون في هذا الفعل كالميت بين يدي الغاسل، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم. إذ الكلام في ذلك.

وأما غير «الأفعال الاختيارية»: وهو ما فعل بالإنسان كما يحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع، فهذا خارج عن التكليف، مع أن العبد مأمور في مثل هذا أن يحبه إن كان حسنة، ويبغضه إن كان سيئة، ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة وسيئة، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالميت بين يدي الغاسل فقد رفع الأمر والنهي عنه في الأفعال الاختيارية، وهذا باطل.

وسؤال ثالث: وهو أن حقيقة هذا القول طي بساط الأمر والنهي عن العبد في هذه الأحوال، مع كون أفعاله اختيارية، وهب أنه ليس له هوى، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمور والنهي، بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله.

قيل: هذه الأسئلة أسئلة صحيحة.

وفصل الخطاب إن السالك قد يخفى عليه الأمر والنهي، بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمور به شرعًا أو منهي عنه شرعًا؛ فيبقى هواه لئلا يكون له هوى فيه، ثم يسلم فيه للقدر، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وأمره وحبه في ذلك الفعل.

وهذا يعرض لكثير من أئمة العباد، وأئمة العلماء، فإنه قد يكون عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعي فيها، بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة أو خفيت الأدلة بالكلية، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم، وحكم الشرع إنما يثبت في حق العبد إذا تمكن من معرفته، وأما ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يطالب به، وإنما

عليه أن يتقي الله ما استطاع. وهذا خطأ في العلم، وليس خطأ في العمل، وهو كالمجتهد المخطىء له أجر على قصده واجتهاده، وخطأه مرفوع عنه.

فإن قيل: فإذا كان الأمره كذا. فالواجب على العبد أن يتوقف في مثل هذه الحال إذا لم يتبين له أن ذلك الفعل مأمور به أو منهي عنه، وهو لا يريد أن يفعل شيئًا لا مدح فيه ولا ذم، فيقف لا يستسلم للقدر ويصير محلًا لما يستعمل فيه من الأفعال، اللهم إلا إذا فعل غيره فعلًا، فهو لا يمدحه ولا يذمه، ولا يرضاه ولا يسخطه؛ إذا لم يتبين له حكمه.

فأما كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلمًا لما يستعمله القدر فيه: كالطفل مع الظئر، والميت مع الغاسل، فهذا مما لم يأمر الله به ولا رسوله، بل هذا محرم، وإن عفي عن صاحبه وحسب صاحبه أن يعفى عنه؛ لاجتهاده وحسن قصده، أما كونه يحمد على ذلك، ويجعل هذا أفضل المقامات فليس الأمر كذلك، وكونه مجردًا عن هواه ليس مسوغًا له أن يستسلم لكل ما يفعل به.

ثم يقال الأمور مع هذا نوعان:

أحدهما: أن يفعل به بغير اختياره كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع، وكما تضجع المرأة قهرًا وتوطأ، فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء. وإما أن يكره بالإكراه الشرعي حتى يفعل، فهذا أيضًا معفو عنه في الأفعال عند الجمهور، وهو أصح الروايتين عن أحمد لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٣٣].

وأما إذا لم يكره الإكراه الشرعي فاستسلامه للفعل المطلق الذي لا يعرف أخير هو أم شر؟ ليس هو مأمورًا به، وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر، فليس هو مأمورًا أن يفعل إلا ما هو خير عند الله ورسوله.

قيل: هذا السؤال صحيح، وحقيقة الأمر أن السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فيحسن قصدهم وتسليمهم وخضوعه لربهم، وطلبهم منه أن يختار لهم ما هو الأصلح، إذا استعملوا في أمورهم لا يعرفون حكمه في الشرع رجوا أن يكون خيرًا؛ لأن معرفتهم بحكمه قد تعذرت عليهم، والإنسان غير عالم في كل حال بما هو الأصلح له في دينه، وبما هو أرضى لله ورسوله، فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته، إذا قال: «اللهم! إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر؛ وتعلم ولا أعلم؛ وأنت علّام الغيوب. اللّهمّ إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه. وإن

كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به».

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له. إذ لم يكن معه دليل شرعي على إن عين هذا الفعل هو مأمور به في هذه الحال، فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمر مطلق عام، لا بعين كل فعل من كل فاعل، إذ كان هذا ممتنعًا؛ وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام؛ إذا كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلي؛ لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا، ولا على استحضار أنواع الخطاب.

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم.

ثم القياس أيضًا قد لا يحصل في كل واقعة، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام، أو اعتبارها بنظير لها، فلا يعرف لها أصل، ولا نظير. هذا مع كثرة نظرهم في خطاب الشارع ومعرفة معانيه، ودلالته على الأحكام. فكيف من لم يكن كذلك؟!

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال والحرام: بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا، وهذا خير من هذا، وأيهما أحب إلى الله في حقه في تلك الحال، وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما ينهى عنه غيره، ويؤمر في حال بما ينهى عنه في أخرى.

فقالوا نحن نفعل الخير بحسب الإمكان، وهو فعل ما علمنا إنا أمرنا به، ونترك أصل الشر وهو هوى النفس، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب: ثم إن أصبنا فلنا أجران، وإلا فلنا أجر، وخطؤنا محطوط عنا فهذا هذا.

وحينئذٍ فمن قدر أنه علم المشروع وفعله فهو أفضل من هذا؛ ولكن كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ولا يقصد أحب الأمور إلى الله وكثير منهم يفعله بشوب من الهوى، فيبقى هذا فعل المشروع بهوى وهذا ترك ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى. فهذا نقص في العلم، وذاك نقص في العمل؛ إذ العمل بهوى النفس نقص في العمل، ولو كان مفعول واجبًا.

فيقال: إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه، وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء؛ ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين في مثل هذا. فقال

أحدهما لصاحبه: إنما مثلك مثل الكلب: أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وقال الآخر: أنت كالحمار يحمل أسفارًا؛ فهذا أحسن قصدًا وأقوى علمًا.

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة، وأهل العلم يعيبون على أولئك نقص علمهم بالشرع، وعدولهم عن الأمر والنهي فهذا هذا.

والله تعالى المسؤول أن يهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وقد قال بعض أهل الفقه والزهد: من الناس من سلك «الشريعة» ومنهم من سلك «الحقيقة». ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء؛ فإن هؤلاء يرجحون بما ييسره الله مع حسن القصد واتباع الأمر والنهي المعلوم لهم مع خفاء الأدلة الشرعية في ذلك المتيسر لهم، وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر والأقيسة، وأخبار الآحاد وأقوال العلماء مع خفاء الأمر المتيسر لهم.

وأيضًا فهؤلاء قد يشهدون ما في ذلك الفعل المقدر من المصلحة والخير، فيرجحونه بحكم الإيمان وإن لم يعرفوا دليلًا من النص على حسنه، وأولئك إنما يجرون من النصوص، وما استنبط منها. فهؤلاء لهم القرآن، وهؤلاء لهم الإيمان. وسبب هذا إن كلا من الطائفتين خفي عليه ما مع الأخرى من الحق، وكل من الطائفتين في طريقها حق وباطل.

فأما المدّعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين، فهم ضالون؛ كالذين يعرفون الأمر والنهي ولا يفعلون إلا ما يهوونه من الكبائر، فإنهم فساق. وهؤلاء الذين قيل فيهم: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون». و«الحقيقة» قد تكون قدرية وقد تكون ذوقية، وقد تكون شرعية ولفظ «الشرع» يتناول المنزل، والمؤول والمبدل.

والمقصود هنا: ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين والكلام على حال أهل العبادة والإرادة، الذين خرجوا عن الهوى وهو الفرق الطبعي، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعي.

وبقي قسم ثالث: ليس لهم فيه فرق طبعي ولا عندهم فيه فرق شرعي فهو الذي جروا فيه مع الفعل والقدر.

وأما من جرى مع الفرق الطبعي، إما عالمًا بأنه عاص وهو العالم الفاجر، أو محتجًا بالقدر أو بذوقه ووجده معرضًا عن الكتاب والسنة، وهو العابد الجاهل فهذا خارج عن الصراط المستقيم.

وهذا مما بين حال كمال الصحابة رضي الله عنهم وأنهم خير قرون هذه الأمة؛ إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية في جليل الأمور ودقيقها مع اتساع الأمر، والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه، كما أن الواحد من هؤلاء يتبع هواه في أمر قليل. فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهي لهم العلم الذي يميزون به بين الحسنات والسيئات، ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به الحسنات، والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم في كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس أو يفوته القصد في كثير من الأعمال، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط اللذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذا لعمري إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة، وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة، فإما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى، فهؤلاء وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم، وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط وغيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم.

فإنه مَن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. و«حسن القصد» من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. و«العلم الشرعي» من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح، فإن العلم قائد والعلم سائق والنفس حرون، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك، فغايته أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصَّف: الآية ٥]. هذا جاهل وهذا ظالم. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢]. مع إن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري إنه ظالم والظلم جهل الحقيقة المانعة له من العلم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النِّساء: الآية ١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد فقالوا: كل من عصي الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال العلماء ثلاثة، فعالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله وبأمر الله.

فالعالم بالله الذي يخشاه، والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه.

قلت: والخشية تمنع اتباع الهوى قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

والكمال في عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: الآيات ١ - ٤] فنفي عنه الضلال والغي ووصفه بأنه لا ينطق عن الهوى أن هو إلا وحي يوحى، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي، فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ﷺ.

ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٢٣] فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علمًا وقصدًا. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩] وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صٓ: الآيتان ٨٢،٨٣]. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: الآية ٤٢] وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسُف: الآية ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النّحل: الآيتان ٩٩، ١٠٠].

وعبادته طاعة أمره، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه؛ فالكمال في كماله طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، ومن كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر أو اجتهد في الطاعة فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأمورًا به، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عما هو طاعة في نفس الأمر، فهلاء مطيعون لله مثابون على ما أحسنوه من القصد لله، واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله، وما عجزوا عن علمه فأخطأوه إلى غيره فمغفور لهم.

وهذا من أسباب فتن تقع بين الأمة، فإن أقوامًا يقولون ويفعلون أمورًا هم مجتهدون فيها، وقد أخطؤوا فتبلغ أقوامًا يظنون إنهم تعمدوا فيها الذنب، أو يظنون إنهم لا يعذرون بالخطأ، وهم أيضًا مجتهدون مخطئون، فيكون هذا مجتهدًا مخطئًا في فعله، وهذا مجتهدًا مخطئًا في إنكاره، والكل مغفور لهم. وقد يكون أحدهما مذنبًا، كما قد يكونان جميعًا مذنبين.

وخير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدَّثاتها وكل بدعة ضلالة.

والواحد من هؤلاء قد يعطى طرفًا بالأمر والنهي، فيولي ويعزل ويعطي ويمنع، فيظن الظان أن هذا كمال، وإنما يكون كمالاً إذا كان موافقًا للأمر، فيكون طاعة لله، وإلا فهو من جنس الملك، وأفعال الملك: إما ذنب، وإما عفو، وإما طاعةً.

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعة وعبادة، وهم اتباع العبد الرسول وهي طريقة السابقين المقربين.

وأما طريقة الملوك العادلين، فإما طاعة وإما عفو؛ وهي طريقة الأنبياء الملوك؛ وطريقة الأبرار أصحاب اليمين.

وأما طريقة الملوك الظالمين: فتتضمن المعاصي؛ وهي طريقة الظالمين لأنفسهم. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: الآية ٣٢] فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف: إما ظالم لنفسه وإما مقتصد، وإما سابق بالخيرات.

وخوارق العادات إما مكاشفة وهي من جنس العلم الخارق. وإما تصرف وهي من جنس القدرة الخارقة؛ وأصحابها لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

فصل

حدّثني أبي عن محيي الدين بن النحاس؛ وأظني سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول: أخبارًا عن الحق تعالى: «من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألَنّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد».

قلت: هذا من جهة الرب تبارك وتعالى.

فالأولتان: العبادة والاستعانة. والآخرتان: الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

والتقرب بحوله هو الاستعانة، والتوكل عليه؛ فإنه لا حول ولا قوةَ إلا بالله. وفي الأثر: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله». وعن سعيد بن جبير: «التوكل

جماع الإيمان»؛ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: الآية ٣] وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٩] وهذا على أصح القولين في أن التوكل عليه ـ بمنزلة الدعاء على أصح القولين أيضًا ـ سبب لجلب المنافع ودفع المضار، فإنه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوي الأحوال متشرعهم وغير متشرعهم، وبه يتصرفون ويؤثرون «تارة» بما يوافق الأمر. و«تارة» بما يخالفه.

وقوله: «ومَن اتبع مرادنا» يعني المراد الشرعي كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٢٨] وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٦] هذا هو طاعة أمره، وقد جاء في الحديث «وأنت يا عمر لو أطعت الله لأطاعك». وفي الحديث الصحيح «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الشّورى: الآية ٢٦].

وقوله: «ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد». يعني ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله: رجاء ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد؛ لأن هذا مقام الصبر. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠].

وسئل: عن «إحياء علوم الدين» و«قوت القلوب» الخ...

فأجاب: أما (كتاب قوت القلوب) و(كتاب الإحياء) تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل، والتوحيد ونحو ذلك. وأبو طالب أعلم بالحديث والآثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقًا، وأبعد عن البدعة مع أن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في «الإحياء» من الكلام في «المهلكات» مثل الكلام على الكبر، والعجب والرياء، والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

و«الإحياء» فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوًا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على «أبي حامد» هذا في كتبه. وقالوا: مرضه «الشفاء» يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة.

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة؛ بل موضوعة كثيرة.

وفي أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه.

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

قد دلّ الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة على «جنس المشروع المستحب في ذكر الله ودعائه» كسائر العبادات وبين النبي ﷺ مراتب الأذكار كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهن من القرآن ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت».

وفي صحيحه عن أبي ذر قال سئل رسول الله ﷺ أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده».

وفي «كتاب الذكر لابن أبي الدنيا وغيره مرفوعًا إلى النبي ﷺ «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله».

وفي الموطأ وغيره حديث طلحة بن عبد الله بن كريز عن النبي ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

وفي السنن حديث الذي قال: يا رسول الله! إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا فعلمني ما يجزئني في صلاتي فقال: قل: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر».

ولهذا قال الفقهاء: إن من عجز عن القراءة في الصلاة انتقل إلى هذه الكلمات الباقيات الصالحات. وفضائل هذه الكلمات ونحوها كثير ليس هذا موضعه.

وإنما الغرض من الذكر والدعاء ما ليس بمشروع الجنس أو هو منهي عنه أو عن صفته. كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠] فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى.

ومن المنهي عنه: ما كانوا يقولونه في الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. ومثل قول بعض الأعراب للنبي ﷺ: إنا نستشفع

بالله عليك. فقال النبي ﷺ: «شأن الله أعظم من ذلك: إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه» ومثل ما كانوا يقولون في أول الإسلام: السلام على الله قبل عباده. فقال النبي ﷺ: «إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات».

أشار بذلك إلى أن «السلام» إنما يطلب لمن يحتاج إليه، والله هو السلام فالسلام يطلب منه لا طلب له. بل يثني عليه؛ فإنه له فيقال: التحيات لله والصلوات والطيبات. فالحق سبحانه يثني عليه ويطلب منه، وأما المخلوق فيطلب له. فيقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٥٦، ٥٧] والرزق يعم كلما ينتفع به المرتزق؛ فالإنسان يرزق الطعام والشراب واللباس وما ينتفع بسمعه وبصره وشمه، ويرزق ما ينتفع به باطنه من علم وإيمان، وفرح وسرور، وقوة ونور، وتأييد وغير ذلك، والله سبحانه ما يريد من الخلق من رزق، فإنهم لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه؛ بل هو الغني وهم الفقراء. و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨١] وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وكذلك الدعاء المكروه مثل الدعاء ببغي، أو قطيعة رحم، أو دعاء منازل الأنبياء، أو دعاء الأعرابي الذي قال: اللّهم ما كنت معذبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. ومثل قوله ﷺ للمصابين بميت لما صاحوا: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون».

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يُونس: الآية ١١] وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ١١] وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استيعابه. وإنما نبهنا على جنس المكروه.

وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلامًا تامًّا مفيدًا مثل «لا إلـه إلا الله» ومثل «الله أكبر» ومثل «سبحان الله والحمد لله» ومثل «لا حول ولا قوة إلا بالله» ومثل ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٧٨]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية ١]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: الآية ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفُرقان: الآية ١].

فأما «الاسم المفرد» مظهرًا مثل: «الله» «الله». أو «مضمرًا» مثل «هو» «هو». فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضًا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه، مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول: «الله، الله». فقيل له: لم لا تقول لا إلـه إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورًا أو مأجورًا، فإن العبد لو أراد أن يقول: «لا إلـه إلا الله» ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئًا. إذ الأعمال بالنيات؛ بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة. وربما قال بعضهم: «لا إلـه إلا الله» للمؤمنين، و«الله» للعارفين، و«هو» للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على «الله، الله، الله». أو على «هو» أو «يا هو» أو «لا هو إلا هو».

وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك. واستدل عليه تارة بوجد، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب. كما يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن علي بن أبي طالب أن يقول: «الله، الله، الله». فقالها النبي ﷺ ثلاثًا. ثم أمر عليًا فقالها ثلاثًا. وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

وإنما كان تلقين النبي ﷺ للذكر المأثور عنه، ورأس الذكور «لا إلـه إلا الله» وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت. «وقال: يا عم! قل: لا إلـه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

وقال: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحًا».

وقال: «مَن كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة».

وقال: «مَن مات وهو يعلم أن لا إلـه إلا الله دخل الجنة».

وقال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» والأحاديث كثيرة في هذا المعنى.

وقد كتبت فيما تقدم من «القواعد» بعض ما يتعلق بهاتين الكلمتين العظيمتين الجامعتين الفارقتين: شهادة أن لا إلـه إلا الله، وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

فأما ذكر «الاسم المفرد» فلم يشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه.

وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] ويتهمون أن المراد قول هذا الاسم فخطأ واضح؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٩١]. أي: قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى. فهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب.

وهذا قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ [الزُمَر: الآية ٣٨]. وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: الآية ٦٠] وكذلك؟ وما بعدها وقوله: «قل: من رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون: الله» على قراءة أبي عمر. وتقول في الكلام من جاء؟ فتقول: زيد. ومن أكرمت؟ فتقول: زيدًا. وبمن مررت؟ فتقول: بزيد. فيذكرون الاسم الذي هو جواب من؛ ويحذفون المتصل به، لأنه قد ذكر في السؤال مرة، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان، لما في ذلك من التطويل والتكرير.

وأغرب من هذا ما قاله: لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧] قال المعنى وما يعلم تأويل «هو» أي اسم «هو» الذي يقال فيه «هو، هو» وصنف ابن عربي كتابًا في «الهو» فقلت له ـ وأنا إذ ذاك صغير جدًا ـ لو كان كما تقول: لكتبت في المصحف مفصولة «تأويل هو» ولم تكتب موصولة، وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار. وإنما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة في الكتاب والسنة.

وقد يكون المعنى الذي يعنونه صحيحًا؛ لكن لا يدل عليه الكلام وليس هو مراد المتكلم، وقد لا يكون صحيحًا. فيقع الغلط «تارة» في الحكم، و«تارة» في الدليل كقول بعضهم: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: الآية ٧] أي: إن رأى ربه استغنى، والمعنى أنه ليطغى إن رأى نفسه استغنى، وكقول بعضهم: «فإن لم تكن تراه»: يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك. وليس هذا معنى الحديث، فإنه لو أريد هذا لقيل فإن لم تكن تره. وقد

قيل: «تراه» ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله: فإنه يراك؛ ثم إنه على قولهم الباطل تكون كان تامة. فالتقدير: فإن لم تكن: أي لم تقع، ولم تحصل. وهذا تقدير محال فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم. ولو أريد فناؤه عن هواه أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه؛ فإن هذا محال. ومتى كان المعنى صحيحًا والدلالة ليست مرادة فقد يسمي ذلك «إشارة».

وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي «حقائق التفسير» من هذا قطعة.

وليس المقصود الآن الكلام في هذا فإنه باب آخر.

وإنما الغرض بيان حكم ذكر الاسم وحده من غير كلام تام، وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب.

وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية؛ فإن الاسم وحده لا يعطي إيمانًا ولا كفرًا، ولا هدى ولا ضلالًا، ولا علمًا ولا جهلًا، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء، أو فرعون من الفراعنة، أو صنم من الأصنام، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكم إلا أن يقرن به ما يدل على نفي أو إثبات، أو حب أو بغض، وقد يذكر الموجود والمعدوم.

ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه؛ ولا هو جملة تامة؛ ولا كلامًا مفيدًا ولهذا سمع بعض العرب مؤذنًا يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله. قال: فعل ماذا؟! فإنه لما نصب الاسم صار صف، والصفة من تمام الاسم الموصوف، فطلب بصحة طبعة الخبر المفيد؛ ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن.

ولو كرر الإنسان اسم «الله» ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمنًا، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته؛ فإن الكفار من جميع الأمم ويذكرون الاسم مفردًا، سواء أقروا به وبوحدانيته أم لا؛ حتى أنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤] وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢١] وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى: الآية ١] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ⑦④﴾ [الواقِعَة: الآية ٧٤، ٩٦؛ الحاقة: الآية ٥٢] ونحو ذلك: كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول: بسم الله، أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك. ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر ولا [حل صيد][1] ولا ذبيحة ولا غير ذلك.

---

(١) بالأصل كلمة لم تتضح لقدم الأصل، ولعل ما بين القوسين هو المعنى المقصود (هامش المطبوعة).

فإن قيل: فالذاكر أو السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة، وتعظيم لله، ونحو ذلك.

قلت: نعم، ويثاب على ذلك الوجد المشروع، والحال الإيماني لا لأن مجرد الاسم مستحب، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله؛ أو يسبه فيثور في قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته وبغضه لما سمعه، وقد قال الصحابة للنبي ﷺ: «إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «أو قد وجدتموه؟!» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان» وفي رواية: قال «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

فالشيطان لما قذف في قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذي في قلوبهم بالكراهة لذلك، والاستعظام له، فكان ذلك صريح الإيمان؛ ولا يقتضي ذلك أن يكون السبب الذي هو الوسوسة مأمورًا به.

والعبد أيضًا قد يدعوه داع إلى الكفر أو المعصية فيستعصم ويمتنع ويورثه ذلك إيمانًا وتقوى؛ وليس السبب مأمورًا به؛ وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٧٣، ١٧٤] الآية. فهذا الإيمان الزائد والتوكل كان سبب تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعًا بل العبد يفعل ذنبًا فيورثه ذلك توبة يحبه الله بها، ولا يكون الذنب مأمورًا به، وهذا باب واسع جدًا.

ففرق بين أن يكون نفس السبب موجبًا للخير ومقتضيًا، وبين أن لا يكون؛ وإنما نشأ الخير من المحل. فالمأمور به من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات، هي موجبة للخير والرحمة والثواب. وإذا اقترن بها قوة إيمان العبد وما يجده من حلاوة الإيمان وتذوقه من طعمه تضاعف الخير والرحمة والبركة، وما ليس مأمورًا به: إما من فعل العبد: محرمه ومكروهه ومباحه. وإما من فعل غيره معه: من الإنس والجن، وإما من الحوادث السمائية التي يصيبه بها الرب، إذا صادفت منه إيمانًا ويقينًا فحركت ذلك الإيمان واليقين، وازداد العبد بذلك [إيمانًا] لم يكن ذلك مما يوجب أن تحب تلك الأسباب، أو تحمد أو يؤمر بها، إذا لم يكن كذلك، فإنها ليست مقتضية لذلك الخير، وإنما مقتضاها تحريك الساكن وطال ما جرت إلى شر وضرر.

ويشبه هذا الباب ذكر الحب المطلق والشوق المطلق، والوجل المطلق، وما يتضمن ذلك من نظم ونثر، فإن هذا من المجمل أيضًا: يشترك فيه المؤمن والكافر،

والبر والفاجر، فلذلك لم يشرعها الله ورسوله، ولم يأمر بها فإن الله إنما يأمر بالخير والعمل الصالح والبر وذلك ليس من هذا الباب، فإن شعر المحبين مشترك بين محب الإيمان ومحب الأوثان، ومحب النسوان، ومحب المردان، ومحب الأوطان، ومحب الأخدان.

فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحبًا؛ فضلًا عن أن يكون هو ذكر الخاصة.

وأبعد من ذلك ذكر «الاسم المضمر» وهو: «هو». فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسره من مذكور أو معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته؛ ولهذا قد يذكر به من يعتقد [أن] الحق الوجود المطلق. وقد يقول: «لا هو إلا هو» ويسري قلبه في «وحدة الوجود» ومذهب فرعون والإسماعيلية وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله «هو» كقوله: «وجوده». وقد يعني بقوله: «لا هو إلا هو» أي: أنه والوجود وأنه ما ثم خلق أصلًا، وأن الرب والعبد والحق والخلق شيء واحد. كما بينته من مذهب «الاتحادية» في غير هذا الموضع.

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول إلينا ﷺ. فإن البدع هي: مبادىء الكفر ومظان الكفر. كما أن السنن المشروعة هي: مظاهر الإيمان، ومقوية للإيمان؛ فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. كما أخبر الله عن زيادته في مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣] وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: الآية ١٢٤] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٤] وغير ذلك.

فإن قيل: إذا لم يكن هذا الذكر مشروعًا. فهل هو مكروه؟.

قلت: أما في حق المغلوب فلا يوصف بكراهة؛ فإنه قد يعرض للقلب أحوال يتعسر عليه فيها نطق اللسان مع امتلاء القلب بأحوال الإيمان، وربما تيسر عليه ذكر الاسم المجرد دون الكلمة التامة وهؤلاء يأتون على ما في قلوبهم من أحوال الإيمان وما قدروا عليه من نطق اللسان؛ فإن الناس في الذكر أربع طبقات:

إحداها: الذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبًا بذكر الله، وفيه حكاية التي لم تجد الملائكة فيه خيرًا إلا حركة لسانه بذكر الله. ويقول الله تعالى: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه».

الرابع: عدم الأمرين وهو حال الخاسرين.

وأما مع تيسر الكلمة التامة فالاقتصار على مجرد الاسم مكررًا بدعة، والأصل في البدع الكراهة.

وما نقل عن «أبي يزيد» و«النوري» و«الشبلي» وغيرهم: من ذكر الاسم المجرد، فمحمول على أنهم مغلوبون، فإن أحوالهم تشهد بذلك، مع أن المشايخ الذين هم أصح من هؤلاء وأكمل لم يذكروا إلا الكلمة التامة، وعند التنازع يجب الرد إلى الله والرسول، وليس فعل غير الرسول حجة على الإطلاق والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضًا: قد كتبت في كراسة الحوادث فصلًا في «جماع الزهد والورع»:

وإن «الزهد» هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحًا؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق.

وأما «الورع» فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه.

وأما «الورع» عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة ـ لما تقترن به من جلب منفعة راجحة أو دفع مضرة أخرى راجحة ـ فجهل وظلم وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يتورع عنها: المنافع المكافأة، والراجحة والخالصة: كالمباح المحض، أو المستحب، أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة.

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول:

الزهد: خلاف الرغبة. يقال فلان زاهد في كذا. وفلان راغب فيه. و«الرغبة» هي من جنس الإرادة. فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له، إما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدًا له ولا كارهًا له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمُد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه؛ ولهذا كان أساس الطريق الإرادة. كما

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٩] ونظائره متعددة.

كما رغب في «الزهد» وذم ضده في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر: الآية ١] السورة. وقال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: الآيتان ١٩، ٢٠] وقال: ﴿إِنَّ الْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: الآيات ٦ - ٨] وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٠] الآية. وهذا باب واسع.

وإنما المقصود هنا تميز «الزهد الشرعي» من غيره، وهو الزهد المحمود، وتميز «الرغبة الشرعية» من غيرها، وهي الرغبة المحمودة، فإنه كثيرًا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرًا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه.

وأما الورع: فهو اجتناب الفعل واتقاؤه، والكف والإمساك عنه والحذر منه، وهو يعود إلى كراهة الأمر والنفرة منه والبغض له وهو أمر وجودي أيضًا ـ وإن كان قد اختلف في المطلوب بالنهي. هل هو عدم المنهي عنه، أو فعل ضده؟ وأكثر أهل الإثبات على الثاني ـ فلا ريب أنه لا يسمّى ورعًا، ومتورعًا، ومتقيًا، إلا إذا وجد منه الامتناع والإمساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه.

والتحقيق: أنه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه، وهو ذمة وعقابه ونحو ذلك، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى، فيحصل له منفعة هذا العمل، من حمده وثوابه، وغير ذلك. فعدم المضرة لعدم السيئات، ووجود المنفعة لوجود الحسنات.

فتلخص أن «الزهد» من باب عدم الرغبة والإرادة في المزهود فيه. و«الورع» من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه، وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة، وأما وجود الكراهة فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة، فإما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة، أو منفعته ومضرته سواء. من كل وجه؛ فهذا لا يصلح أن يراد، ولا يصلح أن يكره، فيصلح فيه الزهد، ولا يصلح فيه الورع، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، وهذا بين. فإن ما

صلح أن يكره وينفر عنه صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس. وليس كل ما صلح أن لا يراد يصلح أن يكره؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به، ولا النهي عنه.

وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع؛ وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل. هل هو مأمور به؟ أو منهي عنه؟ أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأمورًا به أو منهيًا عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهيًّا عنه وبالعكس.

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها؛ يحتاج إلى الفرقان.

وقـــال:

قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من «الرهبانيات، والعبادات المبتدعة» التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ ـ حيث قال: «هلك المتنطّعون»؛ وقال: «لو مدّ لي الشهر لواصلت وصالًا يدع المتعمّقون تعمّقهم» ـ مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة: مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائمًا ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه» رواه البخاري، وهذا باب واسع.

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» أخرجاه في الصحيحين.

ولو قيل الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحًا اتصاف «الأول» باعتبار تعلقه بالأمر و«الثاني» باعتبار صفته في نفسه. والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط، وتارة من جهة صفته في نفسه، وتارة من كلا الأمرين. فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة، والطاعة والمعصية اسم له من

جهة الأمر، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه...[١] وإن كان كثير من الناس لا يثبت إلا «الأول»، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم.

ومن الناس مَن لا يثبت إلا «الثاني» كما تقوله المعتزلة وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم، والصواب إثبات الاعتبارين كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من أصحابنا وغيرهم.

فأما كونه مشقًّا فليس هو سببًا لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقًّا ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة، كما إن من كان بعده عن البيت في الحجة والعمرة أكثر: يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي ﷺ لعائشة في العمرة: «أجرك على قدر نصبك» لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر، وكذلك الجهاد، وقوله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه ويتتعتع فيه، وهو عليه شاقًّا له أجران».

فكثيرًا ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل؛ ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر؛ وأما في شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم. وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوبًا مقربًا إلى الله؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم.

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادات والزهادات، مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئًا يسيرًا لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه.

ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول: فلان ما نكح ولا ذبح وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون، وأما الحنفاء فقد قال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذموم.

---

(١) خرم بالأصل بمقدار ثلث سطر.

والناس أقسام:

أصحاب دنيا محضة، وهم المعرضون عن الآخرة.

وأصحاب دين فاسد، وهم الكفار والمبتدعة الذين يتدينون بما لم يشرعه الله من أنواع العبادات والزهادات.

والقسم الثالث: وهم أهل الدين الصحيح، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وقال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ـ رحمه الله: في «تزكية النفس» وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: الآية ٩] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: الآية ١٤].

قال قتادة وابن عيينة وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال الفراء والزجاج؛ قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله. وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. و[ليس] هو مراد من الآية؛ بل المراد بها الأول قطعًا لفظًا ومعنى.

أما «اللفظ» فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على (من) فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على (من) هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه.

وأما إذا كان المعنى: قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على (من) فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (من) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول. فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم! لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب. وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها. فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة؛ بل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: الآية ٩] فالجملة صلة لـ(من) لا صفة لها.

ولا قال أيضًا: قد أفلحت النفس التي زكاها فإنه لو قيل ذلك وجعل في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية ٩] ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا: التقدير ﴿قَدْ أَفْلَحَ

مَن زَكَّنهَا ﴿٩﴾ [الشّمس: الآية ٩] هي النفس التي زكاها. وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على (من) وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: الآية ١؛ الأعلى: الآية ١٤] ولم يقل قد أفلحت، قيل لهم: هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن...[1] على أن المراد لنا، وكذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: الآية ٤٢] ونحو ذلك.

وأما هنا فليس في لفظ ﴿مَن﴾ وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عزَّ وجلّ عنه، فلو قدر احتمال عود ضمير ﴿زَكَّنهَا﴾ إلى نفس وإلى ﴿مَن﴾ مع أن لفظ ﴿مَن﴾ لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر، لعدم دلالته على التأنيث، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز إذا كان نصًّا من جهة المعنى؟! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور. ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا: أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: الآية ١٤] فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي، ولا ترغيب ولا ترهيب. والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد «القدر» فلا يقول: من جعله الله مؤمنًا بل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلًا فكيف بكلام الله؟! ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد، والمدح والذم، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم: إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأما في معرض الأمور فلا يذكره إلا عند النعم. كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ﴾ [النُور: الآية ٢١] الآية، فهذا مناسب، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى.

(١) بياض بالأصل.

والمقصود «ذكر التزكية» قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾ [النُّور: الآية ٣٠] الآية. وقال: ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٢٨] وقال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٧] وقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عَبَس: الآية ٧].

وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع، وزكا المال إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيًا إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها. قال الزجاج: ﴿دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية ١٠] جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء: دساها؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة: أي أخفاها بالفجور والمعصية. فالفاجر دس نفسه؛ أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان.

فالبرّ والتقوى يبسط النفس، ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعًا وبسطًا عما كان عليه قبل ذلك؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره. والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها، بحيث يجد البخيل في نفسه إنه ضيق. وقد بين النبي ﷺ ذلك في الحديث الصحيح فقال: «مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما. فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه، حتى تغشى أنامله. وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها وأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه في جيبه فلو رأيتها بوسعها فلا تتسع أخرجاه.

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعًا لذلك. قال تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ [النحل: الآية ٥٩] الآية. فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسا صاحبها في بدنه بعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل، والنفس البرة التقية النقية التي قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من في السقاء، وكالشعرة من العجين. قال ابن عباس: «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، وضيقًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق» قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٨] الآية. وهذا مثل البخيل والمنفق. قال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] الآية. وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧].

وقال له في سياق الرمي بالفاحشة وذم من أحب إظهاره في المؤمنين، والمتكلم بما لا يعلم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: الآية ٢١] الآية. بين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النُور: الآية ٣٠] الآية. وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس، فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها، إن كان مصدقًا لكتاب ربه مؤمنًا بما جاء عن نبيه ﷺ؛ ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة، فتزكو بذلك أيضًا بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل.

والثواب إنما يكون على عمل موجود، وكذلك العقاب. فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب. لكن فيه عدم الثواب والعقاب، والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر، واتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود، واختلفوا في النهي هل المطلوب أمر وجودي، أم عدمي فقيل: وجودي، وهو الترك، وهذا قول الأكثر. وقيل: المطلوب عدم الشر، وهو أن لا يفعله.

والتحقيق: أن المؤمن إذا نهى عن المنكر، فلا بد أن لا يقربه ويعزم على تركه، ويكره فعله، وهذا أمر وجودي بلا ريب؛ فلا يتصور أن المؤمن الذي يعلم أنه...[1] وجودي، لكن قد لا يكون مريدًا له ما يكره أكل الميتة طبعًا، ومع ذلك فلا بد له من اعتقاد التحريم والعزم على تركة لطاعة الشارع، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع، وهو أمر وجودي يثاب عليه؛ ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب المحرم، ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان، وقد غمر إيمانه حكم طبعه، فهذا أعلى الأقسام الثلاثة، وهذا صاحب النفس المطمئنة، وهو أرفع من صاحب اللوامة التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه، وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا؟!.

وأما مَن لم يخطر بباله أن الله حرمه، ولا هو مريد له؛ بل لم يفعله، فهذا لا يعاقب ولا يثاب، إذ لم يحصل منه أمر وجودي يثاب عليه أو يعاقب فمن قال المطلوب أن لا يفعل، أن أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب، فقد صدق، وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك. والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان، وترك الأعمال الكفر يعاقب عليها.

ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار في النار، ذكر أمورًا وجودية وتلك تدس النفس؛ ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها،

---

(١) بياض بالأصل.

وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف. قالوا: في ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: الآية ١٤] تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة: صدقة الفطر. ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العبد فقد تناولته وما بعدها، ولهذا كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة، ويتصدق بها قبل الصلاة، ولو لم يجد إلا بصلًا. قال الحسن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ من كان عمله زاكيًا، وقال أبو الأحوص: زكاة الأمور كلها، وقال الزجاج تزكى بطاعة الله عزَّ وجلّ، ومعنى الزاكي النامي الكثير.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: الآيتان ٦، ٧] قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إلـه إلا الله، وقال مجاهد: لا يكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص، كأنه أراد ـ والله أعلم ـ أهل الريا، فإنه شرك. وعن الحسن؛ لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها. وعن الضحاك: لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعة، وعن ابن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم. قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون.

والتحقيق: أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة. كقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: الآية ١٨] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها.

فإن قيل: ﴿يُؤْتُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٣] فعل متعد.

قيل: هذا كقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: الآية ١٤]، وتقدم قبلها أن الرسول دعاهم، وهو طلب منه، فكان هذا اللفظ متضمنًا قيام الحجة عليهم بالرسل، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم.

ومما يليق أن الزكاة تستلزم الطهارة لأن معناها معنى الطهارة. قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣] من الشر: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣] بالخير قال ﷺ: «اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج» كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع، والغسل.

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و«البرد» يعطي قوة وصلابة، وما يسر بوصف بالبردة وقرة العين، ولهذا كان دمع السرور باردًا، ودمع الحزن حارًا؛ لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن.

فسأل النبي ﷺ: أن يغسل الذنوب على وجه يبرده القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب.

وقوله: «بالثلج والبرد والماء البارد» تمثيل بما فيه من هذا الجنس، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك، كما يقال: أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال ﷺ: «الآن بردت جلدته» ويقال: برد اليقين، وحرارة الشك. ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر، وإذا كان حقًّا يعرفه القلب ويفرح به، حتى يصير في مثل برد الثلج. ومرض النفس إما شبهة وإما شهوة أو غضب، والثلاثة توجب السخونة. ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه، فإن الطالب فيه حرارة الطلب.

وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [التّوبَة: الآية ١٠٣] دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] الآية. التوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟﴾ [النُّور: الآية ٣٠] الآيات ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النُّور: الآية ٣١] الآية فأمرهم جميعًا بالتوبة في سياق ما ذكره؛ لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس. كما في الصحيح: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا» الحديث. وكذلك في الصحيح: أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع، ثم ندم فنزلت.

ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله، وينهي النفس عن الهوى، ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله، وعملًا صالحًا. وثبت عنه أنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله» فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. كما قال: «والمهاجر من هجر السيئات».

ثم هذا لا يكون محمودًا فيه، إلا إذا غلب، بخلاف الأول فإنه من ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٧٤] ولهذا قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة» الخ، وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهي النفس عن الهوى، وأن يخاف مقام ربه، فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد، فإذا غلب كان لضعف إيمانه، فيكون مفرطًا بترك المأمور؛ بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى.

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [يُوسُف: الآية

٢٤] الآية. وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحِجر: الآية ٤٢؛ الإسراء: الآية ٦٥] فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان، و«الغي» خلاف الرشد، وهو اتباع الهوى. فمن مالت نفسه إلى محرم، فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصًا له الدين، فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء...[1] خشية ومحبة، والعبادة له وحده، وهذا يمنع من السيئات.

فإذا كان تائبًا، فإن كان ناقصًا، فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيًا لها بعد الوقوع، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم، ويرفعه بعد حصوله، وكالغذاء من الطعام والشراب، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام، فإذا حصل له طلب إزالته، وكالعلم الذي يمنع من الشك، ويرفعه بعد وقوعه، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض، وكذلك ما في القلب من الإيمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به.

وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه، ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة، كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه. وكذلك الإيمان والكفر أن متضادان، فكل ضدين: فأحدهما يمنع الآخر تارة، ويرفعه أخرى، كالسواد والبياض...[1] حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلًا، كذلك الحسنات والسيئات والإحباط...[1] والمعتزلة أن الكبيرة تحبط الحسنات حتى الإيمان، وإن من مات عليها لم يكن...[1] الجبائي وابنه بالموازنة. لكن قالوا من رجحت سيئاته خلد في النار، والموازنة بلا تخليد قول...[1] الإحباط ما أجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧] الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المَائدة: الآية ٥] الآية وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٨] وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥].

وما ادّعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف، فإنه سبحانه ذكر حد الزاني وغيره، ولم يجعلهم كفارًا حابطي الأعمال، ولا أمر بقتلهم كما أمر بقتل المرتدين، والمنافقون لم يكونوا يظهرون كفرهم. والنبي ﷺ أمر بالصلاة على الغال، وعلى قاتل نفسه، ولو كانوا كفارًا ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم. فعلم أنهم لم يحبط إيمانهم كله. وقال عمن شرب الخمر «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» وذلك الحب من أعظم شعب الإيمان. فعلم أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها. وثبت من وجوه كثيرة: يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» ولو حبط لم يكن في قلوبهم شيء منه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [فاطِر: الآية ٣٢] الآية. فجعل من المصطفين.

---

(١) بياض بالأصل.

فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات، فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟.

فيه قولان للمنتسبين إلى السنة منهم من ينكره، ومنهم من يثبته، كما دلت عليه النصوص. مثل قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] الآية، دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة، وضرب مثله بالمرائي، وقالت عائشة: أبلغي زيدًا أن جهاده بطل. الحديث.

وأما قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ٢] وحديث صلاة العصر ففي ذلك نزاع. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٣٣] قال الحسن بالمعاصي والكبائر، وعن عطاء بالشرك والنفاق، وعن ابن السائب: بالرياء والسمعة، وعن مقاتل: بالمن. وذلك أن قومًا منوا بإسلامهم، فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبط الأعمال.

فإن قيل: لم يرد إلا إبطالها بالكفر.

قيل: ذلك منهي عنه في نفسه، وموجب للخلود الدائم، فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا، بل يذكره على وجه التغليظ. كقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] ونحوها. والله سبحانه في هذه وفي آية المن سماها إبطالًا، ولم يسمعه إحباطًا؛ ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [محَمَّد: الآية ٣٤].

فإن قيل المراد إذا دخلتم فيها فأتموها، وبها احتج من قال يلزم التطوع بالشروع فيه.

قيل لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل، فإبطاله كله أولى، بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صومًا؟!.

ثم يقال: الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده، وما ذكروه أمر بالإتمام، والإبطال هو إبطال الثواب، ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه، بل يقال إنه يثاب على ما فعل من ذلك. وفي الصحيح حديث المفلس «الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال».

وسئل شيخ الإسلام قدس الله روحه: عن رجل تفقه وعلم ما أمر الله به وما نهى عنه، ثم تزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد خائفًا من كسب الحرام والشبهات، وبعث الآخرة وطلب رضا الله ورسوله، وساح في أرض الله والبلدان فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسبح كما ذكر أم لا؟.

فأجاب الحمد لله وحده. «الزهد المشروع» هو ترك [كل] شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله. كما في الحديث الذي في الترمذي «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣]. فهذا صفة «القلب».

وأما في «الظهر» فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك. كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل.

وجماع ذلك خلق رسول الله ﷺ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». وكان عادته في المطعم إنه لا يرد موجودًا. ولا يتكلف مفقودًا، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد، أو العبادة على المشروع، ويقول: أنا مثل رسول الله ﷺ؟! يغضب ذلك، ويقول «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكم بحدود الله تعالى» وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد ليس مما يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء؛ بل قد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: الآية ٣٨] والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبًا تارة ومستحبًا أخرى، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين؟!.

وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع، كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه، قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبَة: الآية ١١٢] ومن قوله: ﴿مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: الآية ٥] فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة؛ فإن الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك، والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر في البراري سائحة؛ بل المراد بالسياحة شيئان:

أحدهما: الصيام. كما روى عمرو بن دينار عن يحيىٰ بن جعدة عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب». متفق عليه.

لكن إذا ترك الإنسان الحرام، أو الشبهة، بترك واجب أو مستحب، وكان الإثم أو النقص الذي عليه في الترك أعظم من الإثم الذي عليه في الفعل لم يشرع ذلك، كما ذكر أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عمن ترك ما لا شبهة فيه وعليه دين؟ فسأله ولده أترك هذا المال الذي فيه شبهة فلا أقضيه؟ فقال: له اتدع...[1].

وسئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن قوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: الآية ٩٥] و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية ٧] و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: الآية ٥] فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة.

منها: أن يقال: «علم اليقين» ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، و«عين اليقين» ما شاهده وعاينه بالبصر، «وحق اليقين» ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار.

فالأولى: مثل مَن أخبر أن هناك عسلًا، وصدق المخبر. أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

والثاني: مثل مَن رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: «ليس المخبر كالمعاين».

والثالث: مثل مَن ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد، ما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا» فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

---

(١) بياض بالأصل.

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبر به شيخ له بصدقة، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجِيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربًا. وقال الآخر: لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

والثالثة: إذا باشروا ذلك؛ فدخل أهل الجنة الجنة؛ وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار، وذاقوا ما كانوا يوعدون، فالناس فيما يوجد في القلوب، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أخبر بالعشق أو النكاح لم يره ولم يذقه كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبره به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وإما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة، إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه، وعرفه وخبره؛ ولهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر، وفي الحديث الصحيح: أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي ﷺ قال فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد.

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه، وإذا خالطت القلب لم يسخطه، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: الآية ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرّعد: الآية ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ

سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبَة: الآية ١٢٤] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور؛ وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

و«اللذة» أبدًا تتبع المحبة فمن أحب شيئًا ونال ما أحبه وجد اللذة به، فالذوق هو إدراك المحبوب، اللذة الظاهرة كالأكل مثلًا: حال الإنسان فيها إنه يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذٍ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] وفي الحديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي».

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٤].

وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» وفي حديث الترمذي وغيره: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] فالذين آمنوا أشد حبًا لله، من كل محب لمحبوبه. وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع متعددة.

والمقصود هنا: أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعدو في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص. والتوكل والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

منهم: مَن علم ذلك سماعًا واستدلالًا.

ومنهم: مَن شاهد وعاين ما يحصل لهم.

ومنهم: مَن وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه إنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم، فلا ينفعونه: إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدين؛ أجاب دعاءه وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق [من] حقيقة التوكل والدعاء لله، ما لم يذق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.

بل مَن اتّبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو؛ وتعلقه بالصور الجميلة، أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه. وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى، ولا يحصل له ما يسره؛ بل هو في خوف وحزن دائمًا؛ إن كان طالبًا لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل. فإذا أدركه كان خائفًا من زواله وفراقه.

و﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: الآية ٦٢]؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله. والعبادة له. وحلاوة ذكره ومناجاته. وفهم كتابه. وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحًا. ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا. أو اندفع عنه ما يضره؛ فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة، أو اندفع عنه من المضرة، ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك.

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا. والله أعلم.

الوصية الصغرى

وسئل شيخ الإسلام قدس الله روحه:

يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف، وقدوة الخلف، اعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب؛ تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني

ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه. والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين:

أما «الوصية» فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ١٣١].

ووصّى النبي ﷺ معاذًا لما بعثه إلى اليمن فقال: «يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي ﷺ بمنزلة علية؛ فإنه قال له: «يا معاذ! والله! إني لأحبك» وكان يردفه وراءه. ورُوِيَ فيه: «أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة ـ أي بخطوة ـ». ومن فضله أنه بعثه النبي ﷺ مبلغًا عنه داعيًا ومفقهًا ومفتيًا وحاكمًا إلى أهل اليمن.

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم إمام الناس. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إن معاذًا كان أمة قانتا لله حنيفًا ولم يك من المشركين؛ تشبيهًا له بإبراهيم.

ثم إنه ﷺ وصّاه هذه الوصية، فعلم أنها جامعة. وهي كذلك لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها؛ فلأن العبد عليه حقان:

حقٌّ لله عزَّ وجلّ. وحقٌّ لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحيانًا؛ إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه. فقال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية. ثم قال: «واتبع السيئة الحسنة تمحها» فإن الطبيب متى تناول المريض شيئًا مضرًا أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوه لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «صبوا عليه ذنوبًا من ماء».

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

أحدها: التوبة.

والثاني: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة: إما «الكفارات المقدرة» ما يكفر المجامع في رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجبات، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة وهي أربعة أجناس: هدى وعتق، وصدقة، وصيام.

وإما «الكفّارات المطلقة» كما قال حذيفة لعمر؛ فتنة الرجل في أهله وماله وولده؛ يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة والصيام، والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصًا ما صنف في فضائل الأعمال.

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه، فإن الإنسان من حين يبلغ؛ خصوصًا في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء، فكيف بغير هذا؟!

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». هذا خبر تصديقه في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: الآية ٦٩] ولهذا شوهد في الصحاح والحسان.

وهذا أمر قد يسري في المنتسبين إلى الدين من الخاصة: كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة: فإن كثيرًا من أحوال اليهود قد ابتلي به بعض المنتسبين إلى العلم، وكثيرًا من أحوال النصارى قد ابتلي به بعض المنتسبين إلى الدين، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، ثم نزله على أحوال الناس.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتًا فأحياه الله وجعل له نورًا يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك.

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو اتباع السيئات الحسنات. والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات.

ومما يزيل موجب الذنوب «المصائب المفكرة» وهي كل ما يؤلم من همٍّ أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد.

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد قال: «وخالق الناس بخلق حسن» وهو حق الناس رضي الله عنه وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلامة والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقًا، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كم قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

وإما بيانه أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، وما نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد. لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم، جاء مفسرًا في حديث معاذ، وكذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي وصححه: قيل: يا رسول الله! ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق». قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرج».

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الحق. ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله.

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله؛ لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] وفي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ١٢٣] وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨؛ الشورى: الآية ١٠] وفي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العَنكبوت: الآية ١٧] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعًا بهم أو عملًا لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء

له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك والعمل له بكل محبوب. ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك.

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، لا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: إن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات».

وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذكر الله».

والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة.

وأقلّ ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة.

ثم ملازمة الذكر مطلقًا وأفضله «لا إلـه إلا الله». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله. ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد إداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهًا فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله. وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف.

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله تعالى. وليكثر من ذلك ومن الدعاء، فإنه مفتاح كل خير، ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي وليتحر الأوقات الفاضلة؛ كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك.

وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه: «كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر».

وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النِّساء: الآية ٣٢] وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ١٠] وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا والله أعلم أمر النبي ﷺ الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وإذا خرج أن يقول: اللهم إني أسألك من فضلك».

وقد قال الخليل ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العَنكبوت: الآية ١٧] وهذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب فالاستعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم.

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع: بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همه، شتت الله عليه شمله، وفرق عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه، جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

وقال بعض السلف: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظامًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريَات: الآيات ٥٦ - ٥٨].

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك، فهذا يختلف باختلاف الناس، ولا أعلم في ذلك شيئًا عامًا، لكن إذا عن للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير ﷺ، فإن فيها من البركة ما لا يحاط به. ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية.

وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم، فهذا باب واسع، وهو أيضًا يختلف باختلافه نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه

ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علمًا، وما سواه إما أن يكون علمًا فلا يكون نافعًا، وإما أن لا يكون علمًا، وإن سمي به. ولئن كان علمًا نافعًا فلا بد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغن عنه مما هو مثله وخير منه. ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس، إذا أمكنه ذلك.

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ﷺ. وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللَّهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادات أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

وأما وصف «الكتب والمصنفين» فقد سمع منا في أثنا المذاكرة ما يسره الله سبحانه. وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من «صحيح محمد بن إسماعيل البخاري» لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم. ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم، إذ لا بد من معرفة أحاديث أخر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء. وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابًا، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالًا؛ كما قال النبي ﷺ لأبي لبيد الأنصاري: «أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تغني عنهم؟».

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويلهمنا رشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين.

وسئل الشيخ الإمام، العالم العامل، الحبر الكامل، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين «ابن تيمية» أيده الله وزاده من فضله العظيم: عن (الصبر الجميل) و(الصفح الجميل) و(الهجر الجميل) وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس؟

فأجاب رحمه الله: الحمد لله: أما بعد: فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل والصبر الجميل «فالهجر الجميل» هجر بلا أذى، و«الصفح الجميل» صفح بلا

عتاب، و«الصبر الجميل» صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام إنه كان يقول: «اللَّهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث وعليك التكلان» ومن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، اللَّهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبى حتى ترضى».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٦] ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف؛ بخلاف الشكوى إلى المخلوق. قرىء على الإمام أحمد في مرض موته إن طاوسًا كره أنين المريض. وقال: إنه شكوى. فما أَنَّ حتى مات. وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال، إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشّرح: الآيتان ٧، ٨] وقال ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. **فالأول**: هو التقوى، **والثاني**: هو الصبر. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١١٨ ـ ١٢٠] وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٥] وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] وقد قال يوسف: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر والرضا بالأمر المقدور. وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة: بل ومن

السالكين، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد [الحقيقة الكونية] دون [الدينية] فيرى أن الله خالق كل شيء وربه، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه، وأن قدره وقضاه لا يميز بين توحيد الألوهية، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ـ سعيدها وشقيها ـ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي الصادق والمتنبىء الكذاب، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، والملائكة المقربون والمردة الشياطين.

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه «الحقيقة الكونية» وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره. ولا يشهد الفرق الذي فرق الله [به] بين أوليائه وأعدائه، وبين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار، وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، وفعل ما يحبه ويرضاه، هو أمر الله به ورسوله أمر إيجاب، أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان، فمن لم يشهد هذه «الحقيقة الدينية» الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء، ويكون مع أهل «الحقيقة الدينية» وإلا فهو من جنس المشركين، وهو شر من اليهود والنصارى.

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية. إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٨٤ - ٨٩] ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦] قال بعض السلف: تسألهم من خلق السمٰوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره.

فمَن أقرّ بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: الآيتان ١٥٠، ١٥١].

وأما الذي يشهد «الحقيقة الكونية» وتوحيد الربوبية الشامل للخليفة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين

أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله، وبين من عصي الله ورسوله من الكفار والفجار، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى. لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث فرق بين المؤمني والكفار، ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار، وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعًا لظنه وما يهواه. فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه.

ومَن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة، فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس.

ومَن أقر بهما وجعل الرب متناقضًا، فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه.

فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

وكذلك هم في «الأحوال والأفعال». فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥].

وإذا أذنب استغفر وتاب: لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السّيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك، والمنة لك وعصيتك بعلمك، والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتي، إلا غفرت لي. وفي الحديث الصحيح الإلٰهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع.

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط: فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر.

وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدونه ولا يستعينوه؛ والمؤمن يعبده ويستعينه.

والقسم الرابع: شر الأقسام، وهو من لا يعبده ولا يستعينه، فلا هو مع الشريعة الأمرية؛ ولا مع القدر الكوني. وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك. فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام.

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها، ويتركون المحرمات؛ لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه، وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام؛ والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها. وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام. وهؤلاء هم الذين يريدون علوًا في الأرض أو فسادًا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان، والاستمتاع بالصور المحرمة نظرًا أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور، وفعلوه من المحظور، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

وأما القسم الرابع: فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: الآيات ١٩ - ٢١] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا،

ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا. إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك، وحابوك واسترحموك ودوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلبًا، وأقلهم رحمة وإحسانًا وعفوًا، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد: مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم. وإن كان متظاهرًا بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم، فالاعتبار بالحقائق: «فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

فمَن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهًا لهم من هذا الوجه، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية، من التتار.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق. ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف، كان عن الكمال أبعد، والباطل أحق. والكامل هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه، وصبرًا على ما قدره وقضاه، كان أكمل وأفضل. وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعًا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة. قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: الآية ١٢٥] وقال الله تعالى: ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: الآية ١٨٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١١٨ - ١٢٠] وقال إخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عمومًا وخصوصًا فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يُونس: الآية ١٠٩].

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقًا لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هُود: الآيتان ١١٤، ١١٥] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: الآية ٥٥] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ [طـه: الآيـة ١٣٠] وقـال تـعـالـى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٥] وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٣] فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

وقرن بين «الرحمة والصبر» في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البَلَد: الآية ١٧]. وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها؛ فإن القسمة أيضًا رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين: مثل كثير من النساء، ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قويًا من غير عنف، لينًا من غير ضعف فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى.

كما قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وقال: «مَن لا يرحم لا يرحم».

وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي».

وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». والله أعلم انتهى.

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله: ما ذكر الأستاذ القشيري في (باب الرضا) عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: الرضا أن لا يسأل الله الجنة، ولا يستعيذ من النار. فهل هذا الكلام صحيح؟؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين: الكلام على هذا القول من وجهين:

أحدهما: من جهة ثبوته عن الشيخ.

والثاني: من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم لم يذكر هذا عن الشيخ أبي سليمان بإسناد، وإنما ذكره مرسلًا عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين والمشايخ وغيرهم. تارة يذكره بإسناد، وتارة يذكره مرسلًا، وكثيرًا ما يقو: وقيل كذا ـ ثم الذي يذكره بإسناده تارة يكون إسناده صحيحًا، وتارة يكون ضعيفًا؛ بل موضوعًا. وما يذكره مرسلًا، ومحذوف القائل أولى، وهذا كما يوجد ذلك في مصنفات الفقهاء. فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو موضوع.

فالموجود في (كتب الرقائق والتصوف) من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع. وهذا الأمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا فيها هذا؛ بل نفس الكتب المصنفة في «التفسير فيها هذا وهذا، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات وفي كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم»؟!.

والمصنفون قد يكونون أئمة في الفقه أو التصوف أو الحديث ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا إنه كذب، وهو الغالب على أهل الدين؛ فإنهم لا يحتجون بما يعلمون إنه كذب، وتارة يذكرونه وإن علموا إنه كذب؛ إذ قصدهم رواية ما روي في ذلك الباب، ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذبًا جائز. وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حدث عني حديثًا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». وقد فعل كثير من العلماء متأولين أنهم لم يكذبوا، وإنما نقلوا ما رواه غيرهم وهذا يسهل إذ رووه لتعريف أنه روي؛ لا لأجل العمل به، ولا الاعتماد عليه.

والمقصود هنا: أن ما يوجد في «الرسالة» وأمثالها: من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه: الصحيح والضعيف والموضوع. فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه، والضعيف الذي رواه من لم يعلم صدقه، إما لسوء حفظه وإما لاتهامه، ولكن يمكن أن يكون صادقًا فيه؛ فإن الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ.

وغالب أبواب «الرسالة» فيها **الأقسام الثلاثة**. ومن ذلك (باب الرضا) فإنه ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ

نبيًا». وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن مسلمًا رواه لكنه رواه، بإسناد صحيح.

وذكر في أول هذا الباب حديثًا ضعيفًا ـ بل موضوعًا ـ وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر، فهو وإن كان أول حديث ذكره في الباب فإن أحاديث الفضل بن عيسى من أوهى الأحاديث وأسقطها، ولا نزاع بين الأئمة إنه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها؛ فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يتعمد الكذب فإن كثيرًا من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هذا الشأن؛ حتى قال أيوب السختياني؛ لو ولد أخرس لكان خيرًا له وقال سفيان بن عيينة لا شيء. وقال الإمام أحمد والنسائي: هو ضعيف. وقال يحيىٰ بن معين: رجل سوء. وقال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث.

وكذلك ما ذكر من الآثار؛ فإنه قد ذكر آثارًا حسنة بأسانيد حسنة مثل ما رواه عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنه قال: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض» فإن هذا رواه عن شيخه أبي عبد الرحمٰن السلمي بإسناده، والشيخ أبو عبد الرحمٰن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشايخ وحكاياتهم، وصنف [في] الأسماء (كتاب طبقات الصوفية) و (كتاب زهاد السلف) وغير ذلك، وصنف في الأبواب (كتاب مقامات الأولياء) وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة.

وذكر عن الشيخ أبي عبد الرحمٰن أنه قال سمعت النصرآبادي يقول: من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإن هذا الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله، كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري: «من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته» الحديث. وذلك أن الرضا نوعان:

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعد إلى المحظور، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: الآية ٦٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٥٩] وهذا الرضا واجب ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا

هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: الآيتان ٥٨، ٥٩].

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذي فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: الرضا غريزة، ولكن الصبر معول المؤمن. وقد روي في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا».

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبَة: الآية ٩٦] وقال تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ [التوبَة: الآية ٦٨] وقال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٨٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرُف: الآية ٥٥] فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم، ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟!

وإما ضلّ هنا فريقان من الناس:

قوم: من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافًا للقدرية. وقالوا: هو أيضًا محب لها مريد لها، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه. فقالوا: لا يحب الفساد، بمعنى لا يريد الفساد: أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر أي لا يريده لعباده المؤمنين. وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان، ولا يرضى لعباده الإيمان: أي لا يريده للكافرين، ولا يرضاه للكافرين، وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحبًا يحبه. ثم قد يكون مع ذلك واجبًا، وقد يكون مستحبًا ليس بواجب سواء فعل أو لم يفعل. والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والفريق الثاني: من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين: فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر على كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب. قالوا: والكون كله مراد المحبوب. وضل هؤلاء ضلالًا عظيمًا، حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الكوني والديني والأمر الكوني والديني والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني. كما بسطناه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى أن لا يفرقوا بين المأمور والمحظور وأولياء الله وأعدائه، والأنبياء والمتقين. ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والشرائع وربما سموا هذا «حقيقة» ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٨٤، ٨٥].

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه الله. ويحبه دون ما يقدر ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب، لا بما فعله من المعائب. فهو من الذنوب يستغفر. وعلى المصائب يصبر. فهو كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥] فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب. كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦] وقال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٠].

والمقصود هنا: أن ما ذكره القشيري عن النصرآبادي من أحسن الكلام حيث قال: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض؛ وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق، وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر

الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته، كلام حسن. لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل.

وكذلك ما ذكره معلقًا قال: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوّة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء. فإن هذا من أحسن الكلام، وكان الجنيد ـ رضي الله عنه ـ سيد الطائفة، ومن أحسنهم تعليمًا وتأديبًا وتقويمًا ـ وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة؛ لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعًا لا صبرًا. فالجنيد أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها، إذ كانت حالًا ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه.

وفيما ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقًا. (قال) وقيل: قال موسى: «إلـٰهي! دلني على عمل إذا عملته ورضيت عني. فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجدًا متضرعًا، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران! رضائي في رضاك عني» فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر؛ فإنه قد يقال: لا يصلح أن يحكى مثلها عن موسى بن عمران. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلًا صحيحًا، مثل ما ثبت عن نبينا إنه حدّثنا به عن بني إسرائيل، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه؛ فإن موسى من أعظم أولي العزم، وأكابر المسلمين؛ فكيف يقال: إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه؟! والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمـٰن؟! وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البيّنة: الآيتان ٧، ٨] ومعلوم أن موسى بن عمران عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا، حيث قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: الآية ٣٩]. ثم إن قوله له في الخطاب: يا ابن عمران! مخالف لما ذكره الله من خطابه في القرآن حيث قال: يا موسى، وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر. ومثل ما ذكره أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أما بعد: فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر. فهذا الكلام كلام حسن. وإن لم يعلم إسناده.

وإذا تبين أن فيما ذكره مسندًا ومرسلًا ومعلقًا ما هو صحيح وغيره. فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس

فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة. فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف. فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء. كمن علم إنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه.

والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم و«طبقات الصوفي» لأبي عبد الرحمٰن و«صفوة الصفوة» لابن الجوزي. وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسندًا حيث قال: قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد! لقد أوتيت من الرضا نصيبًا لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا. فهذا الكلام مأثور عن أبي سليمان بالإسناد؛ ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمٰن؛ بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تسند عنه. فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها فإنه قبل أن يرويها قال: وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء» فقال: لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا. فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: أرجو أن أكون قد عرفت طرفًا من الرضا. لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا.

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضا. وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء، وإن كان هذا عزمًا فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ العزائم خصوصًا عزائم الصوفية؛ ولذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم. وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٤٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: الآيات ٢ - ٤] وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي ﷺ: لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: الآية ٧٧] الآية. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار؟ وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به، ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب إنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

فأخذه العسر من ساعته: أي حصر بوله: فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال سمنون؛ يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ فاحتبس بوله أربعة عشر يومًا؛ فكان يتلوى كما تتلوى الحية، يتلوى يمينًا وشمالًا؛ فلما أطلق بوله: قال: رب قد تبت إليك. قال أبو نعيم: فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى، مع أن سمنونًا هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور، حتى رُوِيَ عن إبراهيم بن فاتك أنه قال: رأيت سمنونًا يتكلم على الناس في المسجد الحرام، فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم؛ ومات الطائر. وقال رأيته يومًا يتكلم في المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضًا.

وقد ذكر القشيري في «باب الرضا» عن رويم المقرىء رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال: قال رويم: إن الراضي لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره؛ فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئت فامتحني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول؛ أفيطيق أن تكون النار عن يمينه.

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحبي لك ألا فرجت عني؛ ففرج عنه.

و«رويم» وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة: بل الصوفية يقولون إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف؛ حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال: من أراد أن يستكتم سرًا فليفعل. كما فعل رويم. كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: ولي إسماعيل بن إسحٰق القاضي قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة، فجذبه إليه، وجعله وكيلًا على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقي وأكل الطيبات، وبنى الدور، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها. هذا مع أنه ـ رحمه الله ـ كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلًا؛ ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة، ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر، والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصًا مخطئًا محرومًا، وإن لم يكن عاصيًا أو فاسقًا أو كافرًا.

ويشبه هذا: الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء؟ قال: كنت أقول: اللّهم ما كنت معذّبني به في الآخرة فاجعله في الدنيا، فقال: سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه، ألا قلت: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١]» فهذا أيضًا حمله خوفه من عذاب النار، ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئًا في ذلك غالطًا. والخطأ والغلط مع حُسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جدًا، فليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا من الخطأ والغلط؛ بل ولا من الذنوب، وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: له لما عبر الرؤيا «أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا».

ويشبه ـ والله أعلم ـ إن أبا سفيان لما قال هذه الكلمة: ـ لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا ـ أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار، وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان مع إنها لا تدل على رضاه بذلك، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر بل ينفسخ، وأن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها؛ وإنا مستدركة؛ كما استدركه دعوى سمنون ورويم وغير ذلك؛ فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقًا عظيمًا. فإن تلك الكلمة مضمونها: أن من سأل الله الجنة. واستعاذ من النار. لا يكون راضيًا.

وفرق بين مَن يقول: أنا إذا فعل كذا كنت راضيًا، وبين مَن يقول: لا يكون راضيًا إلا مَن لا يطلب خيرًا، ولا يهرب من شرّ؛ وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجلّ من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلّاء المشايخ، وساداتهم ومَن أتبعهم للشريعة حتى أنه قال: إنه ليمرّ بقلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسُّنّة. فمَن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين، يقول هذا مثل الكلام؟!. وقال الشيخ أبو سليمان أيضًا: ليس لمن أُلهِم شيئًا من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع فيه بأثر كان نورًا على نور؛ بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسُّنّة، فكيف أبو سليمان؟!

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في «المقام الثاني» وهو قول القائل كائنًا مَن كان: الرّضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار.

ونقدّم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب، وذلك أن قومًا كثيرًا من الناس: من المتفقّهة والمتصوّفة والمتكلّمة، وغيرهم ظنوا أن الجنة التنعّم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس، وسماع أصوات

طيبة، وشم روائح طيبة ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيمًا غير ذلك. ثم صاروا ضربين:

ضرب: أنكروا أن يكون المؤمنون يرون ربهم. كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم.

ومنهم: من أقر بالرؤية، إما الرؤية التي أخبر بها النبي ﷺ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وإما برؤية فسروها بزيادة كشف أو علم، أو جعلها بحاسة سادسة، ونحو ذلك من الأقوال التي ذهب إليها ضرار بن عمرو وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصره أهل السنة في مسألة الرؤية، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما تنفيه المعتزلة والضرارية. والنزاع بينهم لفظي، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي؛ ولهذا كان بشر وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء.

والمقصود هنا: إن مثبتة (الرؤية) منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه، قالوا: لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر ذلك الأستاذ أبو المعالي الجويني في «الرسالة النظامية»، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه ونقلوا عن ابن عقيل إنه سمع رجلًا يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك. فقال: يا هذا هب أن له وجهًا، أله وجه يتلذذ بالنظر إليه؟! وذكر أبو المعالي: إن الله يخلق لهم نعيمًا ببعض المخلوقات مقارنًا للرؤية، فأما النعيم بنفس الرؤية فأنكره وجعل هذا من أسرار التوحيد.

وأكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، ومشايخ الطريق، كما في الحديث الذي في النسائي وغيره عن النبي ﷺ: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

وفي صحيح مسلم، وغيره، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد، يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويثقل موازيننا؟ ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه».

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق. كما روي عن الحسن البصري إنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقًا إليه، وكلامهم في ذلك كثير.

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف الأئمة والمشايخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى، تنازعوا في «مسألة المحبة» التي هي أصل ذلك؛ فذهب طوائف من...[1] والفقهاء إلى أن الله لا يحب نفسه، وإنما المحبة محبة طاعته وعبادته؛ وقالوا: هو أيضًا لا يحب عباده المؤمنين؛ وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم وولايتهم. ودخل في هذا القول من انتسب إلى نصر السنة من أهل الكلام، حتى وقع فيه طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد: كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأمثال هؤلاء.

وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال؛ فإن أول من أنكر «المحبة» في الإسلام الجعد بن درهم، أستاذ الجهم بن صفوان؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري. وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإن مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا ثم نزل ذبحه.

والذي دلّ عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأئمة وأئمتها ومشايخ الطريق: أن الله يحب ويحب. ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من أهل الكلام: كأبي القاسم القشيري؛ وأبي حامد الغزالي، وأمثالهما. ونصر ذلك أبو حامد في «الإحياء» وغيره. وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك في «الرسالة» على طريق الصوفية كما في كتاب أبي طالب المسمى بـ «قوت القلوب» وأبو حامد مع كونه تابع في ذلك الصوفية، استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك حيث قالوا: يعشق ويعشق.

وقد بسط الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه. وقد قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] وقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التّوبَة: الآية ٢٤].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

---

(١) بياض بالأصل.

والمقصود هنا: أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه، ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب، ونحو ذلك. وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشايخها، فهذا أحد الحزبين الغالطين.

والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة: وافقوا هؤلاء على أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق؛ ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم، وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أجدهم يقول: ما عبدتك شوقًا إلى جنتك، أو خوفًا من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالًا لك. وأمثال هذه الكلمات. مقصودهم بذلك: هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة. وقد يغلطون أيضًا في ظنهم إنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس. وتوهموا أن البشر يعلم بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل غير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه، وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده؛ وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام: إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك؛ لكن أخطأوا من جهة إنهم جعلوا ذلك خارجًا عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة؛ نظير ما ذكر عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئًا يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢]. فصرخ وقال أين مريد الله؟ فيحمد منه كونه أراد الله؛ ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من هو دونه، كالشبلي، وأمثاله.

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ إنه سأل مرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبَة: الآية ١١١] قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يعلم أن كل ما أعدّه الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك فهو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه» وإذا علم أن جميع ذلك داخل في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٢١] وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين. كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: «كيف تقول: في دعائك؟» قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار؛ أما إني لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ. فقال: «حولهما ندندن» فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ ـ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟! ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة.

وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطفّفِين: الآيات ١٨ - ٢٨] قال ابن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجًا ويشربها المقربون صرفًا.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة».

فقد أخبر أن الوسيلة ـ التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد ـ هي درجة في الجنة، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجًا عن الجنة، يصلح للمخلوقين؟!

وثبت في الصحيح أيضًا في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر قال: «فيقولون للرب تبارك وتعالى: وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك.

قال: فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنة. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟! قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلبًا. قال: ومم يستعيذون؟! قالوا: يستعيذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟! قال: فيقولون: لا. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة. قال: فيقول: أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون، وأعذتهم مما يستعيذون ـ أو كما قال ـ قال: فيقولون: فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم، قال: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» ـ فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار.

والنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم». وقالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة». قالوا: مد يدك فوالله لا نقيلك، ولا نستقيلك». وقد قالوا في أثناء البيعة: «إن بيننا وبين القوم حبالًا وعهودًا وإنا ناقضوها».

فهؤلاء الذين [بايعوه] من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلًا لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب؛ بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا. كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [قٓ: الآية ٣٥] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧١] ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه. كما قال ﷺ: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وهذا باب واسع.

فإذا عرفت هذه «المقدمة» فقول القائل: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار. فهذا الكلام مع كونه مخالفًا لجميع الأنبياء والمرسلين، وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول. وذلك أن الرضا الذي لا يسأل، إنما لا يسأله لرضاه عن الله. ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به،

ومحبته له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال: يرضى أن لا يرضى وهذا جمع بين النقيضين. ولا ريب إنه كلام من لم يتصور ما يقول، ولا عقله. يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته. فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألمًا ومرارًا، فكيف يتصور أن يكون راضيًا. وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا، فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه: كغلط سمنون كما تقدم.

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك؛ فقد غلط من وجهين:

من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

ومن جهة أنه أيضًا أثبت أنه طالب مع كونه راضيًا، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلبًا آخر إذا كان محتاجًا إلى مطلوبه، ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب؛ فيكون طلبه للنظر طلبًا للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكن رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر، فتبين تناقض قوله.

وأيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة، ولم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة. وإما أن لا يطلبه، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى. وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئًا قط، ولو كان مضطرًا إليه، ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضرًا، فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتًا بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكن معرضًا عن ذلك، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال. وهو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه.

وإن كان معرضًا عن جميع ذلك، فمن المعلوم إنه لا يحيى ويبقى إلا بما يقيم حياته، ويدفع مضاره بذلك. والذي به يحيى مع المنافع ودفع المضار، إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده. فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركًا مذمومًا، فضلًا عن أن يكون محمودًا. وإن قال لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه. قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممنع عليه أن لا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن

الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك. فكيف يسلب عنه ذلك كله فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام.

وأما في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدهما: أن يقال الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضيًا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه، وينهي عنه.

وبيان هذا: أن الرضا المحمود: إما أن يكون الله يحبه ويرضاه وإما أن لا يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأمورًا به، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب؛ فإن من الرضا ما هو كفر، كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٨] فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله. وقال النبي ﷺ: «إن الخطيئة إذا عملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها».

وقال ﷺ: «سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برىء، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع هلك».

وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التّوبَة: الآية ٩٦] فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التّوبَة: الآية ٣٨] فهذا رضا قد ذمه الله. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يُونس: الآية ٧] فهذا أيضًا رضًا مذموم، وسوى هذا وهذا كثير.

فمَن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره فليس هو متبعًا لرضا الله ولا هو مؤمن بالله. بل هو مسخط لربه، وربه غضبان عليه، لا عن له، ذام له، متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون: إنما هي الآمر بطاعة الله والنهي عن معصيته. فمن أمر أو استحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهي عنه ويعاقب أصحابه فهو عدو لله لا ولي لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه، ليس بسالك لطريقه وسبيله. وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه

ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا، كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك: كلها تنقسم إلى محبوب لله ومكروه لله مباح.

فإذا كان الأمر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرمة ولا مكروهة، وليست أيضًا مباحة مستوية الطرفين. ولو قيل: إنها كذلك ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا؛ إذ ليس من شرط الراضي أن لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور. فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه، أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح؟!. وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبًا أو مستحبًا فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه؛ بل يفعل ما يسخطه ويكره وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

والقشيري قد ذكره في أوائل (باب الرضا) فقال: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به. كالمعاصي وفنون محن المسلمين. وهذا الذي قاله، قاله قبله وبعده ومعه غير واحد من العلماء: كالقاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى وأمثالهما، لما احتج عليهم القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به، فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: ـ وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة ـ: أن هذا العموم ليس بصحيح، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر، ولم يجىء في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضى بما أمرنا أن نرضى به، كطاعة الله ورسوله، وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم.

والجواب الثاني: أنهم قالوا: إنا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله أو فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله. وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضع.

الثالث: أنهم قالوا: هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها، فيرضى من الوجه الذي يضاف به إلى الله، ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد، إذ كونها شرًا وقبيحةً ومحرمًا وسببًا للعذاب والذم نحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد. وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرنا منه ما قد ذكرناه في غير هذا

الموضع؛ ولا يحتمله هذا المكان. فإن هذا متعلق بمسائل «الصفات والقدر» وهي من أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين.

والمقصود هنا أن مشايخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بينوا أن من الرضا ما يكون جائزًا، ومنه ما لا يكون جائزًا فضلًا عن كونه مستحبًا أو من صفات المقربين، وأن أبا القاسم ذكر ذلك في «الرسالة» أيضًا.

فإن قيل: هذا الذي ذكرتموه أمر بيّن واضح، فمن أين غلط من قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار؟ وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائنًا من كان؟

قيل: غلطوا في ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حال من الأحوال فمن رضاه أن لا يطلب غير تلك الحال، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة، وأقصى المكاره النار. فقالوا: ينبغي أن لا يطلب شيئًا ولو إنه الجنة ولا يكره ما يناله، ولو إنه النار، وهذا وجه غلطهم. ودخل عليهم الضلال من وجهين:

أحدهما: ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه وأن هذا من أعظم طرق أولياء الله، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن أو بكل حال يكون فيها للعبد طريقًا إلى الله، فضلوا ضلالًا مبينًا. والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه ليس أن ترضى بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا أحبه؛ بل [هو] سبحانه يكره ويسخط ويبغض على أعيان أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو. وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي، فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه كنت عدوه لا وليه، وكان كل ذم نال من رضي ما أسخط الله قد نالك.

فتدبر هذا فإنه ينبه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والصوفية والعباد والعامة من لا يحصيهم إلا الله.

الوجه الثاني: إنهم لا يفرقون بين الدعاء الذي أمروا به أمر إيجاب، وأمر استحباب، وبين الدعاء الذي نهوا عنه، أو لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه، فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه **ثلاثة أنواع**:

نوع: أمر العبد به إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب: مثل قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: الآية ٦] ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي ﷺ يأمر به أصحابه فقال: «إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع: من عذاب

جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال». فهذا دعاء أمرهم النبي ﷺ أن يدعوا به في آخر صلاتهم. وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه، وتنازعوا في وجوبه. فأوجبه طاوس وطائفة، وهو قول في مذهب أحمد رضي الله عنه والأكثرون قالوا: هذا مستحب، والأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها: لا تخرج عن أن تكون واجبة، أو مستحبة، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه. ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟!

ونوع من الدعاء ينهي عنه: كالاعتداء مثل: أن يسأل الرجل ما لا يصلح من خصائص الأنبياء، وليس هو بنبي، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده، أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شيء عليمًا، أو على كل شيء قدير، وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب. وأمثال ذلك، أو مثل من يدعون ظانًا إنه محتاج إلى عباده؛ وإنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل. ويذكر إنه إذا لم يفعله حصل له من الخلق ضير. وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء، وإن وقع في ذلك طائفة من الشيوخ. ومثل أن يقولوا: اللهم اغفر لي إن شئت، فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرهًا، وقد يفعل مختارًا. كالملوك فيقول: اغفر لي إن شئت، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له» ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق، وأمثال ذلك فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها.

ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها.

والمقصود: إن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا؛ كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من المشروع. فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابًا، واستحبابًا، والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله، والاستعاذة به من النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبًا أو مستحبًا، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين.

ثم إنه لما أوقع هؤلاء في هذا الغلط إنهم وجدوا كثيرًا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع، ودفع المضار، حتى طلب الجنة، والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرًا بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلًا؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر ـ كائنًا من كان ـ وهذا هو الذي أدخل كثيرًا منهم في الرهبانية، والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به؛ فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة فرأى أولئك الطريق إلى الله ترك هذه العبادات، والأفعال الطبعيات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق، وأما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات.

وكِلا الأمرين غير محمود، ولا مأمور به، ولا طريق إلى الله: طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة، والتقرب إلى الله، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال؛ بل المشروع أن تفعل بنية التقرب إلى الله، وأن يشكر الله. قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢] فأمر بالأكل والشرب، فمن أكل ولم يشكر كان مذمومًا، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذمومًا، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها».

وقال النبي ﷺ لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك».

وفي الصحيح أيضًا أنه قال: «نفقة المؤمن على أهله يحتسبها صدقة».

فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعًا وعادة لا شرعًا وعبادة، فليس من المشروع أن ادع الدعاء مطلقًا لتقصير هذا وتفريطه؛ بل أفعله أنا شرعًا وعبادةً.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعًا وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته؛ بخلاف الذي يفعله طبعًا فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط، كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ۝٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ

وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: الآيات ٢٠٠ - ٢٠٢] وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأمورًا ولا يترك محظورًا، فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق، ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئًا من القربات، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب. فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب الذي هو النار، فلا يفعل مأمورًا، ولا يترك محظورًا، ويقول أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت؛ بل يقول أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنال درجة الرضا بقضائه، وهذا قول من [هو من] أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم.

أما جهله وحمقه، فلأن الرضى بذلك ممتنع متعذر، لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.

وأما كفره فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه.

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيرًا من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين وإما عاصين فاسقين وإما كافرين، وقد رأيت من ذلك ألوانًا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النّور: الآية ٤٠].

وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض ـ هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر. وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر ـ والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفًا للحكمة والعدل. وهذه الأصناف الثلاثة هي: القدرية المجوسية، والقدرية المشركية؛ والقدرية الإبليسية؛ وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

وأصل ما يبتلي به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي «القدرية المشركية» فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به. وإنما المشروع العكس وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل. ويجتهد أن لا يعصى فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار، كما في الحديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي» وكما في الحديث الصحيح الإلٰهي «يا عبادي إنما هي أمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة فيترك الدعاء وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة، وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها في غير هذا الموضع وبينا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك ولهذا يوجد في كلام هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشريعة، حتى قال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. وقال الجنيد بن محمد: علمنا مقيد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم في علمنا والله أعلم.

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله:

ما تقول السادة العلماء: في من عزم على «فعل محرم» كالزنا والسرقة، وشرب الخمر عزمًا جازمًا ـ فعجز عن فعله: إما بموت، أو غيره. هل يأثم بمجرد العزم أم لا؟ وإن قلتم: يأثم، فما جواب من يحتج على عدم الإثم بقوله «إذا همّ عبدي بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه» وبقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم» واحتج به من وجهين.

أحدهما: إنه أخبر بالعفو عن حديث النفس، والعزم داخل في العموم والعزم والهم واحد قاله ابن سيده.

الثاني: إنه جعل التجاوز ممتدًا إلى أن يوجد كلام أو عمل، وما قبل ذلك داخل في حد التجاوز، ويزعم أن لا دلالة في قول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» لأن الموجب لدخول المقتول في النار مواجهته أخيه، لأنه عمل لا مجرد قصد، وأن لا دلالة في قوله ﷺ: في الذي قال «لو أن لي مالًا لفعلت وفعلت، إنهما في الإثم سواء وفي الأجر سواء» لأنه تكلم، والنبي ﷺ قال: «ما لم تعلم به أو تتكلم» وهذا قد تكلم، وقد وقع في هذه المسألة كلام كثير، واحتيج إلى بيانها مطولًا مكشوفًا مستوفًا.

فأجاب: شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ونور ضريحه:

الحمد لله، هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته في أمرين.

أحدهما: عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها، التي هي مورد الكلام.

والثاني: عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها؛ ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس في هذا الباب، حتى يجد الناظر في كلامهم إنهم يدعون إجماعات متناقضة في الظاهر.

فينبغي أن يعلم أن كل واحد من صفات الحي التي هي العلم والقدرة والإرادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره ما لا يضبطه العباد. كالشك، ثم الظن، ثم

العلم، ثم اليقين، ومراتبه؛ وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك؛ ولهذا كان الصواب عند جماهير أهل السنة ـ وهو ظاهر مذهب أحمد، وهو أصح الروايتين عنه، وقول أكثر أصحابه ـ أن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان، بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي كالألوان والطعوم والأرواح. فنقول أولًا الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها، إذا كانت القدرة حاصلة فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل، لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم، ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكن الإرادة جازمة، وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال، ولم يفعلوه، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتًا كثيرًا؛ لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزمًا تامًا.

وهذه «المسألة إنما كثر فيها النزاع؛ لأنهم قدروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل، وهذا لا يكون. وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئًا في الحال، والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل، بل لا بد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل، وهذه هي الإرادة الجازمة.

و«الإرادة الجازمة» إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام له ثواب الفاعل التام، وعقاب الفاعل التام الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعاله البر، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان الداعي إلى هدى أو إلى ضلالة، والسان سنة حسنة، وسنة سيئة، كما ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه، من غير أن ينقص أوزارهم شيء».

وثبت عنه في الصحيحين: أنه قال: «من سن سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة، هو طالب مريد كامل الطلب والإرادة لما دعا إليه؛ لكن قدرته بالدعاء والأمر، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول؛ ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا

كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٠، ١٢١].

فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة: وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ، وما ينالونه من العدو. وقال: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠] فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم: وهي الإنفاق، وقطع المسافة، فلهذا قال فيها: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠] فإن هذه نفسها عمل صالح، وإرادتهم في الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح.

وكذلك «الداعي إلى الهدى والضلالة» لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه، كان بمنزلة لعامل الكامل، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه: للهادي مثل أجور المهتدين، وللمضل مثل أوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيّئة، فإن السنة هي ما رسم للتحري فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته».

ومن هذا قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». فالكفل النصيب مثل نصيب القاتل، كما فسره الحديث الآخر، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة، فصار شريكًا في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢].

ويشبه هذا أنه من كذب رسولًا معينًا كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٢٣] ونحو ذلك.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٢، ١٣]

فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الاتباع شيئًا، وأخبر إنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الاتباع، من غير أن ينقص من أوزار الاتباع شيء؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة، وفعل المقدور منه.

وهو كما ثبت في الصحيحين: من حديث ابن عباس عن أبي سفيان: أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم إن عليه إثم الأريسيين، وهم الاتباع، وإن كان قد قيل: إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والإكرة، كلفظ الطاء بالتركي، فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك، ومعلوم إنه إذا تولى عن اتباع الرسول كان عليه [مثل] آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: الآيات ٢٢ ـ ٢٥].

فقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: الآية ٢٥] هي الأوزار الحاصلة لضلال الاتباع، وهي حاصلة من جهة الآمر، ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال فلهذا كان على هذا بعضه، وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه سائر النصوص، مثل قوله: «من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٨].

فأخبر سبحانه أن الاتباع دعوا على أئمة الظلال بتضعيف العذاب، كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٦٧، ٦٨]. وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والاتباع تضعيفًا من العذاب. ولكن لا يعلم الاتباع التضعيف.

ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الظلال، حتى روي في أثر ـ لا يحضرني إسناده ـ «أنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بإبليس

ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره، وما من نعيم في الجنة إلا يبدأ فيه بالنبي ﷺ ثم ينتقل إلى غيره» فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم. كما قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر» وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم؛ وهو أول من يستفتح باب الجنة.

وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء؛ ويصدق بمن بعده. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١] الآية. فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط؛ وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم، ويكون المعنى: مهما آتيكم من كتابه وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره. كما قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

والله تعالى قد نوه بذكره وأعلنه في الملأ الأعلى، ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه؛ كما في حديث ميسرة الفجر قال: «قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيًا؟ ـ وفي رواية ـ متى كتبت نبيًا؟ فقال: وآدم بين الروح والجسد» رواه أحمد. وكذلك في حديث العرباض ابن سارية الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إني عند الله لخاتم النبيين، وأن آدم لمنجدل في طينته» الحديث.

فكتب الله وقدر في ذلك الوقت وفي تلك الحال أمر إمام الذرية كما كتب وقدر حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

فمَن آمن به من الأولين والآخرين أثيب على ذلك، وإن كان ثواب من آمن به وأطاعه في الشرائع المفصلة أعظم من ثواب من لم يأت إلا بالإيمان المجمل؛ على أنه إمام مطلق لجميع الذرية، وأن له نصيبًا من إيمان كل مؤمن من الأولين والآخرين: كما أن كل ضلال وغواية في الجن والإنس لإبليس منه نصيب؛ فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما في نسخة شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلًا ـ إما من مراسيل الزهري؛ وإما من مراسيل من فوقه من التابعين ـ قال: «بعثت داعيًا وليس إلي من الهداية شيء، وبعث إبليس مزينًا ومغويًا وليس إليه من الضلالة شيء «ومما يدخل في هذا الباب من بعض الوجوه قوله في الحديث الذي في السنن: «وزنت بالأمة فرجحت، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان».

فأما كون النبي ﷺ راجحًا بالأمة فظاهر؛ لأن له مثل أجر جميع الأمة مضافًا إلى أجره، وأما أبو بكر وعمر فلأن لهما معاونة مع الإرادة الجازمة في إيمان الأمة كلها، وأبو بكر كان في ذلك سابقًا لعمر وأقوى إرادة منه؛ فإنهم هما اللذان كانا يعاونان النبي ﷺ على إيمان الأمة في دقيق الأمور وجليلها؛ في محياه وبعد وفاته.

ولهذا سأل أبو سفيان يوم أحد: «أفي القوم محمد؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال النبي ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله! إن الذي ذكرت لأحياء وقد بقي لك ما يسوءك» رواه البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب. فأبو سفيان - رأس الكفر حينئذ - لم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم قادة المؤمنين. كما ثبت في الصحيحين أن علي بن أبي طالب لما وضعت جنازة عمر قال: والله ما على وجه الأرض أحد أحب أن ألقى الله بعمله من هذا المسجى، والله إني لأرجو أن يحشرك الله مع صاحبيك؛ فإني كثيرًا ما كنت أسمع النبي ﷺ يقول: «دخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر».

وأمثال هذه النصوص كثيرة، تبين سبب استحقاقهما أن كان لهما مثل أعمال جميع الأمة؛ لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من القدرة على ذلك؛ كله بخلاف من أعان على بعض ذلك دون بعض ووجدت منه إرادة في بعض ذلك دون بعض.

و«أيضًا» فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل، وإن لم يكن إمامًا وداعيًا، كما قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النّساء: الآيتان ٩٥، ٩٦].

فالله تعالى نفي المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز: ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز؛ بل يقال: دليل الخطاب يقتضي مساواته إياه. ولفظ الآية صريح. استثنى أولو الضرر من نفي المساواة، فالاستثناء هنا هو من النفي، وذلك يقتضي أو أُولي الضرر قد يساوون القاعدين، وإن لم يساووهم في الجميع، ويوافقه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم». قالوا: وهم بالمدينة. قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلا العذر هو مثل من معهم في هذه الغزوة. ومعلوم أن الذي معه في الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر.

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين: عن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم» فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملًا ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة، لا لضعف النية وفتورها، فكان له من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة، ما للعامل، والمسافر وإن كان قادرًا مع مشقة كذلك بعض المرض، إلا أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجَادلة: الآية ٤] ونحو ذلك ليس المعتبر في الشرع القدرة التي يمكن وجود الفعل بها على أي وجه كان، بل لا بد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة، بل أو مكافية.

ومن هذا الباب ما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من جهز غازيًا فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا».

وقوله «مَن فطر صائمًا فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء» فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، فإذا بذل هذا بدنه، وهذا ماله مع وجود الإرادة الجازمة في كل منهما كان كل منهما مجاهدًا بإرادته الجازمة، ومبلغ قدرته، وكذلك لا بد للغازي من خليفة في الأهل، فإذا خلفه في أهله بخير فهو أيضًا غاز، وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يمكن من الصوم.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح؛ «إذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئًا».

وكذلك قوله في حديث أبي موسى: «الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملًا موفرًا طيبة به نفسه أحد المتصدقين» أخرجاه. وذلك أن إعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به موفرًا طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإدارة الجازمة الموافقة لإرادة الآمر، وقد فعل مقدوره وهو امتثال، فكان أحد المتصدقين.

ومن هذا الباب حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد وابن ماجه عن النبي ﷺ قال: «إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله علمًا ومالًا فهو يعمل فيه بطاعة الله». فقال رجل: لو أن لي مثل فلان لعملت بعمله، فقال النبي ﷺ: «فهما في الأجر سواء» وقد رواه الترمذي مطولًا وقال: حديث حسن صحيح، فهذا التساوي مع «الأجر والوزر» هو في

حكاية حال من قال ذلك، وكان صادقًا فيه، وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة؛ فلهذا استويا في الثواب والعقاب.

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال: «لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل» إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم، ولو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون، وليس كل من عزم على شيء عزمًا جازمًا قبل القدرة عليه [وعدم] الصوارف عن الفعل تبقى تلك الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٤٣] وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصَّف: الآية ٢] وكما قال: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٧٥، ٧٦].

وحديث أبي كبشة في النيات مثل حديث البطاقة في الكلمات. وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «إن رجلًا من أمة النبي ﷺ ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلًا كل سجل منها مدى البصر، ويقال له: هل تنكر من هذا شيئًا؟ هل ظلمتك؟ فيقول: لا يا رب. فيقال له: لا ظلم عليك اليوم فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد؛ فتوضع في كفة والسجلات في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية؛ إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتًا عظيمًا.

ومثل هذا الحديث الذي في حديث: المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله لها؛ فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك ومثله قوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت. يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة».

وبهذا تبين: أن الأحاديث التي بها التفريق بين الهام والعامل وأمثالها، إنما هي فيما دون الإرادة الجازمة التي لا بد أن يقترن بها الفعل. كما في الصحيحين عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك: فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة

كاملة. فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة. فإن همّ بها وعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة» وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي هريرة.

فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل ولهذا قال: «فعملها» «فلم يعملها» ومن أمكنه الفعل فلم يفعل لم تكن إرادته جازمة فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل، كما تقدم أن ذلك كاف في وجود الفعل، وموجب له؛ إذ لو توقف على شيء آخر لم تكن الإرادة الجازمة مع القدرة تامة كافية في وجود الفعل، ومن المعلوم المحسوس أن الأمر بخلاف ذلك، ولا ريب أن «الهم» و«العزم» و«الإرادة» ونحو ذلك قد يكون جازمًا لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم.

فهذا القسم الثاني: يفرق فيه بين المريد والفاعل بل يفرق بين إرادة وإرادة، إذ الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد. كما قال أبو هريرة القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طالب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده. وتحقيق ذلك ما في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ «إن في المسجد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب» فإذا همّ بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة، وهي الهمّ بالحسنة فكتب له حسنة كاملة، فإن ذلك طاعة وخير، وكذلك هو في عرف الناس كما قيل:

لأشكرنك معروفًا هممت به   إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر   فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات، لما مضى من رحمته إن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١] وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمن جاء بناقة: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة مزمومة» إلى أضعاف كثيرة. وقد روي عن أبي هريرة مرفوعًا: «أنه يعطي به ألف ألف حسنة».

وأما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر به في الحديث الصحيح. وسواء سمي همه إرادة أو عزمًا أو لم يسم، متى كان قادرًا على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة، وهذا موافق لقوله في الحديث الصحيح حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تجاوز

لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به» فإن ما هم به العبد من الأمور التي يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جزمة، فتلك مما لم يكتبها الله عليه، كما شهد به قوله «من هم بسيئة فلم يعملها» ومن حكى الإجماع كابن عبد البر وغيره في هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار.

وهذا الهام بالسيئة فإما أن يتركها لخشية الله وخوفه، أو يتركها لغير ذلك؛ فإن تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به في الحديث، وكما قد جاء في الحديث الآخر «اكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي» أو قال «من جرائي» وأما إن تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة، كما جاء في الحديث الآخر «فإن لم يعملها لم تكتب عليه». وبهذا تتفق معاني الأحاديث.

وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة، فإن الله تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها، ولا يجزي الإنسان في الآخرة إلا بما عملت نفسه، ولا تمتلىء جهنم إلا من اتباع إبليس من الجنة والناس، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [صٓ: الآية ٨٥].

ولهذا ثبت في الصحيحين: من حديث أبي هريرة، وأنس «إن الجنة يبقى فيها فضل فينشىء الله له أقوامًا في الآخرة، وأما النار فإنه ينزوي بعضها إلى بعض حتى يضع عليها قدمه فتمتلىء بمن دخلها من أتباع إبليس».

ولهذا كان الصحيح المنصوص عن أئمة العدل كأحمد وغيره الوقف في أولاد المشركين، وأنه لا يجوز لمعين منهم بجنة ولا نار بل يقال فيهم كما قال النبي ﷺ في الحديثين الصحيحين: حديث أبي هريرة وابن عباس: «الله أعلم بما كانوا عاملين». فحديث أبي هريرة في الصحيحين، وحديث ابن عباس في البخاري.

وفي حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري: «إن منهم من يدخل الجنة»، وثبت «أن منهم من يدخل النار» كما في صحيح مسلم في قصة الغلام الذي قتله الخضر، وهذا يحقق ما روي من وجوه إنهم يمتحنون يوم القيامة فيظهر على علم الله فيهم، فيجزيهم حينئذ على الطاعة والمعصية، وهذا هو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث واختاره.

وأما أئمة الضلال ـ الذين عليهم أوزار من أضلوه ـ ونحوهم فقد بينا إنهم إنما عوقبوا لوجود الإدارة الجازمة مع التمكن من الفعل؛ بقوله في حديث أبي كبشة «فهما في الوزر سواء» وقوله: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه» فإذا

وجدت الإرادة الجازمة، والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام، والهام بالسيئة التي لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة، وفاعل السيئة التي تمضي لا يجزي بها إلا سيئة واحدة، كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الإمام أحمد: «الهم همان هم خطرات، وهم إصرار. فهم الخطرات يكون من القادر، فإنه لو كان همه إصرارًا جازمًا وهو قادر لوقع الفعل.

ومن هذا الباب هم «يوسف» حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤] الآية. وأما هم المرأة التي راودته فقد قيل: إنه كان هم إصرار لأنها فعلت مقدورها، وكذلك ما ذكره عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبَة: الآية ٧٤] فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم، كما ذمهم الله عليه، ومثله يذم وإن لم يكن جازمًا، كما سنبينه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافي الإيمان، وبين ما لا ينافيه، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها، إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل، لحديث أبي كبشة، ولما في الحديث الصحيح؛ «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» وفي لفظ «أنه أراد قتل صاحبه».

فهذه «الإرادة» هي الحرص، وهي الإرادة الجازمة، وقد وجد معها المقدور، وهو القتال لكن عجز عن القتل، وليس هذا من الهم الذي لا يكتب، ولا يقال إنه استحق ذلك بمجرد قوله: لو أن لي ما لفلان لعملت مثل ما عمل، فإن تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم، بل لا بد من أمر آخر، وهو لم يذكر أنها يعاقب على كلامه، وإنما ذكر أنهما في الوزر سواء.

وعلى هذا فقوله «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل» لا ينافي العقوبة على الإرادة الجازمة التي لا بد أن يقترن بها الفعل، فإن «الإرادة الجازمة» هي التي يقترن بها المقدور من الفعل، وإلا فمتى لم يقترن بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة، فالمريد الزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه، ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية: مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق، ومثل نظر الزاني واستماعه إلى المزني به، وتكلمه معه، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك، فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات لفعل المقدور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه.

كما قال النبي ﷺ، في الحديث المتفق عليه: «العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزني وزناه النطق، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وكذلك حديث أبي بكرة المتفق عليه «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه» وفي رواية في الصحيحين «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه».

فإنه أراد إرادة جازمة فعل معها مقدورة، منعه منها من قتل صاحبه العجز، وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل، فاستحق حينئذ النار، كما قدمنا من أن الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام.

و«الإرادة التامة» قد ذكرنا إنه لا بد أن يأتي معها بالمقدور أو بعضه، وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك، مع القدرة، مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا: من اللمس، والنظر والقبلة، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى؛ ولهذا قال في حديث أبي هريرة الصحيح «العين تزني والأذن تزني، واللسان يزني - إلى أن قال - والقلب يتمنى ويشتهي» أي يتمنى الوطء ويشتهيه، ولم يقل «يريد»، ومجرد الشهوة والتمني ليس إرادة جازمة، ولا يستلزم وجود الفعل، فلا يعاقب على ذلك؛ وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة [التي] يصدقها الفرج.

ومن هذا الحديث الذي في الصحيحين عن ابن مسعود: «أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هُود: الآية ١١٤] الآية فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: لمن عمل بها من أمتي» فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد في الغالب أن يهم بما هو أكبر من ذلك، كما قال: «والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة، فاقترن بها فعل القبلة بالقدرة، وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة، وقد تكون جازمة، لكن لم يكن قادرًا. والأشبه في الذي نزلت فيه الآية أنه كان متمكنًا لكنه لم يفعل.

فتفريق أحمد وغيره: بين هم الخطرات، وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب، فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته، وأن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر، ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم، ثم لا يشربها إلى شهر، وفي رواية إلى ثلاثين سنة، ومن نيته أنه إذا قدر على شربها [شربها]. وقد يكون مصرًا إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت، كمن

يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره، فليس هذا بتائب مطلقًا. ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله، واجتناب محارمه في ذلك الوقت، ولكن ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة، ولا هو مصر مطلقًا. وأما الذي وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها.

قلت: والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضًا. لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها، غير النية مع وجود القدرة، فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى، ولكن متى كان مربدًا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك. كما تقدم.

وتقدم أن مثل هذا لا بد أن يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه، وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي أنه حكى الإجماع على أن الناوي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له، فهذا الإجماع صحيح مع القدرة، فإن الناوي للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما الناوي الجازم الآتي بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام. كما تقدم.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٨] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٠].

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا، وقال في آية هود: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ إلى أن قال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادة الآخرة، قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: الآية ١٩] وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العلم المأمور به، لا كل سعي، ولا بد مع ذلك من الإيمان.

ومنه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٨] الآية ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٩] فهذا نظير تلك الآية التي في سورة هود، وهذا يطابق قوله: «إذا التقى المسلمان

بسيفيهما» إلا أنه قال: «فإنه أراد قتل صاحبه»، أو «أنه كان حريصًا على قتل صاحبه» فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لا بد أن يقترن به فعل، وليس هذا مما دخل في حديث العفو: «إن الله عفا لأمتي عما حدثت به أنفسها».

ومما يبني على هذا مسألة معروفة ـ بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية ـ وهي «توبة العاجز عن الفعل» كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة، ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية؛ بناءً على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل؛ بل يعاقب على تركه وليس كذلك؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه، كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل، كإصرار العاجز عن كمال الفعل.

ومما يبني على هذا «المسألة المشهورة في الطلاق» وهو أنه لو طلق في نفسه وجزم بذلك، ولم يتكلم به، فإنه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء. وعند مالك في إحدى الروايتين يقع، وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها» فقال المنازع: هذا المتجاوز عنه، إنما هو حديث النفس، والجازم بذلك في النفس ليس من حديث النفس.

فقال المنازع لهم: قد قال «ما لم تكلم به أو تعمل به» فأخبر إن التجاوز عن حديث النفس امتد إلى هذه الغاية التي هي الكلام به والعمل به، كما ذكر ذلك في صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن؛ فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزمًا ولم يتكلم به أو يعمل يؤاخذ به لكان خلاف النص، لكن يقال: هذا في المأمور [صاحب] المقدرة التي يمكن فيها الكلام والعمل، إذا لم يتكلم ولم يعمل، وأما الإرادة الجازمة المأتي فيها بالمقدور فتجري مجرى التي أتى معها بكمال العمل. بدليل الأخرس لما كان عاجزًا عن الكلام، وقد يكون عاجزًا عن العمل باليدين ونحوهما، لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره، والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك.

وأما الوجه الآخر: الذي احتج به وهو أن العزم والهم داخل في حديث النفس المعفو عنه مطلقًا فليس كذلك؛ بل إذا قيل: إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغير ذلك، يصح ذلك؛ فإن المراد إن كان مقدورًا مع الإرادة

الجازمة وجب وجوده، وإن كان ممتنعًا فلا بد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته، وحيث لم يوجد فعل أصلًا فهو هم. وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب، إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولًا وفعلًا.

وحينئذ قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي» الحديث حق، والمؤاخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق؛ ولكن طائفة من الناس قالوا: إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول، ثم تنازعوا في العقاب عليها، فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كأبي حامد وأبي الفرج بن الجوزي يرون العقوبة على ذلك، وليس معهم دليل على إنه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل.

والقاضي بناها على أصله في «الإيمان» الذي اتبع فيها جهمًا والصالحي، وهو المشهور عن أبي الحسن الأشعري، وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب، ولو كذب بلسانه، وسب الله ورسوله بلسانه، وإن سب الله ورسوله إنما هو كفر في الظاهر، وإن كلما كان كفرًا في نفس الأمر فإنه يمتنع أن يكون معه شيء من تصديق القلب، وهذا أصل فاسد في الشرع والعقل، حتى إن الأئمة: كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيدة وغيرهم كفروا من قال في «الإيمان» بهذا القول: بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون: هو تصديق القلب واللسان؛ فإن هؤلاء لم يكفرهم أحد من الأئمة، وإنما بدعوهم.

وقد بسط الكلام في «الإيمان» وما يتعلق بذلك في غير هذا الموضع، وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشياء بدون لوازمها. فيقدر ما لا وجود له.

وأصل جهم في «الإيمان» تضمن غلطًا من وجوه:

منها: ظنه إنه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمال القلب: كحب الله وخشيته ونحو ذلك.

ومنها: ظنه ثبوت إيمان قائم في القلب بدون شيء من الأقوال والأعمال.

ومنها: ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده في النار، فإنه يمتنع أن يكون في قلبه شيء من التصديق، وجزموا أن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن في قلوبهم شيء من ذلك. وهذا كلامهم في الإدارة والكرهة والحب والبغض ونحو ذلك؛ فإن هذه الأمور إذا كانت همًا وحديث نفس فإنه معفو عنها، وإذا صارت إرادة جازمة وحبًا وبغضًا لزم وجود الفعل ووقوعه، وحينئذ فليس لأحد [أن] يقدر وجودها مجردة. ثم يقول: ليس فيها إثم، وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل.

فإن الأمة مجمعة على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله، والحب فيه والبغض فيه، ويعاقب على بغضه وبغض رسوله، وبغض أوليائه، وعلى محبة الأنداد من دونه، وما يدخل في هذه المحبة من الإرادات والعزوم، فإن المحبة سواء كانت نوعًا من الإرادة أو نوعًا آخر مستلزمًا للإرادة، فلا بد معها من إرادة وعزم، فلا يقال: هذا من حديث النفس المعفو عنه؛ بل كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله».

وفي الصحيحين: عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وفي صحيح البخاري: عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر: لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء، إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده! حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: فإنك الآن أحب إليّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر!».

بل قد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤].

فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والإخوان، وإلا لم يكن مؤمنًا حقًا ومثل هذا ما في الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وهذا لفظ البخاري، فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث:

أحدهما: أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما، وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمنًا بدونها.

الثاني: أن يحب العبد لا يحبه إلا لله وهذا من لوازم الأول.

والثالث: أن يكون إلقاؤه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر.

وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال، محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه، وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة

المتعلقة بأفعالنا، فهي مستلزمة لذلك، فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لا بد أن يريد من العمل ما تقتضيه هذه المحبة، مثل إرادته نصر الله ورسوله ودينه والتقريب إلى الله ورسوله، ومثل بغضه لمن يعادي الله ورسوله.

ومن هذا الباب ما استفاض عنه ﷺ في الصحاح من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب» وفي رواية «الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم» أي ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم، وإن لم أعمل عملهم. وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبًا من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه، إذا كان المحب قادرًا عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة قدر ذلك، وإن كانت موجودة.

وحبّ الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالتضاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] والمواد من أعمال القلوب.

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم والعقاب؛ لأجل عدم الإيمان. فإن ما ناقض الإيمان كالشك والإعراض وردة القلب، وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به رسوله، فاستحق تاركه الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب، فما ناقضه استلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب؛ بخلاف ما استحق الذم لكونه منهيًا عنه كالفواحش والظلم؛ فإن هذا هو الذي يتكلم في الهم به وقصده، إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان، وإن كان يناقض كماله؛ بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات، ولهذا كانت الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة تضمنت شيئين:

أحدهما: نهيها عن الذنوب.

والثاني: تضمنها ذكر الله، وهو أكبر الأمرين، فما فيها من ذكر الله أكبر من كونه ناهية عن الفحشاء والمنكر، و[لبسط] هذا موضع آخر.

والمقصود هنا: إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد

استكمل الإيمان» فإنه إذا كان حبه لله، وبغضه لله، وهما عمل قلبه. وعطاؤه لله، ومنعه لله، وهما عمل بدنه، دل على كمال محبته لله، و[دل] ذلك على كمال الإيمان؛ وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال الذل، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية، ولا بد لكل حي من حب وبغض، فإذا كانت محبته لمن يحبه الله، وبغضه لمن يبغضه الله، دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف، بما يعارضه من شهوات النفس وأهوائها، الذي يظهر في بذل المال الذي هو مادة النفس، فإذا كان حبه لله، وعطاؤه لله، ومنعه لله دلّ على كمال الإيمان باطنًا وظاهرًا.

وأصل الشرك في المشركين ـ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ـ إنما هو اتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] ومن كان حبه لله وبغضه لله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله ولا يمنع إلا لله، فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن: يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه». فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض، أحبهم الله محبةً كامل حتى بلغوا ما بلغوه، وصار أحدهم يدرك بالله، ويتحرك بالله، بحيث إن الله يجيب مسألته، ويعيذه مما استعاذ منه.

وقد ذم في كتابه من أحب أندادًا من دونه، قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٩٣] وذم من اتخذ إلـٰهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه، وهذا قد يكون فعل القلب فقط. وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم، ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٠، ٢١] وقوله: ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسَان: الآية ٢٧].

وقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٠] وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ

ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٥] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج: الآية ٧٢] وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: الآية ١٠٩] وقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: الآية ١٠٥] وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٧].

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: الآية ٥٤] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمَّد: الآية ٩] وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ [التوبة: الآية ١٢٤] الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ [الرّعد: الآية ٣٦] وقوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يُونس: الآية ٥٨].

وقال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: الآية ٧٦] وقال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر: الآية ٧٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: الآية ١٨] وقال: ﴿إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ [الشورى: الآية ٤٨] وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هُود: الآيات ٩ - ١١] وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر: الآية ٢٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: الآيات ٦ - ٨] وقال: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧] وقال: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: الآية ٥٦].

وقال: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فُصّلت: الآية ٢٣] وقال: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ۝١٢﴾ [الفتح: الآية ١٢] وقال: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النّساء: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: الآية ٥] وقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: الآية ٩] وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا

يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: الآيتان ١١٨، ١١٩] وقال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمّد: الآية ٣٧] وقال: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٩، ١٠] وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وقال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢] وقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ١٢] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٤١]. وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٥٧].

ومثل هذا كثير في كتاب الله وسُنَّة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها: مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا» وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه» وقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»، و«لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان». وقوله: «لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن» وأمثال هذا كثير.

بل قول القلب وعمله هو الأصل: مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة، وأما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو حسنة وسيئة بنفسه.

وثانيها: ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل، وهو السيئة المقدورة كما تقدم.

وثالثها: ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة، كما تقدم.

فالقسم الأول: هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات، وأسفل الدركات، بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإن لم يظهر على الجوارح: بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض، وإن كان ذلك قد يقترن به أحيانًا بعض القول والفعل، لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير، وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمّد: الآية ٣٠] فأخبر أنهم لا بد أن يعرفوا في لحن القول.

وأما القسم الثاني، والثالث: فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان، مثل المعاصي الطبعية؛ مثل الزنا، والسرقة، وشرب الخمر. كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، دخل الجنة. وإن زنا وإن سرق. وإن شرب الخمر» وكما شهد النبي ﷺ في الحديث الصحيح للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به فلعنه رجل، فقال: «لا تعلنه فإنه يحب الله ورسوله» وفي رواية قال بعضهم: أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر. فقال النبي ﷺ: «لا تكونوا أعوانًا للشيطان على أخيكم» وهذا في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة.

ولهذا قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به» والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فعلم إن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي تقدح في الإيمان، فأما ما نافى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث؛ لأنه إذا نافى الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد في الحقيقة، ويكون بمنزلة المنافقين، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث، وبه تأتلف الأدلة الشرعية. وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. كما دل عليه الكتاب والسنة، فمن صح إيمانه عفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس، كما يخرجون من النار؛ بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تعدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه، ولهذا جاء: «نية المؤمن خير من عمله» هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «كتاب الأمثال» من مراسيل ثابت البناني. وقد ذكره ابن القيم في النية من طرق عن النبي ﷺ ثم ضعفها. فالله أعلم.

فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردها، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العلم بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلًا؛ ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه.

وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٤] الآية. وهذه الآية وإن كان قد قال طائف من السلف إنها منسوخة كما روى البخاري في صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ وهو ابن عمر ـ إنها نسخت، فالنسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين، يريدون به رفع الدلالة مطلقًا، وإن كان تخصيصًا للعام أو تقيدًا للمطلق، وغير ذلك، كما هو معروف في عرفهم، وقد أنكر

آخرون نسخها لعدم دليل ذلك، وزعم قوم: أن ذلك خبر، والخبر لا ينسخ. ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي. كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي.

والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس في هذه الآية فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث، وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة، ما لم يتكلموا به أو يعملوا به، ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن: «إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

و«حقيقة الأمر» أن قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٤] لم يدل على المؤاخذة بذلك؛ بل دل على المحاسبة به ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب؛ ولهذا قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٤] لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب، ولا أنه يغفر كل شيء، أو يعذب على كل شيء، مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين، وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة، ونحو ذلك.

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعًا لأصل الإيمان وما كان منافيًا له، ويفرق أيضًا بين ما كان مقدورًا عليه فلم يفعل، وبين ما لم يترك إلا للعجز عنه، فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة.

وقد ظهر بهذا التفصيل أن أصل النزاع في «المسألة» إنما وقع لكونهم رأوا عزمًا جازمًا لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارنًا للعزم، وإن كان العجز مقارنًا للإرادة امتنع وجود المراد، لكن لا تكون تلك إرادة جازمة، فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضًا، فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه، وإن لم يوجد الفعل نفسه.

والإنسان يجد من نفسه؛ أن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته، ومع العجز عنه يضعف ذلك الطمع، وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله [على] السواء، ولا عما يظهر على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. مثل بسط الوجه وتعبسه، وإقباله على الشيء والإعراض عنه، وهذه وما يشبهها من أعمال الجوارح التي يترتب عليها الذم والعقاب، كما يترتب عليها الحمد والثواب.

وبعض الناس يقدر عزمًا جازمًا لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره، فسموا التصميم على الفعل في المستقبل عزمًا

جازمًا، ولا نزاع في إطلاق الألفاظ؛ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول: ما قارن الفعل فهو قصد، وما كان قبله فهو عزم. ومنهم من يجعل الجميع سواء، وقد تنازعوا هل تسمى إرادة الله لما يفعله في المستقبل [عزمًا]، وهو نزاع لفظي؛ لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله في المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة، غير العزم المتقدم، وهي الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة، وتنازعوا أيضًا هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي؟ وقد ذكروا أيضًا في ذلك قولان:

والأظهر: أن القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور، والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد.

والمتنازعون في هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقًا على كل عزم على فعل مستقبل، وإن لم يقترن به فعل. وأراد الآخر رفع العقاب مطلقًا عن كل ما في النفس من الإرادات الجازمة ونحوها، مع ظن الاثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل. وكل من هذين انحراف عن الوسط.

فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجري صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب. وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مرادًا إرادة جازمة؛ بل هو الهم الذي وقع العفو عنه. وبه ائتلفت النصوص والأصول.

ثم هنا «مسائل كثيرة» فيما يجتمع في القلب من الإرادات المتعارضة كالاعتقادات المتعارضة، وإرادة الشيء وضده، مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها. ومثل حديث النفس الذي يتضمن إذا قارنه بعض ذلك والتعوذ منه، كما شكا أصحاب رسول الله ﷺ إليه فقالوا: «إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: « أو قد وجدتموه؟!» فقالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان» رواه مسلم من حديث ابن مسعود، وأبي هريرة. وفيه «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان به على الجواب؛ فإن له موارد واسعة. فهنا لما اقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان، وهو خالصه ومحضه؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض، وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك؛ بل إن كان في الكفر البسيط، وهو الإعراض عما جاء به الرسول، وترك الإيمان به ـ وإن لم يعتقد تكذيبه ـ فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك، إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليه عند وجود مقتضيه، فذا لم يكن معه

ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض بدفعه؛ وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة، وليس معه إيمان يكره به ذلك.

ولهذا لما كانت هذه الموسوعة عارضة لعامة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرّعد: الآية ١٧] الآيات. فضرب الله المثل ما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض، وجعل القلوب كالأودية: منها الكبير، ومنها الصغير ما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا: فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» فهذا أحد المثلين.

والمثل الآخر: ما يوقد عليه لطلب الحيلة والمتاع: من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه، وأخبر أن السيل يحتمل زبدًا رابيًا ومما يوقدون عليه في النار زبد مثله، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ [الرّعد: الآية ١٧] الرابي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع في قلوب المؤمنين من الشك والشبهات في العقائد والإرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [الرّعد: الآية ١٧] يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرّعد: الآية ١٧] وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان. كما قال تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآية إلى قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: الآيات ٢٤ ـ ٢٧].

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيمانًا ويقينًا، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحًا وبرًا وتقوى.

وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفه، فإنه قد وجدت منه سيئة الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها، والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب هذا.

وقوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها» كما في بعض ألفاظه في الصحيح، هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين، دون من كان مسلمًا في الظاهر، وهو

منافق في الباطن وهم كثيرون في المتظاهرين بالإسلام قديمًا وحديثًا. وهم في هذه الأزمان المتأخرة في بعض الأماكن أكثر منهم في حال ظهور الإيمان في أول الأمر، فمن أظهر الإيمان وكان صادقًا مجتنبًا ما يضاده أو يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به؛ دون ما ليس كذلك. كما دل عليه لفظ الحديث.

فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيهما ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث، وكذلك قوله: «من هم بحسنة» و«من هم بسيئة» إنما هو في المؤمن الذي يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها؛ لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله. كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١] و﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥] و﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ [الليْل: الآية ٢٠] وهذا للمؤمنين؛ فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا، وقد يخفف عنه بها في الآخرة؛ كما خفف عن أبي طالب لإحسانه إلى النبي ﷺ، وبشفاعة النبي ﷺ، فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف، وقد جاء ذلك مقيدًا في حديث آخر: إنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام.

والله سبحانه أعلم. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

القسم الثاني

طبّ القلوب
عند الإمام ابن قيِّم الجوزية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الإمام ابن قيّم الجوزية في كتابه «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان» في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت[1]:

مكانة القلب:

القلب هو الملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط.

وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية.

وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة، والكرم والصبر، والاحتمال، والحب والإرادة والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنما هي جند من أجناد القلب.

فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئًا أدته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه.

كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه.

ولهذا كثيرًا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١١٠].

وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه.

وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة: فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

---

(١) انظر أيضًا حول هذا الموضوع كتاب مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده.

ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

القلب الصحيح:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال سبحانه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٨٨، ٨٩].

فالسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك:

أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق.

وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله سبحانه وتعالى وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله: إرادة ومحبة، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشية، ورجاء.

وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من:

أقوال القلب. وهي: العقائد، وأقوال اللسان. وهي: الخبر عما في القلب.

وأعمال القلب. وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها.

وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا بقول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرَات: الآية ١].

أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لما فعلت؟ وكيف فعلت؟.

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف منهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أو الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التقرب إلى الرب سبحانه، وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول في ذلك التعبد، أي هل كان العمل مما شرعتُه لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثاني عن المتابعة.

فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص.

وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع.

فهذه حقيقة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

القلب الميت:

والقلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط.

فهو متعبد لغير الله، حبًا، وخوفًا، ورضًا وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه.

فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه.

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه.

فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية معمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يُصِمُّه عما سوى الباطل. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت، وسِلْم لأهلها ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم. ومعاشرته سُمٌّ. ومجالسته هلاك.

القلب المريض:

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما.

ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته.

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتَحَن من داعيين:

داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة.

وداعٍ يدعوه إلى العاجلة.

وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول، حي مخبت لين واعٍ.

والثاني: يابس ميت.

والثالث: مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: الآيات ٥٢ - ٥٤].

فجعل سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا.

فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به، يتأتى منه ما هُيِّيء له وخُلق لأجله.

وخروجه عن الاستقامة:

- إما ليبسه وقساوته. وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العِنين، والعين التي لا تبصر شيئًا.

- وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد.

فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي. وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين، قوة للقلب الحي السليم. لأنه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيُخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له، وكفرًا بالباطل وكراهة له.

ولا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان.

وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا.

عرض الفتن على القلوب

قال حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلوب كعَرْضِ الحصِيرِ عُودًا عُودًا. فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيهِ نُكتَةٌ سَوْدَاءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكرَهَا نُكِتَتْ فيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حتى تَعُودَ القُلوبُ عَلَى قَلْبين:

قَلْبٍ أسْود مُرْبَادًا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلّا ما أُشْرِبَ مِنْ هَواهُ.

وَقَلْبٍ أبيضَ، لا تضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دامتِ السمٰوات والأرضُ».

فشبّه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئًا فشيئًا.

وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلبٌ إذا عرضت عليه فتنة أُشربها، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز مجخيًا»، أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك:

- أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًا.

- الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلبٌ أبيض: قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب، هي أسباب مرضها، وهي:

- فتن الشهوات.

- وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل.

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد.

وقد قسم الصحابة رضي الله عنهم، القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قوله:

«القلوب أربعة:

قلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن.

وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر.

وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي.

وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فهو لما غلب عليه منهما».

فقوله: «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق.

و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنادته بنور العمل والإيمان.

وأشار بالقلب الأغلف: إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى، حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٨].

وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كغلف وأقلَف، وهذه الغشاوة هي الأكِنَّة التي ضربها الله سبحانه وتعالى على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكِنَّة على القلوب وَوَقْرٌ في الأسماع، وعمًى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: الآيتان ٤٥، ٤٦].

فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجربة المتابعة، ولَّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النِّساء: الآية ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة.

وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًا ويوالي أصحابه، والحقَّ باطلًا ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر. والحكم للغالب وإليه يرجع.

أثر المعاصي على القلب(١)

للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله. ومن ذلك:

(١) انظر الجواب الكافي ص ٦٠ ـ ٦٦.

إضعاف تعظيم الرب تعالى:

ومن (آثارها): أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

وربما اغترَّ المغترّ وقال: إنما يحملني على المعاصي حُسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته، وتعظيمُ حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه أو يكبره، أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عزَّ وجلّ مهابته من قلوب الخلق، فيهون عليهم، ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخفَّ به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته، وكيف ينتهك عبد حرمات الله، ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس، أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عن ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: الآية ١٨]، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم، فلم يكن لهم من مكرم، بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟

وقوع الخوف والوحشة في القلب:

ومن (آثارها): ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا، فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف.

فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب كل صيحة عليه،

وكل مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

بذا قضى الله بين الخلق مذ خُلقوا إن المخاوف والإجرام في قرن.

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشًا، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيش المستأنسين.

فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولده فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف:

إذا كنت قد أوحشتك الذنو ب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، وكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا قويًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدًا عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحدًا يلابس شيئًا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش منه.

صرف القلب عن صحته:

ومن (آثارها): أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولًا، لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب، ولا دواء إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله على أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفته هواها، وهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا

أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟.

وأيّ عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحبَّ شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد.

فالهمُّ والغمُّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه وارتياحًا بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا مَنْ باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقوِّمين. فيا عجبًا من بضاعة معك اللهُ مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ.

العمى في بصر القلب:

ومن (آثارها): أنها تعمي بصر القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى، لما اجتمع به الشافعي ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى، حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة ويا كثرة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى القلب منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: «إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم»(١)، فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الظلمة علوًا ظاهرًا يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة، فيا لها من عقوبة، لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص النكد المتعب في زمن هو ساعة من حلم؟ والله المستعان.

في ذكر حقيقة مرض القلب

مرض القلب في القرآن الكريم:

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [الحَج: الآية ٥٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢].

أمرهن تعالى أن لا يَلِنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللّيان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يَخْشَنّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولًا معروفًا.

وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ [الأحزاب: الآية ٦٠].

اختلاف موقف القلوب أمام الأمر الواحد:

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ [المدثر: الآية ٣١].

---

(١) رواه مسلم (٩٥٦).

أخبر سبحانه وتعالى عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر.

فذكر سبحانه خمس حِكَم:

فتنة الكافرين: فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

وقوة يقين أهل الكتاب، فتقوى أنفسهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم:

- فتنة الكفار.
- ويقين أهل الكتاب.
- وزيادة إيمان المؤمنين.
- وانتفاء الريب عن المؤمنين، وأهل الكتاب.

الخامس: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦].

وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها:

قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا.

وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا.

وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع:

- إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم الريب مقررًا لليقين ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه.

- وإن رجعا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدمُ الريبِ عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به. لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد في صدق الرسول، ظهرت فائدة ذكره.

والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يُونس: الآية ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزّه الله تعالى نبيه عن هذين الداءين. فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: الآيتان ١، ٢].

ووصف الرسول ﷺ خلفاءه بضدهما فقال ﷺ: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًا لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

فإذا بَلَّ من داءٍ به ظَنَّ أنَّهُ نجا، وبِهِ الدَّاءُ الَّذي هو قاتِلُهُ

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٢].

والأظهر أن (من) هٰهنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين.

أسباب مرض القلب

ولمّا كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو: خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية.

فإما أن يذهب إدراكه بالكلية، كالعمى والصمم والشلل.

وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه.

وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلوَ مُرًّا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا.

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة. وسبب هذا الخروج عن الاعتدال: إما فساد في الكمية، أو في الكيفية.

فالأول: إما لنقص في المادة، فيحتاج إلى زيادتها. وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة، أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوي بمقتضى ذلك.

ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة. وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة.

فأما حفظ القوة: فإن الله سبحانه وتعالى أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قدم، والمريض إذا برىء، حفظًا لقوتهما عليهما، فإن الصوم يزيد المريض ضعفًا، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر، والصوم يضعفها.

وأما الحمية عن المؤذي: فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل، إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم حِمْية له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له في باطنه.

وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه سبحانه وتعالى أباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرتُ إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرًا قليلًا، أو كما قال:

القلب كالجسد في أمراضه ومضاداتها:

وإذا عرف هذا، فالقلب محتاج:

إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات.

وإلى حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وأنواع المخالفات.

وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقًا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب.

ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠] أي شك. وتارة بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٢].

فالأول: مرض الشبهة.

والثاني: مرض الشهوة.

والصحة تُحفظ بالمِثْل والشَّبَه، والمرض يدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح: من يسير الحر، والبرد، والحركة، ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء: من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته.

وبالجملة: فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته، وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك، بأن يحصل له ما يقوي قوته، ويزيل مرضه، والله الموفق.

خلاصة أمر القلب:

القلب يمرض كما يمرض البدن.

وشفاؤه: في التوبة والحمية.

ويصدأ، كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر.

ويُعرّى، كما يعرى الجسم، وزينته التقوى.

ويجوع ويظمأ، كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه: المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة[1].

في انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية

مرض القلب نوعان:

[الأول]: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات.

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب الفوائد، ص ١٨٣.

وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يُحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه، حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده.

وهذا أخطر المرضين وأصعبهما.

وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظ.

وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ ويدفع موجبها مع قيامها.

وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرًا بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إنْ لم يتداركها بأدويتها المضادة لها.

فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء.

ولهذا يقال: «شفى غيظه» فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائد[١].

فالغيظ: يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضًا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضًا أُخر أصعب من مرض العشق.

---

(١) هي: يعذبهم الله، ويخزهم، وينصر المؤمنين عليهم، ويشف صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب على من يشاء.

وكذلك **الغَمُّ والهم والحزن** أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب، وصح وبرىء من مرضه، وإن كان بباطل تواری ذلك واستتر. ولم يزل، وأعقبه أمراضًا هي أصعب وأخطر.

وكذلك **الجهل**: مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضًا إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه.

قال النبي ﷺ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنما شِفاء العَيِّ السؤال»[1].

فجعل الجهل مرضًا وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاكّ في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره وحصل له بَرْد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدَى والعلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله.

والمقصود أن:

من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية.

ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية.

والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء.

وذلك أعظم مما للبدن وبالله التوفيق.

في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر فيه

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧)؛ وابن ماجه (٥٧٢)؛ والدارمي (٧٥٢) عن ابن عباس؛ ولأبي داود عن جابر (٣٣٦).

قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

فجمع تعالى بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح.

فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه.

فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عرضت عليه القبائح نَفَر منها بطبعة وأبغضها، ولم يلتفت إليها: بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، فآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه العزيز:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: الآية ٥٢].

فجمع بين الروح الذي تحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تَحيا به القلوب، ونور تستضيء به وتشرق.

كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

أي أو مَن كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟.

فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤيده إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذي لا

ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدَفِ الظلام، كما قيل:

لَيلي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظَلامُه في النَّاسِ سَارِي
النَّاسُ في سُدْفِ الظَّلا مِ، ونحنُ في ضَوْءِ النَّهارِ

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

أما الأول: فكما قال في سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء، لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه وتعالى أو الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماء كثيرًا، ووادٍ صغير يسع ماء قليلًا. كذلك القلوب مُشبَّهة بالأدوية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد.

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع.

وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١٧، ١٨] فهذا المثل الناري.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩]، فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب (المعالم) وغيره.

صلاح القلب وسعادته:

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآيتان ٦٩، ٧٠].

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حيّ القلب.

كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: الآية ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

فأخبر سبحانه أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور قلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: الآية ٢٢].

ولقد أحسن القائل:

وَفِي الْجَهْلِ، قَبْلَ الْمَوْتِ، مَوْتٌ لأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامِهِم، قَبْلَ الْقُبُورِ، قُبُورُ

وَأَرْوَاحُهُم فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِم ... وَلَيْسَ لَهُم حَتَّىٰ النُّشُورِ نُشُورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحًا، كما قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: الآية ١٥] في موضعين من كتابه.

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: الآية ٥٢]، لأن حياة الأرواح والقلوب به.

وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [النحل: الآية ٩٧]، فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: الآية ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: الآية ٣٠].

فبيّن سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: الآية ١٢٤].

وقال تعالى، فجمع بين النوعين: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥].

فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ﴾ [الزُمَر: الآية ٢٢].

فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر.

وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه.

في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركًا للحق مريدًا له موثرًا له على غيره

حياة القلب بإدراك الحق

ولما كان في القلب قوّتان:

- قوة العلم والتمييز.
- وقوة الإرادة والحب.

كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته.

فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل.

وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل.

فمَن لم يعرف الحق فهو ضال.

ومَن عرفه وآثر غيره فهو مغضوب عليه.

ومَن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال، لأنهم أمة جهل. واليهود أخص بالغضب، لأنهم أمة عناد.

وهذه الأمة هي المنعم عليهم. ولهذا قال سفيان بن عُيينة (رحمه الله تعالى): من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

وفي (المسند) والترمذي من حديث عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

معرفة الحق واتّباعه:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه، فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]، فجمع سبحانه وتعالى بين الاستجابة له والإيمان به.

ومنها قوله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ١ - ٥].

وقال في وسط السورة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٧]، إلى آخر الآية.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العَصر: الآيات ١ - ٣].

فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل أحد في خسر، إلا من كمّل قُوّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعة الله. فهذا كماله في نفسه.

ثم كمّل غيره بوصيتِهِ له بذلك، وأمره إياه بِهِ، وملاكُ ذلك، وهو الصبر.

فكَمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، وخالفوه واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث هَمّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء: حارث وهمام».

فالحارث: الكاسب العامل، والهمام: المريد.

فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون مُتَصَوَّرًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وإرادته ولا بد.

وهذا يتبين بالباب الذي بعده. فنقول:

في أنه لا سعادة للقلب ولا لذّة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلـهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبة وأحب إليه من كل سواه

السعادة والتصوّر الكلي للنفع والضّرّ

معلوم أن كل حي ـ سوى الله سبحانه وتعالى ـ: من ملك أو إنس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك له إلا بتصور للنافع والضار، والمنفعةُ من جنس النعيم واللذة، والمضرةُ من جنس الألم والعذاب.

ولا بدَّ له من أمرين:

أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به، ويلتذ بإدراكه.

والثاني: المعين الموصل المحصل لذلك المقصود.

وبإزاء ذلك أمران آخران:

أحدهما: مكروه بغيض ضار.

والثاني: معين دافع له عنه.

فهذه أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فإذا تقرر ذلك، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصودَ المدعوَّ المطلوب، الذي يراد وجهه، ويبتغي قُرْبه، ويُطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك.

وعبودية ما سواه والالتفات إليه، والتعلق به هو الضار المكروه.

والله هو المعين على دفعه، فهو سبحانه وتعالى الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه.

فهو المعبود المحبوب المراد.

وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له.

والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته.

وهو المعين لعبده على دفعه عنه.

كما قال أعرف الخلق به عليه الصلاة والسلام: (أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك).

وقال ﷺ: «اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووَجَّهتُ وَجْهي إليك، وفَوّضت أمري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رَغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك».

فمنه تعالى المنجَى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله، أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه.

سعادة العبد في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتِحَة: الآية ٥]:

ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب والمستعان، هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: معنى ألوهيته.

والثاني: من معنى ربوبيته.

فإن الإلـٰه هو الذي تألهُهُ القلوب: محبةً، وإنابةً، وإجلالًا، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا.

والرّبّ هو الذي يُرَبِّي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إلـٰه إلا هو، ولا رب إلا هو.

فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلـهية ما سواه.

آيات كريمة تجمع أصلي التوحيد:

وقد جمع سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه:

كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ١٢٣].

وقوله عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفُرقان: الآية ٥٨].

وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: الآيتان ٨، ٩].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: الآية ٣٠].

وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٤].

فهذه سبعة مواضع ينتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة.

الشوق في الدنيا والنظر في الآخرة

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى خلق لخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له.

فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم.

وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئًا هو أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

ولم يعطهم في الدنيا شيئًا خيرًا لهم، ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، والتنعم بذكره.

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي والإمام أحمد، وابن حِبَّان في (صحيحه) وغيرهم، من حديث عَمَّار بن ياسِر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو به.

«اللَّهمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا يَنْفَدُ، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهمَّ زَيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين».

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلى وجهه سبحانه.

ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا على عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين، قال: «في غير ضَرَّاء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّة».

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالمًا بالحق، متبعًا له، معلمًا لغيره، مرشدًا له قال: «وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

ولما كان الرضى النافع المحصل للمقصود هو الرضى بعد وقوع القضاء لا قبله، فإن ذلك عزم على الرضى، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضى بعده.

فإن المقدور يكتنفه أمران:

الاستخارة قبل وقوعه.

والرضى بعد وقوعه.

فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما، كما في (المسند) وغيره عنه ﷺ: «إن من سعادة ابن آدم استخارة الله. ورضاه بما قضى الله، وإن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله».

ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضًا رضاه في الباطل، سأل الله عزّ وجل أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضى، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق.

ولما كان الفقر والغنى محنتين وبليتين، يبتلي الله بهما عبده. ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله عزَّ وجلّ القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

ولما كان النعيم نوعين: نوعًا للبدن، ونوعًا للقلب، وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «أسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع».

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب، وكان القلب أعظمهما قدرًا، وأجلّهما خطرًا، وإذا حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: «زينا بزينة الإيمان».

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائنًا من كان، بل هو محشو بالغصص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل «برد العيش بعد الموت».

والمقصود: أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة.

فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له، كحاجتهم إليه في خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال.

ولهذا كانت «لا إلـه إلا الله» أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلـهية رأس الأمر.

وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم، فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم، كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع.

ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال:

«أتدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار».

ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم، كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به ويأنس به، ويتنعم بالتوجه إليه.

ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ.

وكما أن السمٰوات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢]، فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فسادًا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون الله وحده إلـهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه، ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

فقر العبد إلى عبادة الله

الوجه الثالث: أنَّ فقر العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفَس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلـهه الحق، الذي لا إلـه إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كَدْحًا فملاقيه، ولا بد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، وينعم بهذا في حال وبهذا في حال؛ وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلـهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبُخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة.

- لمجرد الابتلاء والامتحان.

- أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالإيمان.

- أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان.

كما هي مقالات من بُخس حظه من معرفة الرحمٰن، وقلّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زبَد الأفكار وزُبالة الأذهان.

بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلًا لهذا الشأن.

والله المستعان، وعليه التكلان.

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لا بد منها، إذ هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها سعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: الآيتان ٥٧، ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآنُ، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يِساف: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة.

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

وقالت طائفة من السلف: فضله القرآن، ورحمته الإسلام.

والتحقيق: أن كلًّا منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتنَّ بهما الله على رسوله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: الآية ٥٢]، والله سبحانه إنما رفع مَنْ رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما.

اعتراض وجواب:

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن؛ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢].

قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسمِّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفًا قط، بل سمَّاها روحًا ونورًا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

لذّة النظر إلى وجهه تعالى يوم القيامة

الوجه الرابع: إن أفضل نعيم الآخرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جلّ جلاله، وسماع خطابه.

كما في (صحيح مسلم) عن صُهيّب عن النبي ﷺ «إذا دخل أهل الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله مَوعدًا يريد أن يُنْجِزَكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا؛ ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه».

وفي حديث آخر «فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه».

فبيَّن النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتّة.

ولهذا قال سبحانه في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطفّفين: الآيتان ١٥، ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطفّفين: الآيتان ٢٢، ٢٣].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم.

ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطفّفين: الآية ١٦].

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا، وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا

رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: الآية ٣٢]، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: الآية ٣٤] مقابلة لتغامزهم بهم وضحكهم منهم.

ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطفِّفين: الآية ٣٥] فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطفِّفين: الآية ٣٢].

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين النوعين ولا بد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد النوعين يحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

لذّة النظر تابعة للمعرفة:

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأمن به، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به، ومحبتهم له، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم.

النصر والرزق بيد الله تعالى

الوجه الخامس: إن المخلوق ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل الله وحده هو الملك، الذي له ملك ذلك كله.

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٠]. وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الآية ٢٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: الآية ٣]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المُلك: الآيتان ٢٠، ٢١].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزْقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن كمال فطنة العَبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي، لطيف الفِطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك، قال: يا رب وما لطف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حَبَّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها».

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢]، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده ونصره ويرزقه ويَكْلؤُه.

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمران قال: سمعت وَهْبًا يقول: قال الله عزَّ وجلّ في بعض كتبه: «بعزتي، إنه من اعتصم بي، فإن كادته السمٰوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِلُه إلى نفسه، كفَّاي لعبدي مَلآي، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفُق به منه».

قال أحمد: حدّثنا هاشم بن القاسم، حدّثنا أبو سعيد المؤدب، حدّثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن مُنَبِّه؛ وهو يطوف بالبيت؛ فقلت له: حدّثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا، وأوجزْ، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود!! أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ـ أعرف ذلك من نيّته ـ فتكيده السمٰوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهم إلا جعلت له من بينهن مخرجًا، وأما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيَّته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسَخْت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك».

وهذا الوجه أظهر للعامة من الذي قبله. ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول ومنه دعت الرسل إلى الوجه الأول.

وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الوجه الأول، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه،

ويقتضي أيضًا: محبته وعبادته، لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول.

ونظير ذلك: من ينزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذيذ مناجاته وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه ما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوّلًا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أوّلًا حتى يطلبه، ويشتاق إليه، وفي نحو ذلك قال القائل:

جَزَىٰ اللهُ يَوْمَ الرَّوعِ خَيْرًا، فإنَّهُ أرانا على عِلَّاتِه أُمَّ ثابِتِ
أَرانا مَصُوْنَاتِ الحِجَالِ، وَلَمْ نَكُنْ نَراهُنَّ إلَّا عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ

التعلّق بغير الله تعالى ضرر في الدارين

الوجه السادس: أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضَرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله.

فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك.

ولو أحبّ سوى الله ما أحب، فلا بد أن يُسْلَبَهُ ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته، ويعذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: الآية ٥٥].

ومحبّ الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي.

وذلك أن محبها لا ينال منها شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا».

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن، ليست بدار إقامة، إنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين!! فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها. لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من

جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه، وهو حَتْفُه، فكن فيها كالمداوي جراحَه، يحتمي قليلًا، مخافة ما يكره طويلًا، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرَّارة، الخداعة الخيالة، التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوقت لخطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى، ونسي المعاد، فشَغل بها لُبَّه، حتى زَلَّت عنها قدمه، فعظمت عليها ندامته، وكبرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت، وعاشق لم ينل منها بغيته، فعاش بغُصَّته، وذهب بكمده، ولم يدرك منها ما طلب، ولم تسترح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد. فكن أسرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وُصِل الرخاء منها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها إلى فناء سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان ربها لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلًا، لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ، وعنها زاجر؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن، ولا نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جَناح بَعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا. فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها. ونسي ما صنع الله برسوله حين شد الحجر على بطنه».

وقال الحسن أيضًا: إن قومًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُب. فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها.

وهذا باب واسع، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها.

ولمّا كانت هي أكبر هَمِّ من لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو لقاء ربه. كان عذابه بها بحسب حرصه عليها، وشدة اجتهاده في طلبها.

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق، فانِ في حب معشوقه، وكلما رامَ قربًا من معشوقه نأى عنه، ولا يفي له ويهجره، ويصل عدوه. فهو مع معشوقه في أنكد عيش. يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلوّن، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه، ولا يجد عنه سبيلًا إلى سَلْوة تُريحه، ولا وصال يدوم له.

فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا إرادته هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذبًا بنفس ما كان ملتذًا به على قدر لذته به، التي شغلته عن سعيه في طلب زاده، ومصالح معاده؟.

مَن أحبَّ شيئًا ـ سوى الله ـ عذب به:

والمقصود بيان أن من أحب شيئًا سوى الله، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معينًا له على طاعة الله: عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قال:

أَنْتَ القَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوىٰ مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يومُ المعاد ولّى الحكَمُ العدل سبحانه كلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا. وكان معه: إما منعمًا أو معذبًا. ولهذا (يمثل لصاحب المال ماله شجاعًا أقرع يأخذ بِلِهْزِمَتيه يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ويُصَفَّح له صفائح من نار يُكْوَى بها جَبينه وجَنبه وظهره).

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله جمع بينهما في النار، وعذب كل منهما بصاحبه. قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٦٧].

وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك، يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى. ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق «أليس عدلًا مني أن أُولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

وقال ﷺ: «المرء مع مَن أحبّ».

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفُرقان: الآيات ٢٧ - ٢٩]. وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ٢٢ - ٢٥].

قال عمر بن الخطاب: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التّكوير: الآية ٧]، فقُرِنَ كل شكل إلى شكله، وجعل معه قرينًا وزوجًا: البرُّ مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود: أن مَنْ أحب شيئًا سوى الله فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذب بفواته، وتألم على قوة تعلُّق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل

له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته: أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة.

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوىٰ حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَـرَاهُ بَـاكِـيًـا فِـي كُـلِّ حَـالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ، أَو لاشْتِيَاقِ
فَيَبْكي إِنْ نَأَوْا، شَوْقًا إِلَيْهِم ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا، حَذَرَ الفِرَاقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلاقِي ... وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفِرَاقِ

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب، ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه».

فذِكْرُه: جميع أنواع طاعته.

فكل مَن كان في طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر.

وكل مَن والاهُ الله فقد أحبَّه وقرَّبَهُ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه، وهي نائلة كل ما عداه.

الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمّله منه، فلا بد أن يخذل من الجهة التي قَدَر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: الآيتان ٧٤، ٧٥]، أي يغضبون له ويحاربون، كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ [هود: الآية ١٠١] أي غير تخسير. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [الشُّعراء: الآية ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [الإسراء: الآية ٢٢]، فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق سبحانه.

فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به.

وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

منفعة الخالق ومنفعة الخلق

الوجه الثامن: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة بل رحمة منه وإحسانًا. فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليتعزز بهم من ذِلّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٥٦ - ٥٨]. وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١١١].

فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أوليائه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمّد: الآية ٣٨]، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلًا أو آجلًا. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان لنفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقًا إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه.

فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، فهو أيضًا إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير.

وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة، فهو أيضًا محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولم يعجز عنه.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٢].

وقال تعالى، فيما رواه عن رسوله: «يا عبادي!! إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ يا عبادي!! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوَفِّيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[(١)].

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انْتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل مِنّته.

فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعًا أو دفعًا، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم من بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه. والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه.

فالسعيد مَن عاملهم لله لا لهم، وأحسن إليهم لله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم مع الله، ورجا الله بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم بحب الله، ولم يحبهم مع الله، كما قال أولياء الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: الآية ٩].

الوجه التاسع: أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يعرفه الله إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره الله عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة. فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه؛ وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفًا وتوكلًا وعبودية: ضرر محض، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك.

الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك، وخوفك بغيره؟

وجماع هذا أن تعلم: (أن الخلق كلهم لو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك)[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: الآية ٥١].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦).

خلاصة

لمّا كان الإنسان بل وكل حي يتحرك بالإرادة، لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة، وله مراد مطلوب، وطريق وسبب موصل إليه، مُعين عليه، وتارة يكون السبب منه، وتارة يكون من خارج منفصل عنه، وتارة منه ومن الخارج، فصار الحي مجبولًا على أن يقصد شيئًا ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في حصول مراده.

والمراد قسمان:

أحدهما: ما هو مراد لنفسه.

والثاني: ما هو مراد لغيره.

والمستعان قسمان:

أحدهما: ما هو مستعان بنفسه.

والثاني: ما هو تبع له وآلة.

فهذه أربعة أمور: مراد لنفسه، ومراد لغيره، ومستعان بنفسه، ومستعان بكونه آلة، وتبعًا للمستعان بنفسه.

فلا بد للقلب من مطلوب يطمئن إليه، وينتهي إلى محبته. ولا بدّ له من شيء يتوصل إليه به ويستعين به في حصول مطلوبه.

والمستعان مدعو ومسؤول.

والعبادة والاستعانة كثيرًا ما يتلازمان.

فمَن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له، وذل له، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة، وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه.

وأما مَن أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به، ويستعين بغيره عليه، كمن أحب مالًا أو منصبًا أو امرأة، فإن علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به، فاجتمع له محبته والاستعانة به.

فالأقسام أربعة:

الأول: محبوب لنفسه وذاته، مستعان بنفسه. فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا الله وحده. وكل ما سواه فإنما ينبغي أن يحب تبعًا لمحبته، ويستعان به لكونه آلة وسببًا.

الثاني: محبوب لغيره ومستعان به أيضًا، كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض محبه.

الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره.

الرابع: مستعان به غير محبوب في نفسه.

فإذا عرف ذلك تبين مَنْ أحقُّ هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرة على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها.

والله المستعان وعليه التكلان.

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: الآية ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢].

وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي: أمراض الشبهات، والشهوات.

والقرآن شفاء للنوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوّات، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانًا.

فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

فمَن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم:

بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد.

وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئًا.

وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها.

وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي: «لحم جمل غَثٍّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتَقَى، ولا سمين فينتقل».

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل أو التعقيد، كما قيل:

لولا التنافسُ في الدنيا لَما وُضِعَتْ كتبُ التَّناظُرِ، لا (المغني) ولا (العمد)
يحلِّلونَ بزعمٍ منهُمُ عُقَدًا وبالّذي وَضَعُوه زادتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى؛ والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من (مرامهم)، حيث يقول:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقَالُ وأكثرُ سَعْيِ العالمينَ ضَلالُ
وأرواحُنا في وَحشةٍ منْ جُسُومِنا وَحاصِلُ دُنْيانا أَذىً ووَبال
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنَا طُوْلَ عُمْرِنَا سِوىٰ أنْ جَمعنا فيهِ قِيْلَ وَقَالُوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة.

وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًا قد ذكرناه في كتاب (الصواعق المرسلة) وغيره.

وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: آخر أمر المتكلمين الشك وآخر أمر المتصوفين الشطح.

والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

شفاء القرآن لمرض الشهوات:

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع

العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًا للرشد، مبغضًا للغي.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

وعادَ الفتىٰ كالطِّفلِ، ليسَ بقَابِلٍ سِوىٰ المَحْضِ شيئًا، واستراحتْ عواذِلُهْ

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه.

وكلٌ من القلب والبدن محتاج إلى أن يترقى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، وكما أن البدن محتاج إلى أن يرقى بالأغذية المصلحة له والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود.

وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بدّ من ذكر هذا وهذا، فنقول:

في زكاة القلب

الزكاة في اللغة: هي النّماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إنما نما.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣].

فجمع بين الأمرين: الطهارة، والزكاة، لتلازمهما.

فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغَل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: فزكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير

ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النُّور: الآية ٣٠].

فجعل الزكاة بعد غضّ البصر وحفظ الفرج.

فوائد غضّ البصر عن المحارم:

ولهذا كان غضّ البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداهما: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب، وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده؛ كما قيل:

وكنتَ متى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلبكَ يَومًا أَتعبتْكَ المَناظِرُ

رَأيتَ الَّذي لا كُلَّهُ أنتَ قَادرٌ ... عَليهِ، وَلا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صَابرُ

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تَقوى فتصير صبابة. ينصبُّ إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب. كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقًا. وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفًا. وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تَتَيُّمًا. والتتيم: التعبد، ومنه تَيَّمه الحب إذا عبَّده. وتَيم الله: عبد الله: فيصير القلب لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له. وهذا كله جناية النظر.

فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكًا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا. يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه، وإلٰهه ومعبوده، فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف لما كان مخلصًا لله نجا من ذلك مع كونه شابًا عَزَبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية: في غضب البصر: **نور القلب وصحة الفراسة.**

قال أبو شجاع الكرماني: من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة.

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: الآية ٧٥]، وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة.

وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النُّور: الآية ٣٥].

وسرّ هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غضّ بصره عما حرمه الله عليه عوضه الله من جنسه ما هو خير منه؛ فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله.

وهذا أمر يحسّه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النصر، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله.

ذلّ المعصية وعزّ الطاعة:

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه. فإن الله سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: الآية ٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠].

أي مَن كان يطلب العِزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: الناس يطلبون العز بأبواب ملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله.

وقال الحسن: وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وَطَقْطَقَتْ بهم البغال؛ إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عزَّ وجلّ إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن من أطاع الله فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت».

زكاة القلب موقوفة على طهارته:

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النّور: الآية ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك.

وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النّور: الآية ٢٨].

فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلا يَطَّلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يُطَّلَع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردَّ البصر وغَضَّه أزكى لصاحبه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥].

وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النّازعات: الآية ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: الآيتان ٦، ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلٰهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلٰهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا.

فأصل ما تزكو به القلب والأرواح: هو التوحيد.

الفرق بين تزكية النفس وبين الإخبار عن ذلك:

والتزكية جعل الشيء زكيًا.

إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه.

كما يقال: عَدَّلته وفَسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: الآية ٣٢]، هو على غير معنى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: الآية ٩]، أي لا تخبروا بزكاتها، وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٣٢].

وكان اسم (زينب) (بَرَّة) فقال: (تزكي نفسها)، فسماها رسول الله ﷺ (زينب) وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم».

وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: الآية ٤٩]، أي يعتقدون زكاءها ويخبرون به، كما يزكي المزكي الشاهد، فيقول عن نفسه ما يقول المزكي فيه، ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٩] أي هو الذي يجعله زاكيًا، ويخبر بزكاته.

وهذا بخلاف قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، فإنه من باب قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: الآية ١٨]، أي تعمل بطاعة الله، فتصير زاكيًا، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: الآية ١٤].

معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: الآية ٩]:

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ فقيل: هو لله. أي أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس دسَّاها، وقيل: إن الضمير يعود على فاعل ﴿أَفْلَحَ﴾ وهو ﴿مَن﴾ سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه وقد خاب من دسّاه.

والأولون يقولون (من) وإن كان لفظها مذكرًا فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح، وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٥]، فأفرد الضمير، والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: الآية ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: ما رواه أهل (السنن) من حديث ابن أبي مُليكة عن عائشة قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ

أعطِ نفسي تقواها، وزَكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليّها ومولاها»، فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وإن الله تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية، فالله هو المزكي، والعبد هو المتزكي. والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: الآية ١٤]، وقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النّازعات: الآية ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكّى؟.

قالوا: وهذا هو الحق. فإنه لا يفلح إلا من زكّاه الله، قالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية ابن أبي طَلحة وعطاء والكلبي: قد أفلح من زكى الله نفسه.

وقال ابن زيد: قد أفلح من زكى الله نفسه، واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضًا قوله في أول السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشّمس: الآية ٨].

قالوا: وأيضًا فإنه سبحانه أخبر أنه خالق النفس وصفاتها وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على (من) أي أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها. وضالَّة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع (مَن) على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ (مَن) كما يقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدُّ من ذكر ما يزيله.

قالوا: و (مَن) بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح من زكاها الله لم يكن جائزًا، لعود الضمير المؤنث على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى بـ (مَن) التي هي بمعنى الذي، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس.

وقال قتادة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: الآية ٩] من عمل خيرًا زكاها بطاعة الله عزَّ وجلّ، وقال أيضًا: قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله، وقد خاب مَن أهلكها وحملها على معصية الله.

قال ابن قُتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبرِّ والصدقة، واصطناع المعروف: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآية ١٠] أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبدًا خفي المكان، عديم المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف قد شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويَفَاعَ الأرض لتشهر أماكنها للمُعْتفين وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبوَّابُ بيتِك في مَعْلمٍ رحيبِ المباءة والمسرحِ
كفيتَ العُفاة طِلاب القِرى ونبحَ الكلاب لمستنبحِ

فهذان قولان مشهوران في الآية.

وفيها قول ثالث: أن المعنى: خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، حكاه الواحدي، قال: ومعنى هذا: أنه أخفى نفسه في الصالحين، يُرِي الناس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وهذا ـ وإن كان حقًا في نفسه ـ لكن كونه هو المراد بالآية نظر، وإنما يدخل في الآية بطريق العموم. فإن الذي يدس نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم. والله تعالى أعلم.

في طهارة القلب من أدرانه ونجاساته

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: الآية ٤]:

هذا الباب، وإن كان داخلًا فيما قبله كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر: الآيات ١ - ٤]. وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٤١].

القائلون بأن المراد بالثياب القلب:

وجمهور المفسّرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هٰهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه.

فروى عطاء عن ابن عباس قال: يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه.

وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهر من الذنب.

ونحوه قول الشَّعْبي وإبراهيم والضحاك والزُّهري.

وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تكْنِي بالثياب عن النفس. ومنه قول الشَّمَّاخ:

رَموها بأثوابٍ خفافٍ، فَلا تَرىٰ ... لها شَبَهًا إلا النعامَ المنَفَّرا

رموها يعني «الركاب» بأبدانهم.

وقال عنترة:

فشككتُ بالرُّمحِ الطَّويلِ ثيابَهُ ... ليْسَ الكَريمُ عَلَى القَنَى بِمُحَرَّمِ

يعني نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب.

وقال سعيد بن جبير: كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب.

وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرَة، ورُوِي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإنِّي بحَمْد اللهِ لا ثوبَ غادرٍ ... لَبِسْتُ، ولا من خِزْيَةٍ أتقنَّع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: وعملك فأصلح، هو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق.

وقال السُّدي: يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب.

قال الشاعر:

لا هُمَّ إنَّ عامِرَ بنَ جَهْمِ ... أَوْ ذمَ حَجّا في ثِيابٍ دُسْمِ

يعني أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب، وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طهَارَى نَقية

يريد أنهم لا يغدرون، بل يوفون.

وقال الحسن: خُلُقك فحسِّنهُ، وهذا قول القرطبي.

وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب، والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

ورُوِي عن سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر.

وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسلي

قول الظاهرية:

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد.

وذكر أبو إسحٰق: وثيابك فقصر، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤمَنْ أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس.

قول مَن فسّر الثياب بالنساء:

وقال ابن عرفة معناه: نساءك طهرهن، وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، وكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغْ أبا حَفْصٍ رسولًا فِدًى لكَ من أخي ثقةٍ: إزاري

أي أهلي.

ومنه قول البراء بن مَعْرور للنبي ﷺ ليلة العَقَبة: «لَنَمْنَعَنَّكَ ممَّا نَمْنَعُ منهُ أُزُرَنَا» أي نساءنا.

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك.

فإن خبث الملبس يُكسبُ القلب هَيْئَةً خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك.

ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابس الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور، لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفجور والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

أثر سماع الباطل على القلب

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حَرَّفه.

كما تصنع الجَهْمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردُّون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنهم لو طهرت لما تعوضت بالباطل عن كلام الله ورسوله.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله».

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه. ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلّت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصحّ أن تفسر الإرادة هٰهنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرًا ومحبة، ولم يرده منهم كونًا. فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر.

لا يدخل الجنة خبيث:

ودلّت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حَرَّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره. فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُمَر: الآية ٧٣]، أي ادخلوها بسبب طيبكم.

والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: الآية ٣٢].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوق.

ومَن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها.

حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون من بقايا بقيت عليهم، قَصَّرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر.

فهما طهارتان:

طهارة البدن. وطهارة القلب.

ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقيب وضوئه: (أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهرين).

فطهارة القلب بالتوبة. وطهارة البدن بالماء.

فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله، والوقوف بين يديه ومناجاتِه.

معنى دعاء (اللَّهمَّ طهرني..):

وسأَلت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ «اللهمَّ طهرني من خطاياي بالماء الثَّلْج والبَرَد» كيف تطهر الخطايا بذلك، وما فائدة تخصيص التطهير بذلك؟ وقوله في لفظ آخر «والماء البارد» والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا، وترخي القلب وتضرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفىء النار، فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا.

هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

فاعلم أن هٰهنا أربعة أمور: أمران حسّيّان، وأمران معنويان. فالنجاسة التي تزول بالماء ومزيلها: حسّيّان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها: معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا.

فذكر النبي ﷺ من كل شطر قسمًا نَبَّه بِه على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان.

كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة.

ومن كمال بيانه ﷺ، وتحقيقه لما يخبر به، ويأمر به: ويمثل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس.

وهذا كثير في كلامه؛ كقوله في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «سل الله الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سَداد السَّهم»، إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافرًا، وقد ضل عن الطريق، ولا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة، تمثيلًا لها بالطريق المحسوس للمسافر.

وحاجة المسافر إلى الله سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد؛ إلى من يدله على الطريق الموصل إليها.

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولًا وعملًا ـ فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلًا، فهذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه.

وكثيرًا ما يقرن في القرآن هذا وهذا.

فمنه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٦]، فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، وزينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢٣] فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢]، فارتهن جماله الظاهر. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبّه النبي ﷺ بقوله: «اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه ﷺ: كان إذا خرج من الخلاء قال: (غفرانك) وفي هذا من السر ـ والله أعلم ـ: أن النَّجْوَ يُثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه مِنْ هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه.

وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال.

نجاسة المعاصي وأثرها على القلب

نجاسة الشرك والزنا واللواطة:

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: الآية ٢٨].

وقوله في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: الآية ٥٦].

فأقرّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ﴾ [النُّور: الآية ٢٦].

نجاسة الشرك نوعان:

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

والمخفّفة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه ورجائه.

ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَسًا ـ بفتح الجيم ـ ولم يقل: إنما المشركون نجِس ـ بالكسر ـ فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس ـ بالكسر ـ المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس.. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم.

وإن النجَس في اللغة والشرع، هو: المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلًا أن يخالط ويلابس لقذارته، ونُفْرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

والأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب، أو تؤذيهما معًا. والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

أثر النجاسة على الروح والقلب:

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبثُ والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها. كما يتأذى من شم رائحة النَّتْن، ويظهر ذلك كثيرًا في عَرَقه، حتى تجد لرائحة عرقه نتنًا. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعَرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقًا.

قالت أم سُلَيم، وقد سألها رسول الله ﷺ عنه وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب».

فالنفس النجسة الخبيثة يقوي خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

ما رتب الله على الشرك من آثار:

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له، وأشدها مَقْتًا لديه. ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا.

وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلـهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفَتْح: الآية ٦].

فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عَدْلًا ونِدًّا، يحبه ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١].

أي يجعلون له عَدْلًا في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالًا وباطلًا، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٩٧، ٩٨].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السمٰوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما ساووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص ـ المشايخ والأنبياء والصالحين ـ وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأنهم لا يشفعون لعابدهم أبدًا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيءٌ، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه وليٌّ ولا شفيع.

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله، ولهذا قال إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصَّافات: الآيتان ٨٦، ٨٧] وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له ندًّا؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟.

فإن المشرك:

إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون. وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة.

أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم.

أو لا يكفي عبده وحده، أن لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّره به من القِلَّة، وتعززه به من الذِّلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك.

أو يظنْ أن للمخلوق عليه حقًا. فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه، لكفى في شناعته.

البدعة قرينة الشرك:

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى. ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يُخلّد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية. فلا تجد مشركًا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة. فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلًا مقلدًا، وإن كان مستبصرًا في بدعته فهو مشاقّ لله ورسوله.

فالمتنقصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة، ولا سيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تقبل اليقين، ولا تغني من اليقين والعلم شيئًا. فيالله للمسلمين، أيُّ شيء فات هذا من التنقص؟

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم. فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة، بل هم أعظم الناس تنقصًا، لَبَّسَ عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال. ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٣٣]، فالإثم والبغي قرينان. والشرك والبدعة قرينان.

الفرق بين نجاسة المعاصي ونجاسة الشرك:

وأما نجاسة الذنوب والمعاصي، فإنها بوجه آخر، فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله عزَّ وجلّ. ولهذا لم يرتّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك.

وهكذا استقرَّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسة المخففة، كالنجاسة في محل الاسْتِجْمَار، وأسفل الخُفّ، والحذَاء وبول الصبي الرّضيع وغير ذلك، ما لا يُعْفَى عن المغلظة.

وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقَى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئًا البتة رَبَّه بقُراب الأرض خطاياه أتاه بقرابها مَغفرةِ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده، ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قُراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قويّ، فلا تثبت معه.

أغلظ النجاسات: الزنا واللواطة:

ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدًا، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا؛ فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصًا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

فإن عشق الصور المحرَّمة نوع تَعَبُّد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب، وتمكّن منه صار تتيُّمًا، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابدًا لمعشوقه، كثيرًا ما يغلب حبُّه وذكره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثارُ محابِّه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته.

بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقًا بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلـهه من دون الله، يقدِّم رضاه وحبه على رضى الله وحبه، ويتقرَّبُ إليه ما لا يتقرب إلى الله، ويُنفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنّب من سَخَطه ما لا يتجنبه من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حُبًّا، وخضوعًا، وذلّا؛ وسمعًا، وطاعة.

عشق الصور والشرك:

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بُليَ بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه.

والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق، ولا يخلو أصحابهما منه، وإنما لتنقُّله من محل إلى محل لا يبقى مقصورًا على محل واحد، بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألُّهه وتعبده.

فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في (كتاب الزهد): «لا يكون البطّالون من الحكماء، ولا تلِجُ الزناة مَلكوت السماء».

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريبًا للشرك في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النُّور: الآية ٣].

والمقصود: أن الله سبحانه سمّى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالًا، وسمّى فاعله جنبًا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء.

فكذلك إذا كان حرامًا يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرًا كاملًا بالتوبة؛ وطهرًا لبدنه بالماء.

وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٢] من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البرُوج: الآية ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا

بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المَائدة: الآية ٥٩].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وإنه لا يشوبه بالإشراك. وهذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشببها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بدٌّ مِنَ الصَّبْرِ، فَاصْطَبِرْ ... علىٰ الحَقِّ، ذاكَ الصَّبرُ تُحْمدُ عُقْباهُ

في علامات مرض القلب وصحته

ما هو مرض القلب؟!

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص، به كماله في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه: أنه يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش.

ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية.

ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق.

ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولَذّاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به؛ فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولا بد، فيصير معذبًا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين:

- من جهة حسرة فَوْته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به.
- ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.

فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

وكل مَن عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئًا من المحبوبات.

فمَن آثر شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض.

كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقط عنها شهوة الطيِّب، وتعوّضت بمحبة غيره.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك:

أنه لا تؤلمه جراحات القبائح.

ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره:

كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي أسوة بهم.

وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم.

والمقصود: أن من علامات أمراض القلوب:

عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة.

وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار.

فهنا أربعة أمور:

غذاء نافع.

ودواء شافٍ.

وغذاء ضارّ.

ودواء مُهلِك.

القلب الصحيح:

والقلب الصحيح: يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان.

وأنفع الأدوية دواء القرآن.

وكلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضًا: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، وقد جاء هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور».

فحيِّ على جنات عَدْنٍ فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكننا سَبْي العدو، فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم؟

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

كلما صحّ القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله تعالى ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته، وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه.

فإذا حصل له رب سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة.

فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبدًا.

وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه.

وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده.

فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلـٰهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِق الخلق، ولأجله خُلِقت الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة، كما قيل:

وَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَظُّهُ الْبُعْدُ وَالْقِلَىٰ ... وَمَـنْ فُـتُّـهُ يَـكْـفِـيْـهِ أَنِّـي أَفُـوْتُـهُ

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني: الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيىٰ بن معاذ: من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه.

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يدله عليه، ويذكرهُ به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بما له ومنعًا.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّة الله فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي هَمُّه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهَى إليه من كل حديث. وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه.

والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حين تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قُرَّة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفافًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨].

فهو يردّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلـهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفته، ذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقًا ينطق: لبَّيْك وَسَعْدَيك إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليّ المِنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قَدَر وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم؛ لا صبر لي إن لن تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتُقوِّني؛ لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهْديتْ إليَّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شَرًّا صرف عني.

وكَمْ رمتُ أمْرًا خِرْتَ لي في انْصِرَافِهِ ... ومَا زلتَ بي مِنِّي أبرَّ وَأرْحَما

فكل ما مَسَّه به من السَّرَّاء والضرَّاء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

ما مسَّني قَدَر بكُرْهٍ أو رضًى إلا اهتديتُ به إليك طريقا
أمْضِ القضاء علىٰ الرضا مني به إني وجدتك في البلاء رفيقا

فللّه هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تُبْلى السرائر.

سيبدو لها طيب ونور وبهجة وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

تالله، لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه.

مُفسِدات القلب وأسباب أمراضه[1]

تمهيد:

مفسدات القلب خمسة وهي:

- كثرة الخلطة.
- التمني.
- التعلّق بغير الله تعالى.
- الشبع.
- كثرة النوم.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب، فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عزَّ وجلّ، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق، بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تطفىء نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن تَصُمه وتُبكمَه وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتُفتّر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهي عائقة له عن نيل كماله.

(١) انظر أيضًا «مدارج السالكين» ١/ ٤٥٣ ـ ٤٦٠.

قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المُحِبِّين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه ـ ونحو هذا من الكلام.

وكل مَن له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقًا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائق له عن سيره، ومحدثة له أمراضًا وعللًا، إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

المفسد الأول ـ كثرة الخلطة:

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودَ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا وغمًا، وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، ووقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾

[الفرقان: الآيات ٢٧ ـ ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادّين عليه: لا بد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذَر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذًى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبُغْضٌ له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يَصْدُق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة

ومادة قوة من الله عزَّ وجلّ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة. بمقدار الحاجة[١]. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغني عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكائد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم مَن لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم في القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصل فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلًا من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال.

---

(١) من هنا وحتى آخر هذه الفقرة من كتاب (بدائع الفوائد): ٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلي بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: مَنْ مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر من هذا الضرب في الناس لا كثَّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جرّدت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جرّدت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير، قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتّبعت السنة، وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بأعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتـكَ مـذمَّـتِي مِـنْ نَـاقِـصٍ فـهـيَ الـشَّـهـادةُ لـي بـأنِّـي فـاضِـلُ

المفسد الثاني ـ التمني:

والمفسد الثاني من مفسدات القلب ركوبُه بحرَ التمنّي، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنَى رأسُ أموالِ المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية. وكلٌ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في

الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها، وَالْتَذَّ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة. وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمني الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: (هما في الأجر سواء)، وتمنّى ﷺ في حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحَلَّ ولم يُسِقِ الهدي، وكان قد قَرَن. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

المفسد الثالث ـ التعلق بغير الله تعالى:

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضرّ من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإذا إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عزَّ وجلّ، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: الآيتان ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] مذمومًا لا حامد لك. مخذولًا لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا. كالذي قهر وتسلط عليه

بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

المفسد الرابع ـ الشبع:

والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان:

محرّمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرّمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أخذ بغير رضى صاحبه، إما قهرًا وإما حياءً وتذممًا.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدى حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا. فنام كثيرًا. فخسر كثيرًا. وفي الحديث المشهور (ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلًا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه).

ويُحكى أن إبليس ـ لعنه الله ـ عرض ليحيىٰ بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيىٰ: هل نلت مني شيئًا قط؟ قال: لا. إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتى شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال يحيىٰ: لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبدًا. فقال إبليس: وأنا، لله عليّ أن لا أنصح آدميًا أبدًا.

المفسد الخامس ـ كثرة النوم:

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جدًا. ومنه الضار غير النافع للبدن.

وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه، وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا

بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم موروثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

المفسد السادس ـ فضول النظر:

إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في (المسند) عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غضّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه» أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وقال الآخر:

وَكنتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

المفسد السابع ـ فضول الكلام:

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال

النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يَكبُّ الناسَ على مناخرِهم في النَّار إلا حَصائدُ ألسِنَتِهِم». وفي الترمذي أن رجلًا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة طوبى له فقال النبي ﷺ: «فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بمالًا ينقصه».

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

هذا الباب كالأساس والأصل لما بعده من الأبواب.

فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالموادُّ الفاسدة كلها إليها تنصبُّ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء. وأول ما تنال القلب.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة: «الحمد لله نستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».

وفي (المسند) والترمذي من حديث حُصين بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال له: «يا حُصين، كم تعبد؟» قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: «فمن الذي تُعِدُّ لرَغْبتك ورَهْبتك؟» قال: الذي في السماء. قال: «أَسْلِمْ حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بها» فأسلم. فقال: قل: «اللهم ألهمني رشدي، وقِني شرّ نفسي».

وقد استعاذ ﷺ من شرّها عمومًا، ومن شر ما يتولَّد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه، أي أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال.

والثاني: أن المراد به عقوبات الأعمال التي تسوء صاحبها.

فعلى الأولى: يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها.

وعلى الثاني: يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها.

ويدخل العمل السيِّىء في شر النفس. فهل المعنى: ما يسوؤني من جزاء عملي، أو من عملي السيِّىء؟.

وقد يترجح الأول، فإن الاستعاذة من العمل السيِّىء بعد وقوعه إنما هي استعاذة من جزائه وموجبه؛ وإلا فالموجود لا يمكن رفعه بعينه.

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم: على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه، فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها.

وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منفذة لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النّازعَات: الآيات ٣٧ - ٤١].

فالنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا.

والرّبّ تعالى يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى.

والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة. وهذا موضع المحنة والابتلاء.

صفات النفس:

وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاثة صفات: المطمئنة، والأمَّارة بالسوء، واللوّامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وَهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

فالأول: قول الفقهاء والمتكلمين، وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية.

والثاني: قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة، وما أظنهم يقولون إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرى في الحدّ والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفسه، كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس، وأضافها إلى صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجيء في موضع واحد (نفوسك) و (نفوسه) ولا (أنفسك) و (أنفسه) وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: الآية ٧]، أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله: (إنما أنفسنا بيد الله) ولو كانت في الإنسان ثلاثة أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

النفس المطمئنة:

فالنفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة.

وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفَجر: الآيتان ٢٧، ٢٨].

قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يقول: المصدقة.

وقال قتادة: هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله.

وقال الحسن: المطمئنة بما قال الله، والمصدقة بما قال.

وقال مجاهد: هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جاشًا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه.

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه.

فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلـهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

النفس الأمّارة بالسوء:

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغيّ، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، إن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل: «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها. فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، والعدل والعلم

طارىء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن إلا أمارة لموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح: من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم.

وسبب الظلم: إما جهل، وإما حاجة. وهي في الأصل جاهلة. والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك.

النفس اللوّامة:

وأما اللوّامة:

فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو من اللوم؟.

وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم.

وقال مجاهد: هي التي تُنَدِّم على ما فات وتلوم عليه.

وقال قتادة: هي الفاجرة.

وقال عكرمة: تلوم على الخير والشر.

قال عطاء عن ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسنَ نفسُه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيءَ نفسُه أن لا يكون رجع عن إساءته.

وقال الحسن: إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر لَيَمْضِي قُدُمًا لا يعاتب نفسه.

فهذه عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما مَن جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة.

والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوّم من لوازم اللوم.

تقلب النفس:

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها.

وكونها مطمئنة وصف مدح لها.

وكونها أمَّارة بالسوء وصف ذم لها.

وكونها لوّامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

علاج مرض القلب بمحاسبة النفس

والمقصود: ذكر علاج القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان:

محاسبتها.

ومخالفتها.

وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله».

دان نفسه: أي حاسبها.

أقوال السلف في محاسبة النفس:

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

وذكر أيضًا عن الحسن قال: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بشربتي، والفاجر يمضي قُدُمًا قدمًا لا يحاسب نفسه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨]: أضاع نفسه وغبن، مع ذلك تراه حافظًا لماله مضيعًا لدينه.

وقال الحسن: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه؛ ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

وقال ميمون بن مهران أيضًا: إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص، ومن شريك شحيح.

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل: أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونٌ على تلك الساعات، وإجمامٌ للقلوب.

وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من كلام النبي ﷺ رواه أبو حاتم وابن حبان وغيره.

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حِسّ يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة.

وقال الحسن: المؤمن قَوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء يعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات. حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا؟ وما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى، في فكاك نفسه، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله؛ يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعِه وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

قال مالك بن دينار: رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عزّ وجلّ، فكان لها قائدًا.

محاسبة النفس:

وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال.

فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولًا.

ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيًا.

ثم بمحاسبته ثالثًا.

ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعًا.

فكذلك النفس: يشارطها أولًا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال. والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟.

وهذه الجوارح السبعة، وهي العين، والأذن، والفم، والفرج، واليد، والرجل: هي مركب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها. وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠]. وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسرَاء: الآيــة ٣٧]. وقــال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٦]. وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسرَاء: الآيــة ٥٣]. وقــال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحـزاب: الآيــة ٧٠]. وقــال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الـحـشـر: الآيــة ١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإن إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذْهِبَ رأس المال كله، فمتى أحسّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة.

فحينئذٍ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإن أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل.

ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لا بد منه فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله.

ما يُعين على المحاسبة:

ويُعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا.

ويُعينه عليها أيضًا: معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

فحقّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فكل نَفسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خطر لها، يمكن أن يشتري بها كنزًا من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠].

محاسبة النفس

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده.

محاسبة النفس قبل العمل:

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهَمَّ به العبد، وقف أوّلًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟

فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه.

وإن كان مقدورًا وقف أخرى ونظر: هل فعلُه خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟.

فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه.

وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟.

فإن كان الثاني لم يقدم عليه ـ وإن أفضى به إلى مطلوبه ـ لئلا تعتاد النفس الشرك. ويخفّ عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله، حتى يصير أثقل شيء عليها.

وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو مُعان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما

أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شَوْكة وأنصار. وإن وجده مُعانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور.

ولا يفوّت النجاحَ إلا مَنْ فَوّتَ خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوتُه النجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل.

فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له.

ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه.

ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله.

ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه.

فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه.

محاسبة النفس بعد العمل:

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله في الطاعة ستة أمور قد تقدمت، وهي: الإخلاص في العلم، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه وشهود مِنَّة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؛ وهل أتى بها في هذه الطاعة.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركُه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وأضرّ ما عليه: الإهمال، وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمَشّي الحال، ويتكل على العفو؛ فيهمل محاسبة نفسه، والنظر في العاقبة. وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليه فِطَامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

قال ابن أبي الدنيا: حدّثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال: كان تَوْبَةُ بن الصِّمَّة بالرّقّةِ، وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا، فإذا هو ابن ستين

سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وستمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتي! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟. ثم خَرَّ مَغْشِيًّا عليه، إذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: يا لكِ رَكْضَةً إلى الفردوس الأعلى.

وجماع ذلك:

أن يحاسب نفسه أوّلًا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصًا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله.

ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلتَه؟ وكيف فعلتَه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثاني سؤال عن المتابعة.

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣]. وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآيتان ٦، ٧]. وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٨].

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟.

قال مقاتل يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين ـ يعني النبيين ـ عن تبليغ الرسالة.

وقال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل ـ يعني: هل بلغوا عنهم ـ كما يسأل الرسل، هل بلغوا عن الله.

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل، والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: الآية ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون:

ماذا كنتم تعبدون؟.

وماذا أجبتم المرسلين؟.

فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: الآية ٨].

قال محمد بن جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عزَّ وجلّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟.

وقال قتادة: إن الله يسأل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسؤولًا ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقد دلّ على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: الآية ١٨]، يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبِقُه؟.

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد.

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسب النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

مصالح محاسبة النفس

وفي محاسبة النفس عدة مصالح:

منها: الاطّلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: لا يَفْقَه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله: لولا ما أعلم من نفسي لقَلَيْتُ الناس.

وقال مُطَرِّف في دعائه بعرفة: اللهم لا تردَّ الناس لأجلي.

وقال بَكْرُ بن عبد الله المُزَي، لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم، لولا أني كنت فيهم.

وقال أيوب السختياني: إذا ذكر الصالحون كنتُ عنهم بمعْزِل.

ولما احْتُضِرَ سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب، وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبد الله، أليس قد أمنت مما كنت تخافه؟ وتقدم على ما ترجوه، وهو أرحم الراحمين، فقال: يا أبا سلمة، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله، إني لأرجو لك ذلك.

وذكر ابن زيد عن مسلم بن سعيد الواسطي قال: أخبرني حَمَّاد بن جعفر بن زيد: أن أباه أخبره قال: «خرجنا في غَزاةٍ إلى كابُل، وفي الجيش: صِلة بن أشْيَم؛ فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع، فقلت: لأرمقَنّ عمله، فالتمسَ غفلة الناس، حتى إذا قلتُ: هَدأت العيون وَثَب فدخل غَيْضَة قريبًا منا، ودخلت على أثره، فتوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسد حتى دنا منه، فصعدت في شجرة فتراهُ التفت أو عَدَّهُ جَرْوًا؟ فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان آخر. فولّى وإن له لزئيرًا أقول: تصدّع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي لا يجترىء أن يسألك الجنة؛ قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفزع شيء الله به عالم.

وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة.

وقال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلى الأرض.

وذكر ابن أبي الدنيا عن الخلد بن أيوب قال: كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنة. فأُتِيَ في منامه. فقيل له: إن فلانًا الإسكافي خير منك ـ ليلة بعد ليلة ـ فأتى الإسكافي، فسأله عن عمله. فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار، ففضل على الراهب بإزرائه على نفسه.

وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء. فأثنوا عليه، فقال: لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذلَّ لنا لسان بذكر خير أبدًا.

وقال أبو حفص: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته؛ كان مغرورًا، ومن ينظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلص من رقها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتًا لها.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدّثنا علي بن الحسين، حدّثنا المقدسي، حدّثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري، فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفار.

قال: وحدّثنا يونس بن حبيب، حدّثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدّثنا بقية بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة عن قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢]، فقالت: يا بنيّ، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلتْ نفسها معنا.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا حجاج حدّثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن مسروق، قال: دخل عبد الرحمٰن على أم سلمة فقالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لا يَرَاني بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبَدًا فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ مِنْ عِنْدَهَا مَذْعُورًا، حَتَّى أَتَاهَا فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَسَألَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكِ بالله، أَمِنهُمْ أَنَا؟ قالتْ: لا، وَلَنْ أُبَرِّىءَ بَعْدَكَ أَحَدًا»(١).

فسمعت شيخنا يقول: إنما أرادت: أني لا أفتح عليَّ هذا الباب، ولم ترد أنك وحدك البريء من ذلك دون سائر الصحابة.

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو به بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار، قال: إن قومًا من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا، يزري على نفسه، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: أن فلانًا صديق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٦/ ٢٩٨.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا محمد بن الحسن بن أنس، حدّثنا منذر، عن وهب: أن رجلًا سائحًا عبد الله عزَّ وجلّ سبعين سنة، ثم خرج يومًا فقَلّل عمله وشكا إلى الله منه، واعترف بذنبه فأتاه آتٍ من الله فقال: إن مجلسك هذا أحب إليّ من عملك فيما مضى من عمرك.

قال الإمام أحمد: وحدّثنا عبد الصمد، حدّثنا أبو هلال، حدّثنا قتادة قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: سلوني، فإني ليِّن القلب، صغير عند نفسي.

وذكر أحمد أيضًا، عن عبد الله بن رباح الأنصاري، قال: كان داود ينظر أغْمص حَلْقَةٍ في بني إسرائيل فيجلس بين ظهرانيهم، ثم يقول: يا رب مسكين بين ظهراني مساكين.

وذكر عن عمران بن موسى القصير قال: قال موسى: يا رب، أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم، فإني أدنو منهم كل يوم باعًا، ولولا ذلك انهدموا.

وفي كتاب (الزهد) للإمام أحمد: أن رجلًا من بني إسرائيل تعبد ستين سنة في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأتي في منامه، فقيل له: أرأيت ازدراءك نفسَك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين.

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه. ومن لم يعرف حق الله عليه، فإن عبادته لا تكاد تُجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدّثنا حجاج، حدّثنا جرير بن حازم، عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب!! ارحمه، فإني قد رحمته فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العبد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله، ومغفرته ورحمته.

فإن من حق الله أن يُطَاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علِم عِلْم يقين أنه غير مؤد له العبودية كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم. ومن هٰهنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس:

هي نظر العبد في حق الله عليه أوّلًا.

ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانيًا.

وأفضل الفكرِ الفكرُ في ذلك، فإنه يُسَيِّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلًا، خاضعًا منكسرًا كسرًا فيه جبره، ومفتقرًا فقرًا فيه غناه، وذليلًا ذلًّا فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل، فإنه إذا فاته هذا، فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى به.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا ابن القاسم، حدّثنا صالح المري، عن أبي عمران الجَوْني، عن أبي الجلد: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: وإذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عندي ذكري خاشعًا مطمئنًا، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديّ فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناجني حين تناجيني بقلب وَجِل ولسان صادق.

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه أن لا يتركه ذلك يدِلُّ بعمل أصلًا، كائنًا ما كان، ومن أدلَّ بعمله لم يصعد إلى الله، كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البَقْل من دموعي. فقال له: إنك إن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت تدل بعملك؛ فإن صلاة المدل لا تصعد فوقه.

فقال له: أوصني. قال: عليك بالزهد في الدنيا وأن لا تنازعها أهلها، وأن تكون كالنّحلة، إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعت طيبًا، وإن وقعت على عود لم تضره ولم تكسره، وأوصيك بالنصح لله عزَّ وجلَّ نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم.

ومن هٰهنا أخذ الشاطبي قوله: وقد قيل:

كُـنْ كَـالْكَـلْبِ يُـقْـصِـيْـهِ أَهْـلُهُ ولا يَـأْتَـلِ فـي نُـصْـحِـهِـم مُـتَـبَـذِّلا

وقال الإمام أحمد: حدّثنا سيار، حدّثنا جعفر، حدّثنا الجُرَيري، قال: بلغني أن رجلًا من بني إسرائيل كانت له إلى الله حاجة، فتعبد واجتهد، ثم طلب إلى الله حاجته، فلم ير نجاحًا، فبات ليلة مزريًا على نفسه، وقال: يا نفس، ما لكِ لا تقضي حاجتك؟ فبات محزونًا قد أزري على نفسه وألزم نفسه، فقال: أما والله ما من قبلَ ربي أُتيت، ولكن من قِبَلِ نفسي أتيت، فبات ليلة مزريًا على نفسه، وألزمها الملامة، فقضيت حاجته.

علاج مرض القلب بالشيطان

تسلّط الشيطان على العبد[١]:

إن الله سبحانُه بحكمَتِهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوّا عالمًا بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشرِّ الذي يُلقيهِ فيه مُتفنِّنًا فيها، خَبيرًا بها، حَريصًا عليها، لا يفتُرُ عنه يقظَةً ولا منامًا، ولا بدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ ينالُها فيه:

إحداها ـ وهي غايةُ مرادِهِ منه ـ: أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ؛ فإذا ظَفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ.

فإنْ فاتَتْهُ هذه، وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ، وهي البِدعَةُ ـ وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ منها، والبدعَةُ لا يُتابُ منها ـ؛ لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدًى.

وفي بَعضهِ الآثارِ: يقولُ إبليسُ: أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلـهَ إلا الله، فكلما رأيتُ ذلكَ بَثَثْتُ فيهم الأهواءَ، فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ، لأنَّهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا.

فإذا ظفِرَ منه بهذهِ صيَّرهُ من رُعاتِه وأُمرائِه.

فإنْ أعجَزَتْهُ ألقاهُ في الثالثة؛ وهي الكبائرُ.

فإنْ أعجَزَته ألقاه في اللَّمَم؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر.

فإنْ أعجزَتْهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه لِيُرْبِحَ عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسةُ.

فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة؛ وهي تَسليطُ حزبِه عليه يُؤذونَهُ ويشتِمونَهُ ويبهتونَهُ ويرمونَهُ بالعظائمِ: ليحزنَهُ ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادةِ وسائرِ أعمالهِ.

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ١/ ٣٧٢.

فكيفَ يُمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأمور ولا بعدوِّهِ، ولا بما يُحصِّنُهُ منهُ؟ فإنَّه لا ينجو من عَدوِّهِ إلا مَنْ عَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليهِ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يُداوي جراحتَهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ؟!

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلا بالعلمِ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمًى عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطْبِ الجسيمِ.

ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدُوِّ وشأنهِ وجُنوده ومكائدهِ في القرآنِ كثيرًا جدًّا؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها، وطرقِ محاربتهِ ومجاهدته، فلولا أنَّ العلمَ يكشفُ عن هذا لما نجا منه مَن نجا منه، فالعلمُ وثَمرَتُه هو الذي تحصُلُ به النَّجاةُ.

خطر الشيطان:

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعًا، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصروا في هذا الباب.

ومَن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] واللوامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القِيَامَة: الآية ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النَّازعَات: الآية ٤٠].

فأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه وموضع شره، ومحل طاعته.

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه.

ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث، الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله! علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ربّ كل شيء ومليكه. أشهد أن لا إلـه إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان

وشِرْكه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجُرَّه إلى مسلم، قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك».

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن يعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما.

الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: الآيات ٩٨ - ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله) امتنع به واعتصم به وألجأ إليه.

ومصدره الْعَوْذ، والْعِيَاذ، والْمَعَاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به.

ومنه قول النبي ﷺ: «لقد عذتِ بِمَعاذ» وأصل الفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجميعها (عُوذ) كحُمُر.

ومنه في حديث الحُديبية: «معهم العُوذ المطافيل» والمطافيل: جمع مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها.

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذْهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَّه فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلي منه القلب ليصادف الدواءُ محلًا خاليًا، فيتمكَّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍّ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أوّلًا فأولًا، فكلما أحس بنبات الخير في القلب

سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْرُ الله مَلْحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة. وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصّلة للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال النبي ﷺ: «تلك الملائكة» والشيطان ضد الملَك وعدوُّه. فأمر القارىء أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارىء بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارىء به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارىء مناج لله بكلامه. (والله تعالى أشد أَذَنًا للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته) والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان.

تَـمَـنَّـىٰ كِـتَـابَ الـلهِ أَوَّلَ لَيْـلِهِ وَآخِـرَهُ لاقـىٰ حِـمَـامَ الـمَـقَـادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟.

ولهذا يغلِّط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله منه عند القراءة.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير، ويدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن شيطانًا تَفَلَّتَ عليّ

البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي» ـ الحديث وكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلِم وَتَذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَسِ في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال فعصاه فجاهد».

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد: ما من رفقةٍ تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله منه أولًا، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله، ثم شُرع ذلك للقارىء، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكَم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: الآية ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ.

الاستعاذة من شياطين الإنس والجن:

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع.

قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته ولَمَزْتُه، وَلَهَزته، ونهزته إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنَخْز وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعًا خاصًا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٩٨].

قال ابن زيد: في أموري.

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع.

فأمره أن يستعيذ من نوعي شَرِّهَمْ إصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه.

وذكر ذلك سبحانه عقب قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

ونظير هذا قوله في الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] فأمر بدفع الشر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠].

ونظير ذلك قوله في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٤].

فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٦].

الصبر مع الاستعاذة:

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق: بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان.

وأخبر عن عظم حظ من لَقّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقًا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلِّ والحقد وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه.

هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلًا وآجلًا.

ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فُصّلت: الآية ٣٥]، فإن النّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان ـ أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: الآية ٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق أن يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. فالقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانًا، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده.

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: الآيات ٣٩ - ٤٢]. وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: الآيتان ٩٩، ١٠٠].

تضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولّاه.

ولما علم عدو الله أن الله لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صَ: الآيتان ٨٢، ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولّاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رَعِيَّته وهو سلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ

عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سَبأ: الآيتان ٢٠، ٢١].

قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سَبأ: الآية ٢١] عائدًا على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعًا: أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

وإن كان عائدًا على ما عاد عليه في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سَبأ: الآية ٢٠] وهو الظاهر، ليصحّ الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي، ويكون المعنى: وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة.

قال ابن قُتيبة: إن إبليس لما سأل الله النَّظْرَة فأنظره قال: لأغْوِيَنَّهُمْ ولأضِلَّنهم ولآمرنهم بكذا، ولأتخذنَّ من عبادك نصيبًا مفروضًا، وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقنًا أن ما قدّره فيه يتمّ، وإنما قاله ظانًا، فلما اتبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكّين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء.

على هذا: فيكون السلطان هٰهنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكّ فيها، وهم الذين تولوه وأشركوه به فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]، وهذا وإن كان قَوْلَه فإنه سبحانه أخبر به عنه مُقرّرًا له، لا منكرًا، يدل على أنه كذلك.

قيل: هذا السؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: ما كان لي حجة أحتج بها عليكم أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدّقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: الآية ١٠٠]، فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزْعجهم إليه، ولا يَدَعُهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريَم: الآية ٨٣].

قال ابن عباس: تُغْريهم إغراء.

وفي رواية: تُشليهم إشلاء.

وفي لفظ: تحرضهم تحريضًا.

وفي آخر: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا.

وفي آخر: توقدهم أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته.

قال الأخفش: توجههم.

وحقيقة ذلك: أن (الأزّ) هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان.

ومنه الحديث: (لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء).

قال أبو عبيدة (الأزيز): الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزّ قِدْرَك، أي ألهب تحتها بالنار، واتزت القدر إذا اشتد غليانها.

فقد حصل للأزّ معنيان:

أحدهما: التحريك.

والثاني: الإيقاد والإلهاب.

وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكّنوا عدوهم من سلطانه عليهم، لموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له سُلِّط عليهم عقوبة لهم.

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: الآية ١٤١].

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته.

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى جعل له العبد سبيلًا إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطًا وقَهْرًا.

فمن وجد خيرًا فليَحْمَد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: الآيتان ٣٦، ٣٧].

ما يعتصم به العبد من الشيطان(١)

قال ابن القيم رحمه الله:

قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه. وذلك عشرة أسباب.

أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان.

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولذا قال النبي ﷺ: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» وكان ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة. وقال ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، ففي (الصحيح) من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ.. فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان».

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي (الصحيح) من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان».

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في (الصحيح) من حديث أبي موسى الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان».

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: الآية ٣] مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبد الرحمٰن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ حَم المؤمن إلى ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن

(١) وانظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٩٠.

قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح». وعبد الرحمٰن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، ففي (الصحيحين) من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال لا إلـه إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر من ذلك» فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله عزَّ وجلّ.

ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال:

«إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطىء بها، فقال عيسى: إن الله يأمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم».

فقال يحيىٰ: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب.

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشُرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

أوّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع. ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام، قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفَلَق: الآية ١] فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلبَ، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادىء الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عزَّ وجلَّ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض». وفي أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء» فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار، والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلَّط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة.

خلاصة:

كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيُّد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق الاحتراز منه، عدم إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء، أو نوم، أو لذة، أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب، حل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

شفاء مَن ابتُلِيَ ببليّة(١)

وسئل الشيخ الإمام العالم العلّامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمّد ابن الشيخ الصالح أبي بكر، عرف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه:

ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين، رضي الله عنهم أجمعين، في رجل ابتلى ببلية، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته؟ وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقدًا وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلي. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى.

فأَجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتي المسلمين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أَبي بكر أيُوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى:

الحمد لله، أَما بعد: فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أَنزلَ الله داءَ إِلَّا أَنْزَلَ الله لَهُ شِفَاءَ».

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءِ الدَّاء بَرأَ بِإِذْنِ الله».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أُسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِل دَاءَ إِلَّا أَنْزَلَ لهُ شِفَاء، عَلِمَهُ من علمه، وَجهلَهُ مَنْ جَهِلَهُ». وفي لفظ «إنَّ الله لَمْ يَضَعْ دَاء إِلَّا وَضع لَهُ شِفَاء، أَوْ دوَاء، إِلَّا دَاءَ وَاحِدًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا هُوَ؟ قال: الهرَم». قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وهذا يعمّ أدواء القلب والرّوح والبدن وأدويتها، وقد جعل النّبيّ ﷺ الجهل داء وجعل دواءَه سؤال العلماء.

فروى أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: «خرجنا في سفر، فأصاب رجلًا منا حجر، فشجه في رأْسه، ثم احتلم، فسأَل أَصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة، وأَنت تقدر على الماء. فاغتسل

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٣ ـ ١٢٨.

فمات. فلمّا قدما على النبيّ ﷺ أُخبر بذلك. فقال: قتَلُوهُ، قَتَلَهُم الله! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّما شِفَاءُ العيّ السُّؤالُ، إِنَّمَا كَانَ يكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّم ويَعصر - أو يعصب - عَلَى جرحه خِرْقَة، ثُمّ يَمْسَحُ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِر جَسَدِه» فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٤]. وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢]. و «من» هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والرّيب، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد قال: «انطلق نفر من أصحاب النبيّ ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أَتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء. فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأُرقى، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لي جُعلًا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفُل عليه ويقرأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] فكأنما نَشط من عِقال، فانطلق يمشي، وما به قلَبة فأوفوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقتسموا. فقال الذي رقى: لا نفعل حتى نأتي النبيّ ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك فقال: وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهمًا. فقد أثّر (هذا) الدواء في هذا الداء وأزاله، حتى كأنه لم يكن. وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء. ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواء ولا أَجد طبيبًا ولا دواء فكنت أُعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

ولكن هٰهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأَدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية. ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل، وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأْثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأَدوية والأدواء الحسية،

فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول. فكذلك القلب إذا أخذ الرّقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأَسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه ـ بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان ـ وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورَين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها. كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ادعوا الله وأَنتم موقنون بالإِجابة».

واعلموا أَن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ، فهذا دواء نافع مزيل للدّاء. ولكن غفلة القلب عن الله تُبطِل قوته، وكذلك أكل الحرام يُبطِل قوته ويُضعِفها، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها النَّاس، إنَّ الله طَيِّبٌ: لَا يَقْبَل إلَّا طَيِّبًا وإنَّ الله أمَرَ المؤمِنِين بما أمَرَ بِهِ المُرْسَلِين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومَطعمه حرام، ومَشربه حرام، وملبسه حرام وغُذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟» وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأَبيه «أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحىٰ الله عزَّ وجلّ إلى نبيهم أن أخبرهم: أَنكم تخرجون إلى الصعيد بأَبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفًا قد سفكتم بها الدماء، وملأْتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلَّا بُعدًا». وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح.

الدعاء من أنفع الأدوية

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ سِلَاحُ المُؤْمِن، وَعِمَادُ الدِّين، وَنُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ».

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أَن يكون أَقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أَن يكون أَضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أَن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُغْنِى حَذرٌ مِنْ قَدَر. وَالدُّعَاء يَنْفَع مِمّا نَزَل وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل، وَإِنَّ البَلَاء لينزل فيلقاه الدعاء فيَعْتلِجان إلى يَوْمِ القِيَامَة».

وفيه أيضًا من حديث ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ يَنْفَع مِمَّا نَزَل وَمِمَّا لَمْ يَنْزِل، فَعَلَيْكُم عِبَادَ الله بِالدُّعَاءِ».

وفيه أَيضًا من حديث ثوبان عن النبيّ ﷺ: «لَا يَرُدُّ القَدَرُ إِلّا الدُّعَاء، ولَا يَزِيد فِي العُمْرِ إِلّا البِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه».

الإلحاح في الدعاء

ومن أَنفع الأدوية: الإِلحاح في الدعاء.

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغضب عَلَيْهِ».

في صحيح الحاكم من حديث أَنس عن النبيّ ﷺ: «لَا تَعْجَزُوا فِي الدُّعَاءِ، فإِنّه لَا يهلك مَعَ الدُّعَاءِ أَحدٌ».

وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يُحِبُّ المُلِحِّين في الدُّعَاءِ».

وفي كتاب الزهد للإِمام أحمد عن قتادة قال: قال مُورّق: «ما وجدت للمؤمن مثلًا إلا رجلًا في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب.. يا رب، لعل الله عزَّ وجلّ أن ينجيه».

آفة الاستعجال في الإجابة

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطىء الإِجابة، فيستحسر ويدع الدعاء. وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكم مَا لَمْ يعجل، يقول: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي».

وفي صحيح مسلم عنه: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل. قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول قد دعوت وقد دعوت، فلم أرَ يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل. قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي».

حضور القلب مع الدعاء

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة ـ وهو: الثلث الأَخير من الليل، وعند الأَذان، وبين الأَذان والإِقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضي الصلاة في ذلك اليوم، وأَخر ساعة بعد العصر ـ وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلًا له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ. ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وأَلح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا. ولا سيما إن صادف الأَدعية التي أخبر النبي ﷺ أَنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

فمنها ما في السنن و(في) صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: «اللَّهم إِني أسأَلك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إِلَّا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب». وفي لفظ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم».

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك: «أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللَّهم إني أَسأَلك بأَن لك الحمد، لا إلـٰه إلا أنت المنّان بديع السمٰوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبيّ ﷺ: لقد دَعَا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أَجاب، وإذا سئل به أَعطى».

وأَخرج الحديثين الإمام أَحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي، من حديث أَسماء بنت يزيد أن النبيّ ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٣]. وفاتحة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١، ٢].

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأَنس بن مالك ورَبيعة بن عامر عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أَلِظُّوا بِياذا الجلالِ والإِكْرَامِ» يعني تعلّقوا بها والزموها وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كانَ إذا أهمه الأمر رفعَ رأسه إلى السّماء، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يَا حَيُّ يَا قيُّوم».

وفيه أيضًا من حديث أنس بن مالك، قال: «كانَ النبيُّ ﷺ إذا حزبه أمر قال: يَا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث».

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أُمامة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه». قال القاسم: فالتمستُها فإذا هي آية ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥].

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أَبي وقاص عن النبيِّ ﷺ قال: «دَعْوة ذِي النُّون، إذ دَعا وهُو في بطن الحُوت ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧] أنه لم يدْع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي مستدرك الحاكم أيضًا من حديث سعد عن النبيِّ ﷺ: «أَلَا أُخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرِّج الله عنه؟ دُعَاءَ ذِي النُّون».

وفي صحيحه أَيضًا عنه أنه سمعَ النبي ﷺ وهو يقول: «هَلْ أدلُّكم على اسم الله الأَعظم؟ دُعاء يونس. قال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليُونس خاصة؟ فقال: أَلَا تسمع قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٨] فَأَيما مسلم دَعا بها في مرضهِ أَربعين مرّة فمات في مرضه ذلك أُعطي أجر شهيد، وإن برىء برىء مغفورًا له».

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إلـٰه إلَّا الله العظيم الحليم، لَا إلـٰه إلا رب العرش العظيم، لَا إلـٰه إلَّا الله رب السّمٰوات السّبع ورب الأرض ورب العرش الكريم».

وفي مسند الإمام أَحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «عَلَّمني رسول الله ﷺ إذا نزل كرب أن أَقول: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين».

وفي مسنده أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابع أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزنٌ، فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابن عَبْدِكَ ابن أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِك، مَاضٍ فِيَّ حكمُك، عَدْلٌ فِيَّ قَضاؤك، أَسْأَلك اللَّهُمَّ بكلِّ اسم هُوَ لكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِن خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبي، وَنُور صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْني، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ الله عزَّ وجلّ همه وحزن، وأبدله مكانه فرحًا، فقيل: يا رسول الله، أَلا نتعلمها؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعها أَن يتعلمها».

وقال ابن مسعود: «ما كُرِب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح».

وذكر ابن أَبي الدنيا في كتاب المجابين وفي الدعاء عن الحسن قال: «كان رجل من أَصحاب النبيّ ﷺ من الأَنصار يكنى أَبا معلق، وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرّة فلقيه لص مقنع في السلاح. فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك. قال: ما تريد من دمي[1]؟ شأنك بالمال. قال: أَما المال فلي، ولست أُريد إلا دمك. أَما إذا أَبيت فذرني أُصلي أَربع ركعات. قال صل ما بدا لك. فتوضأَ ثمّ صلى أَربع ركعات. فكان من دعائه في آخر سجوده أَن قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالًا لما تريد، أَسأَلك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأَ أَركان عرشك: أَن تكفيني شر هذا اللص: يا مغيث أَغثني، يا مغيث أَغثني. ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أَقبل بيده حربة قد وضعها بين أُذني فرسه، فلما بصر به اللص أَقبل نحوه، فطعنه فقتله. ثم أَقبل إليه فقال: قم. فقال: من أَنت بأبي أَنت وأُمي؟ فقد أَغاثني الله بك اليوم. فقال: أَنا ملك من أَهل السماء الرابعة، دعوتَ بدعائك الأَوَل فسمعتُ لأبواب السماء قعقعة. ثمّ دعوتَ بدعائك الثاني فسمعتُ لأَهل السماء ضجة. ثمّ دعوتَ بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب. فسأَلت الله أَن يولّيني قتله. قال الحسن: فمن توضأَ وصلى أَربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبًا كان أَو غير مكروب.

وكثيرًا ما نجد أَدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم. ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإِقباله على الله، أَو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا

(١) في الأصل «ما تريد لي دمي» ولعل الصواب ما أثبتناه.

لحسنته، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأُجيبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا عن تلك الأُمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به فظن غيره أَن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب كان غالطًا. وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

ومن هذا أَنه قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر. فيظن الجاهل أَن السر للقبر، ولم يعلم أَن السر للاضطرار وصدق اللجأَ إلى الله. فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب إلى الله.

الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح. والسلاح بضاربه، لا بحده فقط. فمتى كان السلام سلاحًا تامًا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود ـ حصلت به النكاية في العدو. ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأْثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أَو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أَو كان ثَمَّ مانع من الإجابة، لم يحصل الأَثر.

القضاء والقدر

وهٰهنا سؤال مشهور، وهو: أَن المدعوّ به إن كان قُدِّر له لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أَو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر لم يقع، سواء سأَله العبد أَو لم يسأَله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء. وقالت: لا فائدة فيه. وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأَسباب، فيقال لأَحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما، أَكلت أَو لم تأْكل. وإن لم يقدرا لم يقعا أَكلت أَو لم تأْكل. وإن كان الولد قد قدر لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أَو الأَمة أَو لم تطأْ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسري. وهلمَّ جرًا. فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأَسباب التي بها قوامه وحياته. فالحيوانات أعقل وأَفهم من هؤلاء الذين هم كالأَنعام، بل هم أَضل سبيلًا.

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غير أَن يكون له تأْثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين

الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب. وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أُخرى أَكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أَمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت. وهذا كما إذا رأَيت غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر. قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له. وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل. ليس شيء من ذلك سببًا البتَّة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأْثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاءِ. بل أَضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب: أَو ههنا قسمًا ثالثًا، غير ما ذكره السائل. وهو أَن هذا المقدور قُدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء. فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر سببه، فمتى أَتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأْت بالسبب انتفى المقدور. وهذا كما قدر الشبع والري بالأَكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه. وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال. وهذا القسم هو الحق. وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أَن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأَكل والشرب وجميع الحركات والأَعمال. وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولمّا كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأُمة بالله ورسوله ﷺ وأَفقههم في دينه كانوا أَقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه. وكان أَعظم جنديه. وكان يقول لأَصحابه «لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء». وكان يقول «إني لا أَحمل هَمَّ الإجابة معه. ولكن هم الدعاء. فإذا أُلهمتم فإن الدعاء الإجابة معه». وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه، فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه ... من جود كفيك ما عودتني الطلبا

فمن أُلهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]. وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغْضَبْ عَلَيْهِ» وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرّب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كلا بلاء ومصيبة في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثرًا «أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنَا، إِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَىٰ. وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغ السَّابع مِنَ الولد».

وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونحلَها ـ على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أَعظم الأَسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزد على ألف موضع، فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝١٦٦﴾ [الأعراف: الآية ١٦٦]. وقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٥٥]. وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: الآية ٣٨]. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: الآية ٣٥]. وهذا كثير جدًا، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: الآية ١١]. وقوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [الجن: الآية ١٦] ونظائره. وتارة يأتي بلام التعليل كقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [صّ: الآية ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣]. وتارة يأتي بأداة «كي» التي للتعليل، كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: الآية ٧]. وتارة يأتي ببناء السببية كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢]. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: الآية ١٠٥]. وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٩]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٢]. وتارة يأتي

بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا، كقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢]. وكقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٢]. وقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٦] أي كراهة أن تقولوا، وتارة يأتي بفاء السببية، كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس: الآية ١٤]. وقوله: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحَاقَّة: الآية ١٠]. وقَوْله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤٨] ونظائره. وتارة يأتي بأداة «لما» الدالة على الجزاء كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٥]. ونظائره. وتارة يأْتي بإن وما عملت فيه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٩٠]. وقوله في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٧٧]. وتارة يأْتي بأَداة «لولا» الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]. وتارة يأْتي «بلو» الدالة على الشرط، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦٦].

وبالجملة. فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب. بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

ومَن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلًا منه، وعجزًا وتفريطًا وإضاعة، فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا. بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر. والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا، وما يضاده سواء، فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه من أَخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أَنفع ما في ذلك تدبر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه. وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة. ثمّ السنة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني. ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما. وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا. وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأُمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأَيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته من الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرَّفَنا الله ورسوله به من الأَسباب الكلية للخير والشر.

الأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب. وهذا من أهم الأُمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأَسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأَكابر تارة أُخرى.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال (أَستغفر الله) زال الذنب، وراح هذا بهذا. وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحانه الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبَد البحر». وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل[1] اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا وقد محى عنه ذلك. وقال لي آخر: قد صح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أَذهب عبد ذنبًا فقال: أيَّ ربِّ أصبتُ ذنبًا فاغفر لي، فغفر له، ثمّ مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أَي رب، أَصبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله عزَّ وجلّ: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأْخذ به. قد غفرت لعبدي، فليصنع ما شاء». قال: وأَنا لا أَشك أَن لي ربًّا يغفر الذنب ويأْخذ به. وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء. وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وكثِّر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جراءَة على مغفرة الله واستصغار.

---

(١) وهكذا. وربما كان أصل العبارة «نحن إذا فعل أحدنا».

وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاءِ يقول في دعائه: اللَّهم إني أَعوذ بك من العصمة.

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسأَلة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتَّة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومن هؤلاءِ مَن يغتر بمسأَلة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وأَن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء مَن يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه، وحرمتهم عنده.

ومنهم مَن يغتر بآبائه وأَسلافه، وأَن لهم عند الله مكانًا وصلَاحًا، فلا يَدَعوه أَن يخلِّصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مُفْظع خلصه أَبوه وجده بجاهه ومنزلته.

ومنهم مَن يغتر بأَن الله عزَّ وجلّ غني عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا. ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا. فيقول: أَنا مضطر إلى رحمته: وهو أغنى الأَغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها، فالله أكرم وأوسع، والمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

ومنهم مَن يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥]. وهو لا يرضى أن يكون في النار. وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عزَّ وجلّ، والله تعالى يرضيه تعذيب الظَّلَمة والفسقة والخونة والمصرِّين على الكبائر، فحاشا برسوله أَن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُمَر: الآية ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأَساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان. ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه هٰهنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين. وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: الآية ٤٨]. فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: الآية ٦]. فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: الآيتان ١٥، ١٦] وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤] ولم يَدْرِ هذا المغتر أن قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل: الآية ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ [الليل: الآية ١٥] ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلى أخص من الدخول، ونفّي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فلا يكون مضمونًا له أن يُجنَّبها.

وأما قوله تعالى في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤] فقد قال في الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣]. ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجلُ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوي مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها، غير تائب منها؟ هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يُصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار، وتعاونهما على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون

التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما. وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

وكاتّكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «أنا عند حسن ظن عبدي بي. فليظن بي ما شاءَ» يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأَساءَ العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات له، وأَساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأْمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب، وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إِساءَة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأْن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن أنه يدخله الجنة كان غرورًا وخداعًا من نفسه وتسويلًا من الشيطان، لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأَوامره، معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أُمامة سهل بن حنيف: «دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير أو سبعة دنانير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أَفرقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثمّ سأَلني عنها فقال: ما فعلتِ؟ أكنت فرّقت الستة

الدنانير؟ فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك، فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: «ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟». وفي لفظ «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده».

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم. فإن كان ينفعهم قولهم: حسّنا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: الآيتان ٨٦، ٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومَن تأَمل هذا الموضع حق التأَمل علم أَن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أَنه يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكَيِّسُ مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتبع نفسه هواها، وتمنى على الله».

وبالجملة فحُسْن الظن إنما يكون مع انعقاد أَسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأَتى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأَتى ذلك، ويكون مستَنَد حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأَن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأَمر هكذا، والله فوق ذلك وأَجل وأَكرم وأَجود وأَرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باءَ بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأَقلع، وبدل السيئة بالحسنة. واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة. ثم أَحسن الظن بعدها فهذا حسن الظن. والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل، فإن الحاجة إليه شديدة لكل أَحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا البطالين

والفاسقين، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: الآية ١١٩] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه. والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

الاتّكال على رحمة الله وعفوه وكرمه

وكثير من الجهّال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأْسه عن القوم المجرمين. ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأْمن أَن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقيل للحسن: أَراك طويل البكاء. فقال: أَخاف أَن يطرحني ولا يبالي.

وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأَحسن العمل.

وسأَل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أَقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأَن تصحب أَقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خير من أن تصحب أقوامًا يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أُسامة بن زيد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أَقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما أصابك! ألم تكن تأْمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر! فيقول: آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأَنهاكم عن المنكر وآتيه».

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: «مر رسول الله ﷺ بالبقيع، فقال: أُف لك، فظننت أنه يريدني، فقال: لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعيًا إلى آل فلان، فغلَّ نَمِرة فدُرِّع الآن مثلها من نار».

وفي مسنده أيضًا من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلى أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء! قالوا: خطباء أُمتك من أَهل الدنيا، كانوا يأْمرون الناسَ بالبر وينسَوْنَ أَنفسهم».

وفيه أيضًا من حديثه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِّج بي، مررت بقوم لهم أَظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاءِ يا جبريل؟! فقال: هؤلاء الذين كانوا يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

وفيه أيضًا عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب والأَبصار، ثبّت قلبي على دينك. فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء».

وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «ما لي لم أر ميكائيل ضاحكًا قط؟! قال: ما ضحك منذ خلقت النار».

وفي صحيح مسلم عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغة، ثمّ يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

وفي المسند من حديث البراء بن عازب، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأَرض، فرفع رأْسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثًا ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ببعض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان أهل الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثمّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أَيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج، تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأْخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأْخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأَطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأَرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيِّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلّ: اكتبوا كتاب عبدي في علِّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أُخرى. قال: فتعاد روحه إلى الأرض فيأْتيه ملكان، فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي

الله عزَّ وجلّ، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو (محمد) رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله عزَّ وجلّ فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأْتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأْتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة.. رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأْسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتغرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبتل، فيأْخذها فإذا أَخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأَنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأَرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأَقبح أَسمائه التي يسمى بها في الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له. ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٠] فيقول الله عزَّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سِجِّين، وفي الأَرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثمّ قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأْتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه.. هاه، لا أدري فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أَدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه. هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأْتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأْتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح. فيقول: أَبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة».

وفي لفظ لأَحمد أيضًا «ثم يقيّض له أَعمى أَصم أبكم، في يده مِرزبَّة، لو ضرب بها جبلًا كان ترابًا، ثم يعيده الله عزَّ وجلّ كما كان، فيضربه ضربة أُخرى، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد له من فراش النار».

وفي المسند أيضًا عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلته بين يديه لأَنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أَقبل علينا فقال: أَي إِخواني، لمثل هذا اليوم فأَعدوا».

وفي المسند من حديث بريدة قال: «خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا، فنادى ثلاث مرات: يا أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًا يأْتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فأَبصر العدو، فأَقبل لينذرهم، وخشي أَن يدركه العدو قبل أَن ينذر قومه، فأَهوى بثوبه: أَيها الناس أُتيتم، أيها الناس أُتيتم ـ ثلاث مرات».

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام، وإن على الله عزَّ وجلّ عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار».

وفي المسند أيضًا من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء، وحق لها أَن تئط، ما فيها موضع أَربع أَصابع إلا وعليه ملك ساجد، لو تعلمون ما أَعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأَرون إلى الله عزَّ وجلّ». قال أبو ذر: والله لوددت أَني شجرة تعضد.

وفي المسند أيضًا من حديث حذيفة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه، فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله، ويملأُ على الكافر نارًا». والحمائل: عروق الأُنثيين.

وفي المسند أَيضًا من حديث جابر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع في قبره وسوى عليه، سبح رسول الله ﷺ، فسبحنا طويلًا، ثم كبّر فكبّرنا، فقيل: يا رسول الله، لِمَ سبّحت؟ ثم كبّرت فقال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه».

وفي صحيح البخاري من حديث أَبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أَعناقهم، فإِن كانت صالحة قالت: قدموني.. قدموني، وإِن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإِنسان، ولو سمعها الإِنسان لصعق».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أَبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلى منها الرؤوس كما تغلى القدور، يغرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق».

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «كيف أَنعم وصاحب القرن قد التقم القرن! وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ. فقال أَصحابه: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

وفي المسند أيضًا عن ابن عمر يرفعه «من تعظم في نفسه، أَو اختال في مشيته، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان».

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أَحيوا ما خلقتم».

وفيهما (أيضًا) عنه عن النبي ﷺ: «إِن أَحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي. إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة. وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عزَّ وجلّ يوم القيامة».

وفيهما أيضًا عنه عن النبيّ ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح. ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت. ويا أهل النار خلود فلا موت. فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم».

وفي المسند عنه قال: «من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه». ثمّ أدخل أُصبعيه في أُذنيه ثمّ قال: صُمَّتا إن لم أَكن سمعتُ النبيَّ ﷺ يقوله.

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها. ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقًا على الله أَن يسقيه طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: عصارة أَهل جهنم».

وفيه أيضًا عنه مرفوعًا: «من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أَربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة».

وفي المسند أيضًا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة. قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن».

وفيه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، أو آخذ بشماله».

وفي المسند أيضًا من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه. وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلًا: كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأحجوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها».

وفي الصحيح من حديث أَبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يضرب الجسر على جهنم، فأكون أول من يجوز، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهم سلم سلم، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأَعمالهم فمنهم الموثق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إلـٰه إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأْكل من ابن آدم أَثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل».

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها. فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قتلت. قال كذبت، ولكن قاتلت ليقال: هو جريء، فقد قيل، ثم أَمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأَ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأْت فيك القرآن. فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم، فقد قيل، وقرأْت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل. ثمّ أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أَصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من سبيل تحب أَن ينفق فيها إلا أَنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثمّ أَمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، وفي لفظ: فهؤلاء أَول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أَن خير الناس الأَنبياء، فشر الناس من تشبَّه بهم يوهم أَنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون، وشر الناس من تشبه بهم يوهم أَنه منهم وليس منهم.

وفي صحيح البخاري من حديث أَبي هريرة عن النبي ﷺ: «من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أَو عرض فليأْته، فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأُعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح في النار».

وفي الصحيح من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أَخذ شبرًا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أَرضين».

وفي الصحيحين عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقِد بنو آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم. قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها».

وفي المسند عن معاذ قال: «أوصاني رسول الله ﷺ فقال: لا تشرك بالله شيئًا، وإن قتلت أو حرقت، ولا تعقنّ والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرًا، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله».

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها، ويرسل نفسه في المعاصي، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرّة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا[1].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن سلمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مَرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئًا. فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء. قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلو سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب

(١) انظر مع ذلك حديث أبي رافع في ص ٢٧.

لأحد شيئًا من دون الله عزَّ وجلّ، فضربوا عنقه فدخل الجنة». وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وربما اتّكل بعض المغتّرين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك. وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يحيىٰ بن غيلان حدّثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله عزَّ وجلّ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج» ثمّ تلا قوله عزَّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٤].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمَه وأَنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزّخرُف: الآيات ٣٣ - ٣٥]. وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ﴾ [الفَجر: الآيات ١٥ ـ ١٧]. أي ليس كل من نعَّمته ووسَّعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أَهَنْته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «إن الله يعطي الدُّنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب».

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرَج بنعم الله عليه وهو لا يعلم. ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

أعظم الخلق غرورًا

وأَعظم الخلق غرورًا من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أَحسن من النسيئة. ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا درة موعودة. ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أَدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبه، وهو بين مصدق ومكذب.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له.

وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة، جوابه: إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير. وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير. فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفَس واحد من أنفاس الآخرة؟ كما في مسند الإمام أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟» فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أَعظم الغبن وأقبح الجهل. وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأَيما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب، ليأْخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأَمده.

فأما قول الآخر: لا أترك متيقَّنًا لمشكوك فيه. فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له. وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته، وصدق رسله فيما أخبروه به عن الله، وتجرَّدْ وقُمْ لله ناظرًا أو مناظرًا، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه، وأن خالق هذا العالم ورب السمٰوات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه. ومن نسبه إلى ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه، إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلًا، لا يعلم شيئًا، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يأْمر، ولا ينهى، ولا يثيب، ولا يعاقب، ولا يعز من يشاء، ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملًا. وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عني به هذه العناية، ونقله من هذه الأحوال، وصرّفه في هذه الأطوار، لا يليق به أَن يهمله

ويتركه سُدًى، لا يأمره ولا ينهاه ولا يعرّفه حقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه. ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلًا له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه. وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: الآيات ٣٨ - ٤٠] وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله.

فقد بانَ أن المضيع مغرور على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكه.

فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهيًا غافلًا، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبته.

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب.

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليس المُخبر كالمعاين»[1].

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأَمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخَص التأويل، وإِلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا. وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

---

(١) المخبر: بفتح الباء، اسم مفعول من الإخبار. والمعاين: اسم فاعل من المعاينة وهي رؤية الشيء بالمعين، والمراد أنه لا يستوي من يعلم الشيء بطريق الرؤية ومن يعرفه بإخبار الناس، وفي نسخة «ليس الخبر كالمعاينة».

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤].

فقد تبيّن الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة وزاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح. ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا، فهو المغرور. ولو أَن رجلًا كانت له أرض يؤمل أَن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها، وحسن ظنه بأنه يأْتي من مغلها ما يأْتي من حَرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعدَّه الناس من أَسفه السُّفهاء. وذلك لو حسن ظنه وقوي رجاؤه بأَن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه، وأَمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم، من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أَوامره، واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٨] فتأَمل كيف جعل رجاءَهم إتيانهم بهذه الطاعات؟

قال المغرورون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره، الباغين على عباده، المتجرئين على محارمه، أُولئك يرجون رحمة الله.

وسرّ المسأَلة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأْتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أَن لا يكله إليها، وأَن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها.

استلزام الرجاء

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أُمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأَماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أَسرع السير مخافة الفوات.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاءَ والخوف النافع هو ما اقترن به العمل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٥٧ - ٦١].

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أُولئك يسارعون في الخيرات». وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومَن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف. ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: وددت أَني شعرة في جنب عبد مؤمن، ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عزَّ وجلّ. وأتى بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر قال لعائشة: يا بنية إني أَصبت من مال المسلمين هذه العباءَة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأَسرعي به إلى ابن الخطاب. وقال: والله لوددت أَني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد.

وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأْكلني الدواب.

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [الطُّور: الآية ٧] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني ثم قال: بل ويل أُمي، إن لم يغفر لي ثلاثًا، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل. فقال: وددت أَني أَنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته. وقال: لو أَنني بين الجنة والنار لا أَدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه. وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسى الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق: ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحد بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أَني شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرةً تعضد، وودت أَني لم أُخلق. وعرضت عليه النفقة فقال: عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها.

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية، فلمّا أَتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: الآية ٢١]. جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: وددت أَني كبش فذبحني أهل وأكلوا لحمي وحسوا مرقي. وهذا باب يطول تتبعه.

قال البخاري في صحيحه: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا.

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أَحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة. أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ؟ يعني في المنافقين! فيقول: لا. ولا أزكى بعدك أَحدًا».

فسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول: ليس مراده أني لا أبرىء غيرك من النفاق، بل المراد لا أَفتح على نفسي هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأُزكيه. قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «سبقك بها عكاشة» ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب. وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى، والله أعلم.

عودة إلى ذكر دواء الداء

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته.

فمما ينبغي أن يعلم: أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟.

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبرجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش. وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان. وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه. فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم. رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة. فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟! وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل محاوية. ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأُمم إلى يوم القيامة؟.

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟.

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أُمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟.

وما الذي أَرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟.

وما الذي أَغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أَرواحهم إلى جهنم. فالأَجساد للغرق، والأرواح للحرق؟.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأَهله؟.

وما الذي أَهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟.

وما الذي أَهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟.

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أُولي بأْس شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأَحرقوا الديار ونهبوا الأَموال، ثم بعثهم عليهم مرّة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتَبَّرُوا ما علَوْا تتبيرًا؟.

وما الذي سلط عليهم أَنواع العقوبات، مرَّة بالقتل والسّبي وخراب البلاد، ومرّة بجور الملوك، ومرّة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٧].

قال الإمام أحمد: حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا صفوان بن عمرو حدّثني عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: «لما فتحت قبرص فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأَهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عزَّ وجلّ إذا أضاعوا أمره، بينما هي أُمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

وقال علي بن الجعد: أنبأَنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختري يقول: أخبرني من سمع النبيّ ﷺ يقول: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم».

وفي مسند الإمام أَحمد من حديث أُم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أُمتي عمهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أُناس صالحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يصنع بأُولئك؟ قال: يصيبهم ما أَصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

وفي مراسيل الحسن عن النبيّ ﷺ: «لا تزال هذه الأُمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءَها وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يهن خيارها أشرارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثمّ ضربهم الله بالفاقة والفقر».

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

وفيه أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تتداعى عليكم الأُمم من كل أُفق، كما تداعى الأكلة على قَصعَتها. قلنا: يا رسول الله أَمِنْ قِلَّة منا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهة الموت».

وفي المسند من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرِّج بي مررت بقوم لهم أَظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأُكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين، ويلبسون للناس مسوك الضأْن من اللين، أَلسنتهم أَحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله عزَّ وجلّ: أبي يغترون؟ وعليّ يجترئون؟ فبي حلفت، لأبعثن على أُولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران».

وذكر ابن أَبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أَبيه عن جده قال: قال عليٌّ: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة، وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أَديم السماء، منهم خرجت الفتنة، وفيهم تعود».

وذكر من حديث سماك بن حرب بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية أَذِن الله عزَّ وجلّ بهلاكها».

ومن مراسيل الحسن: «إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأَرحام، لعنهم الله عزَّ وجلّ عند ذلك، فأعصمهم وأَعمى أَبصارهم».

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ، فأَقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال:

يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أَعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عزَّ وجلّ في كتابه إلا جعل الله بأْسهم بينهم».

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أَبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأَمس، فلمّا رأَى الله عزَّ وجلّ ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذي نفس محمد بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأْخذن على يد السفيه، ولتأْطرنه على الحق أطرًا. أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: «أوحى الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين أَلفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم. قال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأَخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم».

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: «بعث الله عزَّ وجلّ ملكين إلى قرية: أن دمراها بمن فيها، فوجدا فيها رجلًا قائمًا يصلي في مسجد، فقالا: يا رب، إن فيها عبدك فلانًا يصلي، فقال الله عزَّ وجلّ: دمراها ودمراه معهم، فإنه ما تمعَّر وجهه فيَّ قط».

وذكر الحميدي عن سفيان بن عُيينة قال: حدَّثني سفيان بن سعيد عن مسعر «أَن ملكًا أُمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيها فلانًا العابد، فأَوحى الله عزَّ وجلّ إليه: إن به فابدأْ، فإنه لم يتمعَّر وجهه في ساعة قط».

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال: «لما أَصاب داود الخطيئة قال: يا رب اغفر لي، قال: قد غفرت لك، وألزمت عارها بني إسرائيل، قال: يا رب، كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحدًا، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري؟ فأوحى الله إليه: إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك «أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أُم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة. فقالت: إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمور، وضربوا بالمعازف غار الله عزَّ وجلّ في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا، وإلا هدمها عليهم. قال: يا أُم المؤمنين أعذابًا لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالًا وعذابًا وسخطًا على الكافرين. فقال أَنس: ما سمعت حديثًا بعد رسول الله ﷺ أنا أَشد فرحًا [به] مني بهذا الحديث».

وذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلًا «أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها، ثم قال: اسكني، فإنه لم يَأن لك بعدُ. ثم التفت إلى أَصحابه، فقال: إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب، فقال: أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أُساكنكم فيها أبدًا».

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا «أن الأَرض تزلزلت على عهد عمر، فضرب يده عليها وقال: ما لكِ؟ وما لكِ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدَّثت أَخبارها سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق».

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر، فقال: يا أيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم. لئن عادت لا أُساكنكم فيها».

وقال كعب: «إنما تزلزل الأَرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فَرقًا من الربّ جل جلاله أَن يطلع عليها».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار «أما بعد، فإن هذا الرَّجف شيء يعاتب الله عزَّ وجلّ به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق به، فإن الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥] وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: الآية ٤٧] وقولوا كما قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أسود بن عامر حدّثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذَا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم وتبايعوا بالعِينَة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم» رواه أبو داود بإسناد حسن.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا ضَنَّ النَّاس بالدِّينار والدِّرهم، وتبايعوا بالعِينة، وتركوا الجهاد في سَبيل الله، وأخذوا أذناب البقر، أنزل الله عليهم من السماء بلاء، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم».

وقال الحسن: «إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عزَّ وجلّ على الناس».

ونظر بعض أَنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُختنصَّر فقال: «بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا».

وقال بختنصر لدانيال: ما الذي سلطني على قومك؟ قال: «عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم».

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبيّ ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ إذا أراد بالعباد نقمة أَمات الأطفال وأعقم أرحام النساء، فتنزل النقمة، وليس فيهم مرحوم».

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأْت في الحكمة: يقول الله عزَّ وجلّ: «أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أَطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أَنفسكم بسبب الملوك، ولكن توبوا إِلَيَّ أَعطفهم عَليكم».

ومن مراسيل الحسن «إذا أَراد الله بقوم خيرًا جعل أَمرهم إلى حلمائهم، وفيئهم عند سُمحائهم، وأراد الله بقوم شرّا جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيئهم عند بخلائهم».

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: قال موسى: «يا رب، أنت في السماء، ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم».

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني».

وذكر أيضًا من حديث ابن عمر يرفعه «والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أُمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعوانًا خونة، وعرفاء ظلمة، وقراء فسقة، سيماهم سيماء الرهبان، وقلوبهم أَنتن من الجيف، أَهواؤهم مختلفة، فيفتح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهاوكون فيها، والذي نفس محمد بيده ليُنقضَن الإِسلام عروة عروة، حتى لا يقال الله الله. لتأْمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلِّطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم. لتأْمُرنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقر كبيركم».

وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طفف قوم كيلًا، ولا بخسوا ميزانًا، إلا منعهم الله عزَّ وجلّ القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الرّبا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتل - يقتل بعضهم بعضًا - إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم» ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمٰن بن زيد عن أبيه عن سعيد به.

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء، فما تكلم حتى توضأ، وخرج، فلصقت بالحجرة. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله عزَّ وجلّ يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم، وتسألوني فلا أُعطيكم».

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه، خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

وقال: مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفّ بحقه.

وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق «أيها الناس، إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه - وفي لفظ: إذا رأوا المنكر فلم يغيروه - أوشك أن يعُمّهم الله بعقاب من عنده.

وذكر الأوزاعي عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغير ضرَّت العامة».

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب «توشك القرى أن تخرب وهي عامرة؟ قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجّارُها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها».

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبيّ ﷺ قال: «سيظهر شرار أُمتي على خيارها، حتى يستخفي المؤمن فيهم، كما يستخفي المنافق فينا اليوم».

وذكر ابن أَبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: «يأْتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء. قيل: مم ذاك يا رسول الله؟ قال: مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره».

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبيّ ﷺ قال: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، هم أَعز وأَكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب».

وفي صحيح البخاري عن أُسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرّجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أَقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أَيْ فلانُ، مَا شَأْنك؟ أَلست كنت تأْمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأَنهاكم عن المنكر وآتيه».

وذكر الإمام أَحمد عن مالك بن دينار قال: «كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء، فيعظم ويذكرهم بأَيام الله، فرأى بعض بنيه يومًا يغمز النساء، فقال: مهلًا يا بني [مهلًا يا بني]. فسقط من سريره، فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأَته، وقتل بنوه، فأَوحى الله إلى نبيهم: أَن أَخبر فلانًا الحبر: أَني لا أَخرج من صلبك صدِّيقًا أَبدًا، ما كان غضبك لي إلا أَن قلت: مهلًا يا بني».

وذكر الإمام أَحمد من حديث عبد الله بن مسعود أَن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أَرض فَلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأَججوا نارًا، وأَنضجوا ما قذفوا فيها».

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبت امرأة في هِرّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له: في يوم واحد تركتْ بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه».

ومن هٰهنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وفي الحلية أيضًا عن ابن عباس أنه قال: «يا صاحب الذنب لا تأْمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال ـ وأنت على الذنب ـ أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه، فلم يعنه، ولم ينه الظالم عن ظلمه، فابتلاه الله».

قال الإمام أحمد: حدّثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت».

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عنك يصغر عند الله.

وقيل: أَوحى الله إلى موسى، يا موسى إن أول من مات من خلقي إبليس، وذلك أنه عصاني، وإنما أعد من عصاني من الأموات.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أَبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب [ذنبًا] نُكِت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه. فذلك الران الذي ذكره الله عزّ وجلّ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفِين: الآية ١٤]، قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال حذيفة: «إذا أَذنب العبد [ذنبًا] نُكِت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبداء».

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يعقوب حدّثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدَّثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أَما بعد يا معشر قريش، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحَى هذا القضيب بقضيب في يده، ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يَصْلد».

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرّب عزَّ وجلّ قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل «إني إذا أُطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد.

وذكر أيضًا عن وكيع حدّثنا زكريا بن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية «أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا».

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الْجَعد عن أبي الدرداء قال «ليحذر ٱمرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدري ممن هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقى الله بُغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أَحمد في كتاب الزهد لأَبيه عن محمد بن سيرين: أَنه لما ركبه الدَّين اغتم لذلك، فقال: إني لأَعرف هذا الغم بذنب أَصبته منذ أربعين سنة.

وهٰهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أَمر الذنب، وهي أَنهم لا يرون تأْثيره في الحال، وقد يتأَخر تأْثيره فينسى، ويظن العبد أَنه لا يغير بعد ذلك، وأَن الأَمر كما قال القائل:

إذا لـم يـغـبـر حـائـط فـي وقـوعـه فـلـيـس لـه بـعـد الـوقـوع غـبـار

وسبحان الله! ماذا أَهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أَزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أَكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلًا عن الجهال! ولم يعلم المغتر أَن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمِل على الغش والدَّغل.

وقد ذكر الإمام أَحمد عن أبي الدرداء «ٱعبدوا الله كأَنكم ترونه، وعدوا أَنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلًا يغنيكم خير من كثر يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا يُنسى».

ونظر بعض العبَّاد إلى صبي فتأَمل محاسنه، فأَتى في منامه وقيل له: لتجدن غِبَّها بعد أربعين سنة.

وهذا مع أن للذنب نقدًا معجلًا لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مَذلته.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللّٰهم لا تشمِّت بي الأعداء، ثمّ هو يشمِّت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصى الله ويشمت به في القيامة كل عدو.

وقال ذو النون: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية.

آثار المعاصي المضرة بالقلب

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفىء ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق. وفي المسند «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقد تقدم. وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلًا. ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام، فلو لم تترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمرُّ من وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بَعُد منهم ومن مجالستهم، وحُرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان، بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصى الله فأرى ذلك في خُلق دابتي وامرأتي.

ومنها: تعسير أُموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرًا، ويالله للعجب! كيف يجد العبد أَبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى؟.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم ادلهَمَّ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادات حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأُمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثمّ تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

ومنها: أَن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأَما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوى قلبه قوى بدنه. وأما الفاجر فإنه ـ وإن كان قوي البدن ـ فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوّته أَحوج ما يكون إلى نفسه. وتأمل قوّة أَبدان فارس والرّوم كيف خانتهم أَحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟.

ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أُخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة، ثمّ رابعة وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أَكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدّة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد، فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع.

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه. وهذا حق، وهو بعض تأْثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه البركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أَسباب تكثره وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأَسباب كما ينقص بأَسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاءِ الرّب عزَّ وجل، فهو يقضي ما يشاء بأَسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أُخرى: تأْثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأَن حقيقة الحياة هي حياة القلب. ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: الآية ٢١] فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلّا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطّاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقة التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: الآية ٢٤]. فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأُخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلًا، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أُخرى إلى جنبها: اعملني أَيضًا، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرا، فتضاعف الرّبح، وتزايدت الحسنات، وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأَرض بما رحُبت، وأحسّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه، ولو عطل المجرم المعصية وأَقبل على الطّاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأَعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذّة يجدها، ولا داعية إِليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هاني حيث يقول:

وكأْس شربت على لذة وأُخرى تداويت منها بها

وقال آخر:

فكانت دوائي، وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعاني الطَّاعة ويأْلفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يأْلف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشَّياطين فتؤزره إليه أزًّا، فالأول قوى جند الطَّاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه. وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه.

ومنها ـ وهو من أخوفها على العبد ـ أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأْتي من الاستغفار وتوبة الكذَّابين باللِّسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصِرٌّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه. وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

ومنها: أَنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللَّذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب. كما قال النبيّ ﷺ: «كلُّ أُمَّتي معافى إِلَّا المُجَاهِرُون، وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَار: أَنْ يَستر الله الْعَبْد ثُمّ يصْبح يَفْضح نفسه وَيَقُول: يَا فُلان عَمِلتُ يَوْم كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكذَا، فهتَكَ نَفْسَهُ، وقَد بَاتَ يَسْتُرُه رَبَّه».

ومنها: أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أُمة من الأُمم التي أهلكها الله عزَّ وجل، فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون، والتكبّر والتجبّر ميراث عن قوم هود، فالعاصي لابس ثيابَ بعضِ هذه الأُمم، وهم أَعداء الله.

وقد روى عبد الله بن أَحمد في كتاب الزُّهد لأَبيه عن مالك بن دينار قال: أَوحى الله إلى نبيّ من أنبياءِ بني إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أَعدائي، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي».

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ: قال: «بُعِثْتُ بِالسَّيفِ بَيْنَ يَدَي السَّاعة، حَتَّى يُعْبَدُ الله وَحْده لَا شَرِيكَ له، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجَعل الذِّلَّةَ وَالصغار عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

ومنها: أَن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم. وإذا هان العبد على الله لم يكرمه

أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحجّ: الآية ١٨] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرها، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار».

ومنها: أن غيره من الناس والدَّواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون[1]: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

المعصية تورث الذل وتفسد العقل

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: الآية ١٠] أي فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السّلف: اللَّهُمَّ أَعِزّني بِطَاعَتِكْ، وَلَا تَذِلَّني بِمَعْصِيَتِكْ.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إنَّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم، أبىٰ الله إلَّا أنْ يُذِلَّ من عَصَاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وقَدْ يُورِث الذُّل إدْمَانُها

(١) عبّر عنها بضمير العقلاء في قوله «يقولون» لنسبة القول إليها. والقطر ـ بفتح فسكون: المطر.

وتـرك الـذُّنـوب حـيـاة الـقـلـوب   وَخَـيْـرٌ لِنَـفْـسِـكَ عِـصْـيَـانُـهـا
وهَـلْ أَفْـسَـدَ الـدِّيـنَ إلَّا الـمُـلـوك   وَأَحْـبَـار سُـوءٍ وَرُهْـبَـانُـهَـا؟

ومنها: أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفىء نور العقل ولا بد، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحدٌ حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مُطَّلع عليه، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، ووعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، ووعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أَضعاف أضعاف ما يحصل له من السُّرور واللَّذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟.

المعصية تورث الطبع على القلب

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين كما قال بعض السَّلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: الآية ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأُ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأُ حتى يصير رانًا. ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا. فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولَّاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

ومنها: أن الذُّنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ، فإنه لعن على معاصي والتي غيرها أكبر منها فهي أَولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الرِّبا ومؤكله، وكاتبه وشاهده، ولعن المحلِّل والمحلَّل له ولعن السارق، ولعن شارب الخمر وساقيها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه. ولعن مَن غيّر منار الأَرض وهي أَعلامها وحدودها، ولعن مَن لعن والديه، ولعن مَن اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بسهم، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساءِ، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أَحدث حدثًا أو آوى محدثًا، ولعن المصورين، ولعن من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط. ولعن من سب أباه وأُمه، ولعن من كمه

أعمى عن الطريق، ولعن من أتى بهيمة، ولعن من وسم دابة في وجهها، ولعن من ضار مسلمًا أو مكر به، ولعن زَوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُرُج، ولعن من أَفسد امرأَة على زوجها أَو مملوكًا على سيده، ولعن من أَتى امرأة في دبرها، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، ولعن من انتسب إلى غير أبيه، وأَخبر أن من أَشار إلى أَخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، ولعن مَن سبّ الصحابة.

وقد لعن الله [في كتابه] من أَفسد في الأَرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسول الله ﷺ.

ولعن مَن كتم ما أنزل الله سبحانه من البيّنات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن مَن جعل سبيل الكافرين أهدى في سبيل المسلمين.

ولعن رسولُ الله ﷺ الرجلَ يلبس لِبسة المرأَة، والمرأَة تلبس لِبسة الرجل، ولعن الراشي والمرتشي والرائش ـ وهو الواسطة في الرشوة ـ ولعن على أشياء أُخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأَن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سُبحانه أَمر نبيّه أَن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: الآيات ٧ ـ ٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

ومن عقوبات المعاصي، ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سُمرة بن جُندب قال: «كان النبيّ ﷺ مما يكثر أَن يقول لأَصحابه: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ البَارِحَة رُؤْيا؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتاني اللّيل آتيان، وإنهما ابنعثا لي، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أَتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأْسه فيتدهده الحجر هٰهنا، فيتبع الحجر، فيأْخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثمّ يعود عليه،

فيفعل به مثل ما فعل في المرّة الأولى. قال: قلت لهما: سُبحان الله! ما هذا؟ قال لي: انطلق. . . انطلق، فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلُّوب من حديد، وإذا هو يأْتي أحد شقَّيْ وجهه ويشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثمّ يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأوَل فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان. ثمّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرّة الأُولى. قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق. . انطلق، فانطلقنا، فأَتينا على مثل التنُّور، فإِذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أَسفل منها، فإذا أتاهم ذلك اللَّهب ضَوْضوا. فقال: قلت لهم: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق. . انطلق، فانطلقنا، فأتينا على نهر أحمر مثل الدَّم، فإِذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النَّهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السّابح يسبح ما شاء الله أن يسبح، ثمّ يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه، فيلقمه حجرًا، قلت لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلق. . انطلق، فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المَرآة أو كأكره ما أَنت راءٍ رجل مرأى، وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها، قال قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق. . انطلق، انطلقنا حتى أَتينا على روضة مُعتمة، فيها كل من نور الرّبيع، وإذا بين ظهراني الرّوضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرّجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت: ما هذا؟ ما هؤلاءِ؟ قال: قالا لي: انطلق. . انطلق، فانطلقنا، فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لي: ارق فيها، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، قال: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر منهم كأقبح ما أَنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر معترض يجري كأَن ماءَه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثمّ رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، قال: قالا لي: هذه جنة عدن، وها ذاك منزلك، قال: فسما بصري صعدًا، فإِذا قصر مثل الربابة البيضاء، قال: قالا لي: هذا منزلك، قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني فأدخله. قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله، قلت لهما: فإني رأيت منذ اللَّيلة عجبًا، فما هذا الذي رأَيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك:

أَما الرّجل الأول الذي أَتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأْخذ القرآن، فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأَما الرّجل الذي أَتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرّجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرّجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرّجل الذي أَتيت عليه يسبح في النهر، ويلقم الحجارة، فإنه آكل الرّبا.

وأما الرّجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرّجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم.

وأما الولدان اللذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة - وفي رواية البرقاني: ولد على الفطرة - فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأَولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ وأَولاد المشركين.

وأَما القوم الذين كانوا شَطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإِنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم.

المعاصي تُحدِث أنواعًا من الفساد في الأرض

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تُحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء، والزروع والثمار، والمساكين. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٤١].

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم [والفساد] فيحبس الله بذلك القطر فيُهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. ثمّ قرأَ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٤١] ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر. وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أَقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماءٍ. وقال قتادة: أَما البر فأَهل العمود، وأَما البحر فأهل القرى والرّيف.

قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحرًا فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فَاطِر: الآية ١٢]، وليس في العالم بحر حلو واقف، وإنما هي الأنهار جارية، والبحر المالح هو الساكن، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه. وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرُّوم: الآية ٤١] قال: الذنوب.

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي هو ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الرُّوم: الآية ٤١] لام العاقبة والتعليل. وعلى الأَول: فالمراد بالفساد، النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في

الأَرض عند معاصي العباد، فكلما أَحدثوا ذنبًا أَحدث الله لهم عقوبة، كما قال بعض السلف: كلما أَحدثتم ذنبًا أَحدث الله لكم من سلطانه عقوبة.

والظَّاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به الذُّنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الرُّوم: الآية ٤١] فهذا حالنا. وإنما أَذاقنا الشيء اليسير من أَعمالنا، ولو أذاقنا كلِ أَعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

ومن تأْثير المعاصي في الأَرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها، وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شُرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أَن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح لتأْثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأْثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: «وجد في خزائن بني أُمية: حبة حنطة بقدر نواة التمرة، وهي في صرّة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل» وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أَحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

وأما تأْثير الذُّنوب في الصّور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ أَنه قال: «خَلَق اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِراعًا، فلَمْ يزَل الْخَلقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآن» فإذا أراد الله أَن يطهر الأَرض من الظلمة والفجرة والخونة، يخرج عبدًا من عباده من أَهل بيت نبيه ﷺ فيملأُ الأَرض قسطًا كما ملئت جورًا، ويقتل المسيحُ اليهودَ والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأَرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأْكلون الرماية ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وأَن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس، وهذا لأَن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذُّنوب والكفر، ولا ريب أَن العقوبات التي أَنزلها الله في الأَرض بقيت آثارها سارية في الأَرض، تطلب ما يشاكلها من الذُّنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأُمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أَن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمة الكوني أولًا وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأَخف للأَخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمّل مقارنة الشيطان ومحله وداره، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرّحمة والبركة.

المعصية تطفىء من القلب نار الغيرة

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفىء من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصّفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلاهم همّة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس. ولهذا كان النبيّ ﷺ أغير الخلق على الأُمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيرَةِ سَعْد؟ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي».

وفي الصحيح أيضًا أنه قال في خطبة الكسوف: «يَا أُمَّة مُحَمّد مَا أَحدٌ أَغْير مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْني عَبْدَهُ أَوْ تَزْني أَمَتُهُ».

وفي الصحيح أيضا عنه أنه قال: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ حَرَّم الفَوَاحِشَ مَا ظهرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنْ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذر مِن الله، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِين، ولَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْح مِنَ الله، مِن أَجْلِ ذلِكَ، أَثنى عَلَى نفْسِهِ» فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرّحمة والإحسان، والله سبحانه ـ مع شدة غيرته ـ يجب أَن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وإنه لا يؤاخذ عبيده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم، ولأَجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال، فإن كثيرًا ممن تشتد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلّةِ الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنَ الغِيرَةِ مَا يُحِبُّها الله، وَمِنْهَا مَا يبْغَضُهُ الله، فالَّتي يبْغَضُهَا الله الغِيرَة فِي غَيْرِ رِيْبةِ» وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقًا.

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أَحق بالمدح من كل أَحد، ولا يبلغ أَحد أَن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأَثنى على نفسه، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأَدخلته على ربه، وأَدنته وقرّبته من رحمته، وصيّرته محبوبًا له، فإِنّه سبحانه رحيم يُحب الرّحماء، كريم يُحب الكُرماء، عَليم يُحب العُلماء، قوي يُحب المؤمن القوي، وهو أَحب إِليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يُحب أَهل الحياء، جَميل يُحب أَهل الجمال، وتر يُحب أَهل الوتر.

ولو لم يكن في الذُّنوب والمعاصي إلّا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصّفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلًا، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة. وحينئذ يتعذر الخروج منها، كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس. وقد تضعف في القلب جدًا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك. وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسِّن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله. ولهذا كان الديوث أَخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له. فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدُلُّك على أَن أَصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع ألبتة. ومثل الغيرة في القلب مثل القوّة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وَجد الدّاء المحلَّ قابلًا، ولم يَجد دافعًا، فتمكن فكان الهلاك.

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كُسرت طمع فيه عدوّه.

المعصية تُذهِب الحياء

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أَصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أَنه قال: «الحيَاءُ خيْر كلُّه».

وقال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاس مِنَ الكَلَام النُّبُوَّة الأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ». وفيه تفسيران:

أَحدهما: أَنه على التهديد والوعيد، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها. وهذا تفسير أَبي عُبيدة.

والثاني: أَن الفعل إذا لم تستح من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحيي منه من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانىء.

فعلى الأَول يكون تهديدًا، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٠] وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟.

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أَحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصود أَن الذُّنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وَإذا رَأى إبْـليـسُ طَـلعـةَ وَجْـهِـهِ حَـيَّـا وقـالَ: فَـديْـتَ مَـنْ لَا يـفْـلَح

والحياءُ مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيًا ـ بالقصر ـ لأَن به حياة الأَرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه [فهو] ميت في الدنيا شقي في الآخرة، وبين الذُّنوب وبين قِلَّة الحياء وعدم الغِيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا، ومن استحيى من الله عند معصيته استحيى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته.

المعصية تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله

ومن عقوبات الذُّنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاءَ أَم أَبى. ولو تمكَّن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تَجرَّأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرّجاء، وطَمعي في عَفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد [تقتضي تعظيم حرماته] وتعظيم حرماته تحولُ بينه وبين

الذُّنوب، والمتجرِّئون على معاصيه ما قَدَّروا الله حقَّ قدره، وكيف يقدِّره حقَّ قدره، أو يعظِّمه ويكبّره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أَمحل المحال، وأَبين الباطل. وكفى بالمعاصي عقوبة أَن يضمحل من قلبه تعظيم الله جلّ جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عزَّ وجلّ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم ويستخفون به، كما هان عليه أَمره واستخف به، فعلى قدر محبّة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أَن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟.

وقد أَشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذُّنوب، وأَنه أَرْكس أَربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأَنه نسيهم كما نسوه، وأَهانهم كما أَهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أَمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحجّ: الآية ١٨] فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أَهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أَن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أَهانه الله؟ أو يهين من أَكرمه الله؟.

المعصية تستدعي نسيان الله لعبده

ومن عقوباتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: الآيتان ١٨، ١٩] فأَمر بتقواه ونهى أَن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأَخبر أَنه عاقب من ترك التقوى بأَن أَنساه نفسه، أَي أَنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأَبدية، وكمال لذَّتها وسرورها ونعيمها، فأَنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأَمره، فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه، مضيعًا لها، وقد أَغفل قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أُمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأَبدية، واستبدل بها أَدنى ما يكون من لذة، إنما هي سحابة صيف أَو خيال طيف، كما قيل:

أَحلام نوم، أو كظل زائل ... إن اللَّبيب بمثلها لا يُخدع

وأَعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأَبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض:

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض كل ما سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأْنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه.

المعصية تخرج العبد من دائرة الإحسان

ومن عقوباتها: أَنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين، فإِن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأَنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقته الخاصة، وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام، فإِن أراد الله به خيرًا أَقرّه في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبيّ ﷺ: «لَا يزْني الزَّاني حينَ يَزْني وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْربها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولَا يَسْرقُ السَّارِقُ حينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبة ذَاتَ شرَف يَرفع إِلَيْهِ فِيهَا النَّاس أَبْصَارهم حَينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فإِياكم إياكم، والتوبة معروضة بعد.

ومَن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإِن الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبه الله في كتابة على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٤٦].

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجّ: الآية ٣٨].

ومنها استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: الآية ٧].

ومنها موالاة الله لهم، ولا يذل مَنْ مولاه الله، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقَرَة: الآية ٢٥٧].

ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفَال: الآية ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها العزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنَافِقون: الآية ٨].

ومنها معيّة الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفَال: الآية ١٩].

ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجَادلة: الآية ١١].

ومنها: إعطاؤهم كِفلَيْن من رحمته. وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الودّ الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: الآية ٩٦].

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٤٨].

ومنها: أَنهم المنعم عليهم الذين أَمرنا أَن نسأَله أَن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرّة.

ومنها أَن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٤].

والمقصود أَن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان. [وكل شر في الدنيا والآخرة بسببه عدم الإيمان] فكيف يهون على العبد أَن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذُّنوب وأَصرَّ عليها خيف عليه أن يَرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية. ومن هٰهنا اشتد خوف السَّلف، كما قال بعضهم: أَنتم تخافون الذُّنوب، وأنا أَخاف الكفر.

المعصية تضعف سير القلب إلى الله تعالى

ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوّقه أَو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى

ورائه، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذُّنوب ضعفت تلك القوّة التي تُسَيِّره، فإن زالت بالكليّة انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه، والله المستعان.

فالذَّنب إما أَن يُميت القلب، أَو يمرضه مرضًا مخوفًا، أَو يُضعف قوته ولا بد، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبيّ ﷺ وهي: «الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدَّين وغلبة الرّجال» وكل اثنين منهما قرينان.

فالهمّ والحزن قرينان. فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أَمر مستقبل يتوقعه أَحدث الهم. وإن كان من أَمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف العبد عن أَسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضَلع الدَّين وقهر الرّجال قرينان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدَّين، وإن كان بباطل فهو قهر الرّجال.

والمقصود أَن الذُّنوب من أَقوى الأَسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أَنها من أَقوى الأَسباب الجالبة: «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء». ومن أَقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحوّل عافيته إلى نقمته، وتجلب جمع سخطه.

المعصية تزيل النعم وتحل النقم

ومن عقوبات الذُّنوب: أَنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلَّا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب. كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة». وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

فأَخبر الله تعالى أنه لا يغيّر نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأَسباب رضاه بأَسباب سخطه، فإذا غير غُير عليه، جزاء وفاقًا، وما ربُّكَ بِظلَّام لِلْعَبِيد. فإن غيَّر المعصية بالطَّاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

وفي بعض الآثار الإلـهية، عن الرّب تبارك وتعالى أنه قال: «وَعِزَّتي وَجَلَالِي لَا يكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أُحِبُّ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ، إِلَّا انْتَقَلَتْ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَى مَا يكْرَه، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أَكْرَه ثُمَّ يَنتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أُحِبُّ إِلَّا انْتَقَلتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَه إِلَى مَا يُحِبُّ».

ولقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فَأرْعها ... فإن الذُّنوب تُزيل النّعم
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد ... فربّ العباد سريع النِّقم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار مَن قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شُهود عليهم، ولا تتّهم
وما كان شيء عليهم أضر ... من الظلم وهو الذي قد قصم
فكم تركوا من جِنان ومن ... قصور، وأُخرى عليهم أَطم
صَلُوا بالجحيم وفات النعيم ... وكان الذي نالهم كالحلم

إلقاء الله تعالى الرعب والخوف في قلب العاصي

ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرّعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا، فإن الطَّاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أَطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانًا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الرّيح الباب قال: جاءَ الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أَخافه من كل شيء:

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا ... أن المخاوف والإجرام في قرن

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشًا، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأَمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأَطيب العيش عيش المستأنسين، فلو نظر العاقل ووازن لذَّة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أُنس الطاعة وأَمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه

من الخوف والضرر الداعي له، كما قيل:

فإن كنت قد أَوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسأَلة أن الطاعة توجب القرب من الرّب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأُنس، والمعصية توجب العبد من الرّب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه، ويجد أنسًا وقربًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدًا عنه، والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأَشد منها وحشة المعصية وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحدًا ملابسًا شيئًا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش ويستوحش منه.

المعصية تصرف القلب عن صحته واستقامته

ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزل مريضًا معلولًا لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأْثير الذنوب في القلوب كتأْثير الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا تركها. وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أَو كاد. وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأْواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أَهلها نعيمًا ألبتة. بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أَمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا. ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك ـ أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار ـ فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إِلَّا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أَشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإِعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واحد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أَحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات في هذه الدار. فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأَنواع (من العذاب في هذه) المعارضات فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أَنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه أَلم الفراق الذي لا يرجو عوده، وأَلم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وأَلم الحسرة التي تقطع الأَكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوان والديدان في أَبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردَّها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأُنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأْنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه. ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب. ويقول الآخر: مساكين أَهل الدُّنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أَطيب ما فيها. ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا مَن باع حظه الغالي بأَبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أَنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوِّمين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأْوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ. وقد بعتها بغاية الهوان. كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم؟

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحجّ: الآية ١٨].

المعصية تعمي بصيرة القلب

ومن عقوباتها: أَنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم. فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوّتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبيّ ﷺ: «إن هذه القبور ممتلئة على أَهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم» فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علوًا ظاهرًا يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أَسود مثل الحَمَمة

فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأَجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغض المنكد المتعب في زمن؟ إنما هو ساعة من حلم! فالله المُستعان.

المعصية تصغر النفس وتقمعها

ومن عقوباتها: أَنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها حتى تكون أصغر من كل شيء وأحقره كما أَن الطاعة تنمّيها وتزكّيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآيتان ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبّرها وأَعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية: الإخفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النّحل: الآية ٥٩]. فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأْتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عن الله، وانقمع عند الخلق، فالطّاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أَشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما صغر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

العاصي دائمًا في أسر شيطانه

ومن عقوباتها: أَن العاصي دائمًا في أَسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه، فهو أَسير مسجون مقيد، ولا أَسير أَسوأ حالًا من أسير أسرَه أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأْسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟.

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعُد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات، وفي الحديث «الشيطان ذئب الإنسان» وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتّقوى، فهي وقاية وجُنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدُّنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الرّاعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأْخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أَبعد من الرّاعي.

وأَصل هذا كله: أَن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أَسرع وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة

تبعد القلب عن الله، وبُعد المعصية أَعظم من بُعد الغفلة، وبُعد البدعة أعظم من بُعد المعصية، وبُعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

المعصية تسقط الجاه والمنزلة والكرامة

ومن عقوباتها: سقط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له على قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، زريَّ الحال، لا حرمة له، ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غمّ وهمّ وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي قدره، ولهذا خصّ أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [صَ: الآيتان ٤٥، ٤٦]، أي خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيّه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريَم: الآية ٥٠]. وقال لنبيّه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: الآية ٤]، فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

المعصية تسلب صاحبها أسماء المدح والشّرف

ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأوّاب، والطيب، والمرضي ونحوها. وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع الرّحم، والغادر وأمثالها، فهذه أسماء الفسوق و ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١١] الذي يوجب غضب الدّيان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان. وتلك أسماء توجب رضاء الرحمٰن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى

بها على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأَسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأَسماء وموجباتها لكان في العقل آمر بها، ولكن لا مانع لما أَعطى، ولا معطى لما منع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحَج: الآية ١٨].

المعصية تؤثّر في نقصان العقل

ومن عقوباتها: أَنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أَحدهما مُطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسدُّ، والصواب قرينه، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أُولي العقول والأَلباب كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧]. وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصى مَنْ هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأَيّ عقل لمن آثر لذة ساعة أَو يوم أَو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هي سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أَحسن حالًا منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأَما تأْثيرها في نقصان العقل المعيش فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون.

ويا عجبًا لو صحت العقول لعلمت أَن طريق تحصيل اللّذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه، والأَلم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرّة العيون، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأَطيب النعيم، مما لو وزنه منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به،

بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٤] فلا إلـه إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدُّرَّ بالبعر، والمسك بالرّجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرًا.

المعصية توجِب القطيعة بين العبد وبين ربه

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأيُّ فلاح، وأيُّ رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طَرْفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه، وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقد عليه الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠] يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدوًا لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟

ونبّه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] كما نبّه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] فتبين أَن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلًا.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأَبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أَن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة.

المعصية تمحق بركة العمر

ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجنّ: الآيتان ١٦، ١٧] وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

وفي الحديث «إن روح القدس نفث في روعي أَنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأَجملوا في الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الرَّوْح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أَحمد في كتاب الزهد «أَنا الله، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد» وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأَعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أَن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأْنينة بذكر، والأُنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضًا عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن

الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السمٰوات والأرض؟.

وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأَجل، لأَن الشيطان موكل بها وبأَصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأَكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرّب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام أَرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلى أُلوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأَعيان والأَقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريبًا من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة، فأَرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أَبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به، فمن هٰهنا كان للمعاصي أعظم تأْثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أَو مال عُصي الله به، أَو بدن أَو جاه أَو عِلم أَو عمل فهو على صاحبه، ليس له، فليس [له من] عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فَمَن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أَو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أَن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عزَّ وجلّ وما والاه، وعالم أَو متعلم».

وفي أَثر آخر «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله» فهذا هو الذي فيه البركة خاصة. والله المستعان.

المعصية تجعل صاحبها من السفلة

ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السِّفلة بعد أن كان مهيئًا لأن يكون من العِلية، فإن الله خلق خلقه قسمين: عِلْية، وسِفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عَليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاءِ والذلة والصغار لهؤلاءِ، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري» فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض هٰهنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولًا بعيدًا أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقى لها بالًا يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب».

فأي صعود يوازي هذه المنزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم مَن يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أَضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم مَن يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عَودة إلى توبة نَصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة. وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها.

قالوا: وتقرير ذلك أنه كان مستعدًا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي

يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعودًا من نزول، وكان قبل ذلك صاعدًا من أسفل إلى أعلى، وبينهما بَون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في سُلمين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أَحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكمًا مقبولًا، فقال: مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها، وما أَحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأُمور، حتى يعود التائب إلى أَرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العُجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأَعماله، ووضعت خدَّ ضراعته وذُله وانكساره على عَتبة باب سيده ومولاه، وعرفته قدره، وأَشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده (ومولاه) له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأَخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أَنفه أَن يشمخ (أو يتكبر) بها، أَو يرى نفسه بها خيرًا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكسَ الرّأس بين يدي ربه، مستحييًا منه خائفًا وجلًا، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء. كما قيل:

استـأثـر الله بـالـوفـاء وبـالـحـمـد، وولّى الـمـلامـة الـرجـلا

فأَيّ نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأَى نفسه دونها، ولم يرها أَهلًا. وأَي نقمة أَو بلية وصلت إليه رأى نفسه أَهلًا لما هو أَكبر منها ورأَى مولاه قد أحسن إليه، إذا لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلًا عن هذا العبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أَعظم منه، الكبير الذي لا شيءَ أَكبر منه، الجليل الذي لا أَجل منه ولا أَجمل، المنعم بجميع أَصناف النعم دقيقها وجليلها - من أَقبح الأُمور وأَفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأَسقطهم مروءة من قابلهم بالرّذائل، فكيف بعظيم السمٰوات والأرض، وملك السمٰوات والأَرض، وإلٰه السمٰوات والأَرض؟ ولولا أَن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، وإلا لتدكدكت الأَرض بمن قابله بما لا

يليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السمٰوات والأرض من معاصي العباد. قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾ [فاطر: الآية ٤١].

فتأَمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما «الحليم، والغفور» كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السمٰوات والأرض؟.

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ[1] مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: الآية ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السمٰوات والأرض بذنب (واحد) ارتكبه، وخالف فيه أَمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذُّنوب إلى الذُّنوب، ونرتجي دَرَج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أَخرج الأَبوين من ملكوته الأَعلى بذنب واحد

والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأَرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة إعادته إلى الصحة الأُولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أَمر يقدح في أَصل إيمانه، مثل الشكوك والرّيب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه.

ومن عقوباتها: أَنها تجترىء على العبد من لم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات فتجترىء عليه الشياطين بالأَذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسائه ما به مصلحتُه في ذكره ومَضرَّتُه في نسيانه، فتجترىء عليه الشياطين حتى تَؤُزُّه إلى معصية الله أزًّا، وتجترىء عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أَذاه في غيبته وحضوره، ويجترىء عليه أَهله وخدمه وأَولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق امرأتي ودابتي وكذلك يجترىء عليه أَولياء الأَمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترىء عليه نفسه فتتأَسد عليه وتستضعف عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أَم أَبى، وذلك أن الطاعة حصن الرّب تبارك وتعالى الذي مَنْ

---

(١) يتفطرن: يتشققن.

دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يردُّ عنه، فإن ذكر الله وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأَمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقايةٌ تردُّ عن العبد، بمنزلة القوة التي تردُّ المرض وتقاومه فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلا بد للعبد من شيء يردُّ عنه، فإنه موجب السيئات والحسنات تتدافع، ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أَقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع، والله المستعان.

ومن عقوباتها: أَنها تَخُون العبد أَحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أَحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أَعرفهم بذلك التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفَّها عمّا يضرّه، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأَعرفهم من كان عارفًا بأَسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أَن أسفههم من عكس الأَمر، والمعاصي تخون العبد أَحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأَشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأَدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أَولى به وأَنفع له في الدارين، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قِرابة بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به، كذلك القلب يصدأُ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض. فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئًا، والعبد إنما يحارب ويصاول ويُقْدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة بها فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف. أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأَمّارة تقوى وتتأَسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأَمّارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يرتجى معه حياة، فهذا ميت في الدنيا. ميت في البرزخ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الأَلم فقط.

والمقصود: أَن العبد إذا وقع في شدة أَو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أَنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإناب إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه

لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور، بل إن ذَكَر أو دَعا ذَكَر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أَخبارهم، ثم أَراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وُسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أَمر أَخوف من ذلك وأَدهى منه وأَمرُّ، وهو أَن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أَصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل «لَا إِلٰهَ إِلَّا الله» فقال: آه آه، لا أَستطيع أَن أَقولها. وقيل لآخر: قل «لا إلـه إلا الله». فقال شاه، رُخ، غلبتك ثم قضى، وقيل لآخر: قل «لا إلـه إلا الله» فقال:

يا رُبَّ قائلة يومًا، وقد تعبت: كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

ثم قضى. وقيل لآخر: قل «لا إلـه إلا الله» فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتنا تنتنا، حتى قضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول، ولم أَدَعْ معصية إلا ركبتها، ثم قضى ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني وما أَعرف أَني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها، وأَخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله فلس، لله، فلس لله، حتى قضى. وأَخبرني بعض التجار عن قرابة له أَنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقونه «لا إلـه إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيد، هذه كذا، حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذي يخفى عليهم من أَحوال المحتضرين أَعظم وأَعظم، فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوّته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أَغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو من أَلم النزع؟ وجمع الشيطان له كل قوّته وهمّته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته فإن ذلك آخر العمل، فأَقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأَضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يَسلم على ذلك؟ فهناك ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧].

فكيف يوفَّق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه، وكان أَمره فُرُطًا؟ فبعيد من قلبه من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أَسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أَن يوفق للخاتمة بالحسنى.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأَن المسيئين الظالمين قد أَخذوا توقيعًا بالأَمان ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [القَلَم: الآيتان ٣٩، ٤٠] كما قيل:

يا آمنًا مع قبح الفعل منه أَهل ... أَتاك توقيع أَمن أَنت تملكه؟

جمعت شيئين: أمنًا، واتباع هوى ... هذا، وإِحداهما في المرءِ تهلكه

والمحسنون على درب المخاوف قد ... ساروا، وذلك درب لست تسلكه

فرّطت في الزرع وقت البذر من سفه ... فكيف عند حصاد الناس تدركه؟

هذا، وأَعجب شيء فيك زهدك في ... دار البقاء بعيش سوف تتركه

مَن السفيه إذًا بالله؟ أَنت، أَم الـ ... ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه؟

المعصية تعمي القلب

ومن عقوباتها: أَنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أَضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أَنها تضعفه ولا بد، فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوّته.

فإن الكمال الإِنساني مداره على أَصلين: معرفة الحق من الباطل، وإِيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أَثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [صَ: الآية ٤٥] فالأَيدي: القوى في تنفيذ الحق، والأَبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إِدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أَربعة أقسام، فهؤلاءِ أَشرف الأَقسام من الخلق وأَكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة (له) في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأَرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأَسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه، ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، يكاد يميز بين أولياء الرّحمٰن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شَحمة، يحسب الوَرَم شحمًا، والدواء النافع سُمًا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤] فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين. وأقسم بالعصر ـ الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين ـ على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العَصر: الآيات ١ - ٣] ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا به، ويرشده إليه، ويخصه عليه.

وإذا كان مَن عدا هؤلاء خاسرًا، فمعلوم أَن المعاصي والذُّنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوّته وعزيمته فلا يصير عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك سيره فيدرك الباطل حقًا والحق باطلًا، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنوِّر القلب وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته، حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلىء نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يَفْرُق من هذا القلب أشدَّ من فَرَق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فتقال: أصابه إنسي، وبه نظرة من الإنس:

فيا نظرة من قلب حُرٍّ مُنَوَّرٍ ... يكاد لها الشيطان بالنور يُحرق

أفيستوي هذا القلب وقلبٌ مظلمة أَرجاؤه، مختلفة أَهواؤه، قد اتخذه الشيطان وطنه وأَعدَّه مسكنه، إذا تصبَّح بطلعته حيَّاه، وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أُخراه؟:

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها ... فأنت قريب لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء، فإنني ... وأنت جميعًا في شقًا وهوان

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزّخرُف: الآيات ٣٦ - ٣٩].

فأَخبر سبحانه أَنه من عشا عن ذكره، وهو كتابه الذي أَنزله على رسوله، فأَعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا، عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في السير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعًا لبان ثدي أُم، تقاسمًا بأَسحم داج عوض، لا يتفرق

ثم أَخبر سبحانه أَن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أَنه على طريق هدى، حتى إذا جاءَ القرينان يوم القيامة يقول أَحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقيْن، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أَضللتني عن الهدى بعد إذ جاءَني، وصددتني عن الحق وأَغويتني، حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل (له) بالتأَسي نوع تخفيف وتسلية، أَخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأَن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي، ولكن أُعزي النفس عنه بالتأَسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أَهل النار فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: الآية ٣٩].

المعصية مدد من الإنسان يمدّ به عدوّه عليه

ومن عقوباتها: أَنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام عنه، ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أَمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أَوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من

شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس: فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرّحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أَجله، فابذلوا جهدكم أَن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذا فاتتنا شركة صالحيهم في الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأَمرنا أَن نأْخذ له أهبته، ونعدّ له عدّته.

ولمّا علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بُلوا بهذا العدو وأَنه قد سُلط عليهم أَمَدَّهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأَمدّ عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأَقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنَفس واحد من أَنفاسها، واشترى من المؤمنين أَنفسهم وأَموالهم بأَن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيَقتلون ويُقتلون، وأَخبر أَن ذلك وعد مؤكد عليه في أَشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأَخبر أنه لا أَوفى بعهده منه سبحانه، ثم أَمرهم أَن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أَراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا؟ وأَي تجارة أَربح منه؟.

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصَّف: الآيات ١٠ - ١٣]. ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أَنواع المخلوقات إليه، إلا لأَن الجهاد أَحب شيء إليه، وأَهله أَرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواءَ هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محل معرفته، ومحبته، وعبوديته، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولاه أمر هذا الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الرّعد: الآية ١١] يعقب بعضهم بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأَبد.

ثمّ أَمدّه سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه. فأَرسل إليه رسوله ﷺ، وأَنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومددًا إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالعقل

وزيرًا له ومدبرًا. وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا، وباليقين كاشفًا له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أُمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدَّ سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العين طليعته، والأُذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] وهؤلاء جندي ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآية ١٧٣].

وعلم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد. فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠] ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأُمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأُذن واللّسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاءِ أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلُّوا المكان الذي أُمروا بلزومه يوم أُحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة ويدال عليك مرة أُخرى؟ أقبل مَلك الكفَرة وعساكره، فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمرُه نافذ في أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حَوزته، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة[1] بعض أُمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخص الجند

(١) المخامرة: الغش والمخادعة ممن تظنه معك.

به وأَقربهم منه منزلة، فقيل له: هي النفس، فقال لأَعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعِدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأَنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأُذن واللّسان والفم واليد والرّجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أَسير، أَو جريح مثخن بالجراحات، ولا تُخلوا هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غُلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئًا، فإذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أَن يكون نظره اعتبارًا بل اجعلوا نظره تفرجًا واستحسانًا وتلهيًا، فإن استرق نظرة عبرة فأَفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنه أقرب إليه، وأعلق بنفسه، وأخف عليه، ودونكم ثغر العين، فإن منه تنالون بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أَسقيه بماء الأُمنية، ثم لا أَزال أعدُه وأُمنيه حتى أُقوّي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة، فلا تهملوا أَمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم، وهوِّنوا عليه أَمره، وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأَمل لبديع صنيعه، وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه، وما خلق الله لك العينين سُدى، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه (الصورة) مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه، فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أَو الخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة، والعبادة والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه (وبه) الجهال، فهذا من أكبر خلفائي وأَكبر جندي، بل أَنا من جنده وأَعوانه.

ثم امنعوا ثغر الأُذن أَن يدخل منه ما يفسد عليكم الأَمر، فاجتهدوا أَن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستحسنه، تخيروا له أَعذب الأَلفاظ وأَسحرها للأَلباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجًا، وأَلقوا الكلمة، فإن رأَيتم منه إصغاء إليها فزُجوه بأَخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أَن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أَو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحُولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وأَن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصة على

النفوس وأن الاشتغال ينبغي أَن يكون بما هو أغلى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القائلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرّابح بين الناس أَولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه، وتخرجون له الحق من كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

وإذا شئت أَن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عثرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك، ويخرجون أَتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكييف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزًا، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله: «من يسأَلني فأُعطيه» تحركًا وانتقالًا، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أَعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أَفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أَعراضًا، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأُمور، ويوهمون الأَغمار وضعفاء البصائر أَن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأُمور، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم، وأَكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه زخرفًا، وهو باطل. لأَن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور، فيغتر به.

والمقصود: أَن الشيطان قد لزم ثغر الأُذن أَن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أَفسده عليه.

ثمّ يقول: قوموا على ثغر اللّسان، فإنه الثغر الأَعظم، وهو قبالة الملك، فأَجروا عليه من الكلام ما يضرّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه، من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلّم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أَمران عظيمان، لا تبالون بأَيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلّم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أَخ لكم أَخرس، كما أَن الأَول أَخ ناطق، وربما كان الأَخ الثاني أَنفع أخويكم لكم، أَما سمعتم قول الناصح «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أَخرس».

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوّفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أَن ثغر اللسان هو الذي أَهلك منه بني آدم وأَكبَّهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأَسير وجريح أَخذته من هذا الثغر؟.

وأُوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجيب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أَعوانًا على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مَرْصد. أما سمعتم قسَمي الذي أَقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧] أَو ما تروني قد قعدت لابن آدم بطرُقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أُصيب منه حاجتي أَو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله ﷺ وقال لهم: «إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، وقعد له بطريق الإسلام، فقال: أَتُسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأَسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أَتهاجر وتدر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أَتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟». فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أَنت سواء؟ أو ما سمعتم ما أَلقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أَموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم، واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها، ثمّ اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أَعين بني آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أَكثر أَوانكم على ذلك النساء، فمن أَبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فمنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه.

واعلموا أن أَكثر أَعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأَمَّارة. فأَعينوها واستعينوا بها، وأَمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة، وانطاعت لكم أَعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأَمارة، فإنها لا تأْمر إلا بما تَهوونه

وتحبونه، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبتة، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأَمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح، فزينوها وجملوها، وأَروها إياه في أَحسن صورة عروس توجد، وقولوا له: ذُقْ طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس، كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أَوزارها، فليست بيوم وتنقضي، وإنما هو حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأَغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أَبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن إغوائه.

والثاني: جند الشهوات، فزينوها في قلوبهم، وحسنوها في أَعينهم، وصُولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بني آدم أَبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أَربعة وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأَيتم جماعة مجتمعت على ما يضركم - من ذكر الله أَو مذاكرة أَمره ونهيه ودينه، ولم تقدروا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم.

وبالجملة فأَعدوا للأُمور أَقرانها، وأَدخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا أعوانًا له على تحصيلها، وإذا كان الله قد أَمرهم أَن يصبروا لكم، ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغور، فاصبروا أَنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أَن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أَغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور، فخذوا عليه طريق الشهوة، ودعوا طريق الغضب، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أَغلب، فلا تخلو طريق الشهوة قلبه، ولا تعطوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحري أن لا يملك نفسه عند الشهوة، فزوجوا بين غضبه وشهوته، وامزجوا أَحدهما بالآخر، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة.

واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أَبلغ من هذين السلاحين، وإِنما أخرجت أَبويهم من الجنة بالشهوة، وإِنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فبه قطعت أَرحامهم وسفكت دماؤهم، وبه قتل أحد ابني آدم أَخاه.

واعلموا أَن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، والشهوة نار تثور من قلبه، وإنما تطفَأُ النار بالماءِ والصلاة والذكر والتكبير، فإِياكم أَن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفيء عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أَمرهم نبيهم بذلك، فقال: «إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم (من) احمرار عينيه، وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحسّ بذلك فليتوضأْ». وقال لهم: «إنما تطفأُ النار بالماءِ». وقد أَوصاهم الله أَن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة، فحُولوا بينهم وبين ذلك، وأَنسوهم إياه، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغ أَسلحتكم فيهم وأَنكاها: الغفلة، واتباع الهوى. وأَعظم أَسلحتهم فيكم وأَمنع حصونهم: ذكر الله، ومخالفة الهوى. فإذا رأَيتم الرجل محالفًا لهواه فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه.

والمقصود: أَن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أَعداءَه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأَعداءُ من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب أَن العبد يسعى بجهده في هوان نفسه، وهو يزعم أَنه لها مكرم، ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأَشرفها، وهو يزعم أنه يسعى في حظها، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسيتها، وهو يزعم أَنه يعليها ويرفعها ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: أَلا رُبَّ مهين لنفسه وهو يزعم أَنه لها مكرم، ومُذلٌ لنفسه وهو يزعم أَنه لها مُعزٌّ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أَنه لها مكبِّر، ومضيع لنفسه وهو يزعم أَنه مراع لحفظها؟ وكفى بالمرءِ جهلًا أَن يكون مع عدو على نفسه، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه، والله المستعان.

المعصية تنسي العبد نفسه

ومن عقوباتها: أَنها تنسي العبد نفسه، وإِذا نسي نفسه أَهملها وأَفسدها وأَهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإِذا نسي نفسه فأَيُّ شيءٍ يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟.

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: الآية ١٩] فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم

وأَنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٦٧] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين.

إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أَنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أَدنى إليه من اليد للفم، وأَما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأَسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكلل به، ينسيه ذلك جميعه، فلا يُخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأَيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأَمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أَعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأَي عقوبة أَعظم من عقوبة من أَهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها وداءَها ودواءَها، وأَسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأَبدية في النعيم المقيم؟

ومَن تأَمل هذا الموضع تبين له أَن أَكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأَضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أَنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل أَحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أَنهم أَهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها، ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأَذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأَنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلًا بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أَحدهم:

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعتَ به

فكيف أَبيع حاضرًا نقدًا مشاهدًا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أُخرى غير هذه؟ ويضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة، ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٦]. وقال فيهم ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية

١٦]. فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتتقطع عليها النفوس حسرات.

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيًا بباق، وخسيسًا بنفيس، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخر بها؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: الآية ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النّازعات: الآيات ٤٢ - ٤٦] وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]. وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١١٢ - ١١٤]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طـه: الآيات ١٠٢ - ١٠٤] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دارًا غير هذه الدار، هي دار الحيوان ودار البقاء ـ رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاءِ بدار الفناءِ، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاءِ من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدنيا بائع غير مشتر متجر. وكل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: الآية ١١١].

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن هٰهنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصّف: الآيتان ١٠، ١١].

والمقصود: أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

المعصية تُزيل النِّعم الحاضرة

ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته، ولا ستُجلِب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة: سببًا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أَسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أَراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أَراد زوالها عنده خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعًا لما غاب عنا من أخبار مَن أُزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة (أو) مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه.

فأَي جهل أَبلغ من هذا؟ وأَي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

المعصية تُباعِد العبد عن وليّه

ومن عقوباتها: أَنها تباعد عن العبد وليه، وأَنفع الخلق له، وأَنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه: وهو الملك الموكل به، وتدنى منه عدوه، وأَغش الخلق له، وأعظمهم ضررًا له: وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلًا من نتن ريحه». فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك، وأَفحش منه؟

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكرُ الذكرَ عجت الأَرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأَت.

وقال بعض السلف: إذا أَصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ

تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [فُصلَت: الآيتان ٣٠، ٣١]. وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبته وعلمه، وقوَّى جنانه، وأيده. قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ١٢] فيقول له الملك عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك» ويثبته بالقول الثابت أَحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أَنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته، وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، يحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعِدُه بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاءَ في الأَثر الذي يُروَى مرفوعًا «إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة وللشيطان لمة، فلمَّة الملك إِبعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إِيعاد بالشر وتكذيب بالحق».

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وأَلقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه، وأَلقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفي الحديث «إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه وكان أَحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما أَلقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما أَلقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقى بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أَنها تبعد من العبد وليه الذي سعاته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه، كما «اختصم بين يدي النبيّ ﷺ رجلان فجعل أَحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت، فقال: كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاءَ الشيطان فلم أكن لأَجلس». وإذا دعا العبد المسلم لأَخيه بظهر الغيب أَمَّن الملك على دعائه، وقال «لك بمثله» وإذا فرغ من قراءَة الفاتحة أَمنت الملائكة على دعائه، وإذا أَذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومَن حوله، وإِذا نام على وضوءٍ بات في شعاره ملَك، فملَكُ المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه ويثبته ويشجعه، فلا يليق به أَن يسيء جواره ويبالغ في أَذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإِذا كان إكرام الضيف من

الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: «لا جزاك الله خيرًا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم وأكرموهم».

ولا أَلأَم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ - ١٢] أي استحيوا من هؤلاءِ الحافظين الكرام وأكرموهم، وأَجلُوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاءٍ يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى: اسم متناول لهذه الأُمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأُمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية. وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأَخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه، ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصَّنته ... مخافة من أَلم طاري
وكان أَولى بك أَن تحتمي ... من المعاصي خشية الباري

فمَن حفظ القوة بامتثال الأَوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، والله المستعان.



فهرس المحتويات